الثقافة الجديدة



246





مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

246

العدد 8 السنة 39 حزيران 1992

فهرست

■ نحو المؤتمر الخامس ـ آراء ومناقشات

4 ـ من مشروع آذار الى مشروعي الوثيقتين .... فائز العراقي
15 ـ وجهة نظر خاصة حول مشروع البرنامج .... فياض الحمادة
20 ـ التبويب والشعار في مشروع البرنامج .... جامعي مغترب
23 ـ لمحة على ضوء مناقشة الوثيقتين .... أبو ذكرى
30 ـ حصيلة مناقشة الوثيقتين في احدى المنظمات
37 ـ حول الموقف من الحزب الشيوعي في كردستان .... وريا سعيد
46 ـ رغم ذلك فالعدالة حلم الكادحين .... حاتم لطفي

57 ـ كربلاء والاعداد لثورة العشرين .... محمد حسن السلامي
67 ـ ادب السلوك الصوفي ـ ادب الروح .... د. ميثم الجناني
77 ـ القوة القانونية لقرارات مجلس الامن .... د. احمد الموسوي
82 ـ الكمبيوتر والترجمة .... سلام كبه

■ ادب وفن

92 ـ اكراد رحل / شعر .... انور الغساني
96 ـ اسلاف المكيدة / شعر .... صالح دياب
99 ـ ثلاث قصائد / شعر .... أحمد ديبو
102 ـ قصتان قصيرتان .... ابراهيم احمد

108 ـ جهاز الدوران / قصة .... سلام صادق
114 ـ الطريق الزراعي الطويل / قصة .... نجم والي
123 ـ هنا البصرة / قصة .... يوسف ابو الفوز
130 ـ الفن المفاهيمي .... ماري آني ستانسويسكي
ترجمة: هلال حميد
145 ـ ضراوة الذهب / حول حرية الكاتب .... هاشم شفيق
149 ـ سنة رامبراندت العالمية/
رامبراندت والشرق: جماليات التباين .... اسماعيل زاير
153 ـ متابعات ثقافية

■ مقتطفات ومعالجات

158 ـ حوار مفتوح حول قضايا البديل في العراق .... هيئة تحرير الغد الديمقراطي
162 ـ حركة المهجرين العراقيين .... الموقف الاسلامي
164 ـ يغتالون الوطن ويتباكون عليه .... البديل الاسلامي
165 ـ المعارضة العراقية مدعوة لوحدة الصف واليقظة ..
ووضوح الرؤيا .... الاتحاد

الغلافان من معرض احلام ملونة للفنان منصور احمد

من مشروع اذار الى مشروعي الوثيقتين!
التجديد ضرورة موضوعية وحاجة ملحة

فائز العراقي

قبل التطرق الى صلب الموضوع الذي نحن بصدده، لا بد من توجيه الشكر والثناء لمجلتنا: «الثقافة الجديدة» على النهج الجديد الذي اختطته لنفسها في السنوات الاخيرة: نهج التعددية الفكرية، نهج احترام الرأي والرأي الآخر، نهج عدم حرمان ذوي «الآراء المغايرة» (ولقد كنت واحداً منهم في العديد من الاحيان ونالني الاذى اكثر من مرة بسبب ذلك ـ أو «جماعة الاقلية في الحزب» الذين طالما اكتووا بالنهج البيروقراطي الاوامري السابق) بحجة تطبيق المركزية، من حق ابداء آرائهم «المغايرة» بكل حرية واطمئنان.

وينبغي التأكيد هنا على انها المرة الاولى في تاريخ الحزب التي تشاع فيها الديمقراطية، واصطراع الافكار، والتعددية الفكرية، وعلى صفحات منابره الاعلامية بشكل علني وبهذه الكيفية وبهذه الدرجة من الشمولية والاتساع.

المطلوب هنا، هو تكريس هذا النهج ودعمه، وعدم العودة عنه مهما كانت الظروف والاحوال، اذ انه الاسلوب الوحيد الذي يحول دون تفتت الحزب، ويحافظ على وحدته وتماسك بنيانه من اجل الاستمرار في خدمة اهداف كادحي شعبنا بقوميتيه الرئيسيتين: العربية والكردية، ومختلف الاقليات القومية المتآخية فوق ثراه، وكذلك من اجل خدمة اهداف امتنا العربية العريقة في التحرر والديمقراطية والاشتراكية والوحدة.

مقالتنا هذه تركز على مناقشة الوثيقتين الجديدتين: (مشروع الوثيقة البرنامجية ومشروع النظام الداخلي للحزب الشيوعي) إلا انها تتطرق احياناً لبعض الفقرات الواردة في وثيقة آذار ١٩٩٠: «في سبيل: استنهاض قوى الشعب لتحقيق السلم والبديل الديمقراطي» وذلك لانها تتداخل مع بعض الفقرات الواردة في الوثيقتين، وكذلك لان بعض التحليلات والرؤى والمواقف السياسية والفكرية في وثيقة آذار تصلح لان تكون منطلقات اساسية في مشروع الوثيقتين: «البرنامج والنظام الداخلي للحزب».

ان تجديد الحزب في كافة مستوياته وبناه ـ وبخاصة في البنيتين الايديولوجية والتنظيمية ـ غدا شرطاً ضرورياً لتطوره اللاحق حيث اقترنت العديد من الظروف الذاتية والموضوعية وانضجت هذه المسألة الحيوية : «التجديد».

ان التجديد ليس «مودة» أو نزوة ورغبة ارادوية عابرة، أو تقليداً ميكانيكياً مفتعلاً أو محاولة انتهازية يائسة لركوب الموجة والاستئثار بالمناصب القيادية الحساسة في الحزب، بل انه ضرورة موضوعية، وحاجة ملحة تمليها ضرورات التطور الاجتماعي ـ التاريخي لمجتمع ما في مرحلة تاريخية، وان ذلك يحصل بعد ان يكون القديم قد استنفد دوره فاسحاً المجال لظهور الجديد الذي يحمل هو الآخر بين طياته بذور نفيه وتغيره وتحوله، وهذه هي احدى السمات الجوهرية في الجدل الماركسي، أو لنقل احد قوانين الديالكتيك الماركسي المعروفة : «نفي النفي».

التجديد في المستوى الايديولوجي / مشروع الوثيقة البرنامجية

فيما يتعلق بالجانب الايديولوجي، تقول الوثيقة في احدى فقراتها: «ويصوغ الحزب الشيوعي العراقي وثيقته البرنامجية استناداً الى دراسة المجتمع العراقي المعاصر وتركيبه القومي والتطورات الجارية فيه، مسترشداً بالمنهج الماركسي، والتراث اللينيني، وسائر التراث الانساني الاشتراكي، والنزعات والتيارات الفكرية الرامية الى العدالة والمساواة في تاريخ شعبنا وتراثه».

في الحقيقة انني اجد هذه الصيغة متطورة بالنسبة لتاريخ الحزب، وهي صيغة تبعدنا كثيراً عن الجمود و«الدوغما» التي طالما اضرت ليس بمسيرة حزبنا الفكرية، بل وبالعديد من الاحزاب الشيوعية في منطقتنا العربية وفي العالم، لانها تعاملت مع منظومة الافكار الماركسية كقوالب جامدة تريد تطبيقها في كل زمان ومكان دون مراعاة الخصائص الملموسة والحسية لواقع كل شعب وامة خصوصاً وان بعض افكار النظرية الماركسية قد شاخت وتجاوزها الزمن، بل والبعض الآخر لم تثبته الحياة، وهذا ما سأركز عليه بعد قليل.

ومع احترامي للصيغة المتقدمة، فانني اقترح صيغة اراها اكثر صواباً وعمقاً وشمولاً، وهي : يسترشد الحزب «بالمنهج المادي الجدلي»، لقراءة الواقع الموضوعي، وتحليله، واستشراف آفاقه، أي الالتزام هنا بروح «الجدل» الماركسي، وليس بكامل المنظومة الفكرية الماركسية، الجدل بوصفه علاقة وحركة، وطريقة في التعامل مع الواقع تقوم على اساس ان كل شيء في حركة وتطور وتغير.

ان هذه الصيغة تجعلنا نستفيد من روح الجدل كمرشد، وكأداة تحليل معرفية تستقريء الواقع «بجوانبه الطبيعية والاجتماعية والفكرية» وظواهره المترابطة والمتفاعلة والمتغيرة، وليس كأفكار جاهزة كنا نعتقد دائماً بانها كلّية الصحة!!.

ومن الناحية الشمولية، فان صيغة الالتزام «بالمنهج المادي الجدلي» تجعلنا نستفيد مثلاً من ديالكتيك «هيغل» الذي تتلمذ على يده ماركس في هذه النقطة بالذات، كما انها توفر لنا الامكانية لعدم التقيد ببعض الافكار الماركسية، اما لعدم صحتها، أو لعدم امكانية تطبيقها على واقعنا

الحسي الشرقي المختلف في خصائصه وبناه وتاريخيته عن الواقع الغربي الاوربي مثلاً، كما انني افضل حذف جملة «التراث اللينيني» ـ على عظمته وتأثيره وجدواه ـ لكي نفسح المجال في التعامل مع الماركسيين المبدعين الآخرين بروح نقدية جادة ترى الايجابي والسلبي في تراثهم الفكري: ومنهم بشكل خاص: بليخانوف، وتروتسكي، وروزا لوكسمبورغ، وغرامشي، وكاوتسكي، وبوخارين، وحتى ستالين الذي من الخطأ تقييم تراثه واعماله بروح عدمية مطلقة السلبية. فاذا كان ستالين مداناً ـ هو وبطانته ـ لاعماله القمعية والتآمرية، ولطريقته الاوامرية الدكتاتورية و«التوتاليتارية» في البناء الاشتراكي، يجب ان لا ننسى في الوقت ذاته مأثرة الشعب السوفييتي بقيادته لدحر النازية في الحرب العالمية الثانية مثلاً.

انني باختصار ادعو بان تستند المنظومة الايديولوجية لحزبنا مستقبلاً على ثلاث ركائز واسس ـ وان افكاري هذه ليست إلا مقدمات اولية تتكامل مع آراء آلاف الملتزمين بالخيار الاشتراكي من ابناء شعبنا ـ وهي: ١ ـ الاسترشاد بالمنهج المادي الجدلي، والاستفادة ـ وليس الالتزام ـ من الفكر الاشتراكي العلمي العالمي، ومن المفكرين الاشتراكيين العرب الكبار، ومنهم: الشهيد حسين مروة، والشهيد مهدي عامل. .. الخ، وكذلك من المفكرين من ابناء القوميات الاخرى في المنطقة، وفي العراق.

٢ ـ الاسترشاد بالقيم الايجابية في التراث العربي ـ الاسلامي. وهذا يستوجب دراسة التراث المذكور بروح نقدية، عقلانية، واقعية وجدلية، تستطيع استلهام القيم الايجابية العظيمة فيه، واعادة صياغتها كعناصر هامة في البنية الايديولوجية ـ الثقافية لحركتنا الثورية الاشتراكية المعاصرة.

ان الفكر الاشتراكي ـ حتى وان كان بشكله الطوباوي ـ وكذلك افكار العدالة الاجتماعية، ليس وليد الماركسية فقط، بل وان التراث العربي ـ الاسلامي زاخر بهذه الافكار، وقبل ماركس، كان الامام علي، الذي قال يوماً: «ما استغنى غني إلا وجاع فقير»، وقبل ماركس كان ابن خلدون الذي ركز على اهمية العامل المادي والاقتصادي في تطور التاريخ، وفي تحريك احداثه.

انني ادعو ان تكون حركتنا الاشتراكية امتداداً لافكار العدالة الاجتماعية التي نادى بها: علي بن ابي طالب، وابو ذر الغفاري، وعمر بن عبد العزيز، وكذلك لافكار الحركات الاجتماعية الثورية: القرامطة، الزنج، العيّارون، الصعاليك. . . الخ، أي تكون الحركة من علي الى فهد، سلام عادل، وعبد الخالق محجوب، وفرج الله الحلو، وماركس، ولينين، وغيرهم. وهذا لا يعني ابداً الدعوة لان يكون الحاضر على هيئة ومثال الماضي، وبتعبير آخر، دعوة لوقعنة ـ أي تصييره واقعاً راهناً ـ بل هي دعوة تستفيد من قيم التراث الايجابية، ثم الانطلاق من الحاضر صوب المستقبل الوضيىء اذ ان من ليس له ماض وتراث ليس له مستقبل، بذلك نكون ربطنا ربطاً جدلياً بين التراث والمعاصرة، وقمنا بتأصيل المعاصرة، وانطلقنا من الذات الى الخارج، ومن الخاص الى العام، وليس العكس، لاسيما ونحن قد بالغنا في اهمية العامل الاممي، وقللنا من اهمية العامل القومي. وفي هذا المجال أؤيد الاستنتاج الاولي الذي جاء مؤخراً على لسان الرفيق يوسف فيصل حول ضرورة العلاقة المتوازية بين ما هو قومي وما هو اممي، والاستنتاج وان كان يهم الرفاق في الحزب الشيوعي السوري بالدرجة الاولى إلا انه

يمكن الاستفـادة منـه نظراً للتفـاعل والترابط الوثيق بين الاحزاب الشيوعية العربية، يقول: «ان انعكاسات المؤتمر على الوضع الداخلي الحزبي كثيرة. واول استنتاج حدده مؤتمرنا السابع الموحد هو ان علينـا استخـلاص العبـر والدروس من مجمل التطورات والتغيرات العالمية والعربية التي حصلت في مختلف المجالات بايجابياتها وسلبياتها، وبالتالي السعي الجدي لتجديد حزبنا. فقد عشنا مرحلة كنا فيها جزءاً من حركة تلقينا منها اكثر مما اعطيناها، وجعلنا للعام في بعض القضايا اسبقية على الخاص، ولم تحدد كما ينبغي العلاقة المتوازية فيما بينهما، مما اضعف تأثيرنا في الواقع القومي، (ويضيف قائلاً حول اهمية الموقف القومي) وقد اعاد المؤتمر النظر في موقفنا من القضية القومية واعتبر ان العامل القومي، عامل عميق ومؤثر، وهو لا يضعف مع التطور ومع ارتفاع الوعي، بل يزداد عمقاً وترسيخاً، ومن هذا المنطلق طرحت قضية الوحدة العربية وضرورة العمل لتحقيقها كهدف قومي في مواجهة الامبريالية وفي مواجهة ضرورات ومتطلبات التقدم والتطور...»[1].

٣ ـ الاستفادة من الفكر النهضوي ـ التنويري الذي بانت بواكيره في القرن التاسع عشر وفي القـرن العشـرين والـذي قام به العـديد من المفكرين من كافة القوميات والطوائف والاديان في منطقتنا، وكذلك من الفكر القومي العربي الديمقراطي التنويري واذكر هنا على سبيل المثال: محمـد عبـده، الكـواكبي، الافغـاني، طه حسين، العقاد، بطرس البستاني، الزهاوي، شبلي شميل، سلامة موسى، وغيرهم.

ـ وفي هذا المجال اقترح ان يقوم المؤتمر الخامس للحزب بتشكيل ثلاث لجان متخصصة للبحث في هذه الركائز الثلاث وان يتبنى المؤتمر كمقترح الافكار الاولية لهذا المشروع، ثم يأتي التعميق لاحقاً على شكل بنية ايديولوجية فكرية جديدة.

وفي المجال الفكري ايضاً اقترح اضافة فقرة اساسية لمشروع البرنامج الجديد حول: «دراسة اسبـاب ونتـائـج انهيار التجربـة الاشتـراكية في الاتحاد السوفييتي، ودول اوربا الشرقية، ودور البيروسترويكا في ذلك». انني استغرب هنا لماذا لم يورد الحزب هذه الفقرة في مشروع الوثيقة البـرنامجية، علماً انها اخذت حيزاً كبيراً في وثيقة آذار ١٩٩٠ «وهي ايضاً وثيقة برنامجية» قارب حوالي الثلث (١٤ صفحة).

ترى هل هو رد فعل انفعالي لما آلت اليه نتيجة «البيروسترويكا» لاسيما وان نتائجها ـ بشكل عام ـ لم تكن تنسجم مع توقعات قيادة الحزب؟ سؤال اوجهه لقيادة الحزب، وللرفاق الذين ساهموا في صياغة الوثيقة الجديدة، ووثيقة آذار الماضية. وللموضوعية، والانصاف، اقول ان قيادة الحزب تنبهت لبعض المخاطر التي يمكن ان ترافق البيروسترويكا في مجرى صيرورتها، وتحدثت في وثيقة آذار عن «الجانبين الايجابي والسلبي» كما انها اكدت في منابر الحزب الاعلامية انها مع «جوهر البيروستـرويكا ضد التشويهات». إلا انها مع ذلك لم تكن مصيبة في تأييدها «المتحفظ نسبياً» للبيرويستـرويكـا، حيث انهـا راحت تتحدث عن «ضرورة موضوعية» لولادة هذه الظاهرة، وفي الحقيقة انها لم تكن سوى عملية تخريب للبناء الاشتراكي، وليس عملية اعادة بناء كما زعم السيد

غورباتشوف ورهطه. ولم نقل عملية «تخريب منظمة»، هذا اذا سلّمنا جدلاً بحسن النوايا التي حركت مُطلقي هذه «التقليعة والمودة المفتعلة»، واذا صح ذلك فالطريق الى «جهنم معبدة بالنوايا الحسنة»!!. ان النتائج التي آلت اليها التجربة خير دليل على صحة هذا الرأي، والامور في السياسة كما يُقال تقاس بنتائجها الملموسة، وليس بالشعارات الديماغوغية القائلة بان البيروسترويكا استهدفت اعادة بناء وتجديد المجتمع السوفييتي في كافة مستوياته، وتطوير البناء الاقتصادي الاشتراكي وفق احدث المنجزات العلمية - التقنية، واعادة الوجه الانساني للاشتراكية، وان هذا التجديد على حد زعم السيد غورباتشوف سيكون ضمن الخيار الاشتراكي!!، والنتيجة كما تعرفون: مجاعة، وبطالة، وانفلات العنصرية القومية، ونذر حرب اهلية قد تكون مهلكة!!، والنتيجة ايضاً تخلى السيد غورباتشوف ليس عن الحزب فقط، بل وحتى عن الاشتراكية!!، وبدأ يتحدث مؤخراً عن صواب التطور الرأسمالي - واقتصاد السوق -، إلا ان الذي يميزه الآن عن غريمه يلتسين، هو ان الاول يريد الانتقال الى الاقتصاد الرأسمالي بشكل تدريجي تطوري، أما الثاني فيريد تحقيق ذلك بضربة عصا سحرية، وفي ليلة وضحاها «وكفى الله المؤمنين شر القتال»!!، كما ان ديمقراطية السيد يلتسين التي طالما تبجح بها قبل سنوات بانت هي الاخرى «بأبهى صورها» حينما الغى الحزب الشيوعي السوفييتي وصادر ممتلكاته!!، طبعاً وبموافقة ضمنية من السيد غورباتشوف الذي اعاد حقاً بحركاته المسرحية الوجه المشرق والانساني للاشتراكية!!.

ما يهمني هنا الآن هو ان قيادة حزبنا قد تسرعت في تحليلها لهذه الظاهرة التي لم تتبلور بشكل واضح آنذاك من حيث: عناصرها الداخلية المكونة، قانونيتها الداخلية، الآلية التي تحكمها، واشكال تجليها. لماذا هذا الاستعجال والظاهرة كانت في طور التبلور؟ هل هو شكل آخر من اشكال التبعية للمركز؟ علماً ان العديد من المفكرين والكتّاب في منطقتنا وفي العالم كانوا قد حذروا من مخاطر سلبيات هذه - الظاهرة المودة - بالاضافة الى ان ملايين الناس «البسطاء» كانوا يدركون بفطرتهم السليمة، وبحسهم السياسي الرفيع ان نتائجها ستكون وبالاً على الاشتراكية، وعلى الديمقراطية، وعلى البشرية التقدمية جمعاء!! لن اطيل، سأنقل لكم هاتين الفقرتين من وثيقة آذار - ١٩٩٠، للتدليل على ما ذهبت اليه: «فالقيم الديمقراطية والانسانية العامة اكتسبت ابعادها الشعبية الواسعة على الصعيد العالمي بفضل المبادرة التجريدية - يقصد البيروسترويكا - . . . ص ١٤ / الثقافة الجديدة/ العدد ٢٢٠». والفقرة الثانية تقول: «لقد استعادت الديمقراطية، بفضل البيروسترويكا مكانتها كقيمة انسانية شمولية. . . ص ٢٠ / المصدر السابق» ترى ماذا صمد، وسيصمد من هذه الفكرة امام الزمن؟ وكيف تطورت الاحداث، وبأي اتجاه؟ وما فائدة استنادنا على نظرية علمية اذا لم نُحسن استخدامها بشكل مبدع وخلّاق؟

ان حديثي هذا لا يعني مطلقاً عدم وجود عناصر خلل كبيرة في بنية النظام الاشتراكي آنذاك، وخاصة تفشي البيروقراطية والمحسوبية والركود والاوامرية المقيتة، وخنق الديمقراطية، إلا ان تصحيح هذه الاخطاء كان ينبغي ان يتم من داخل العملية نفسها، وفي اطار البناء الاشتراكي وليس بالطريقة التي قادها بها فرسان البيروسترويكا!!.

ان السؤال الاخطر الذي يواجهه كل الشيوعيين والتقدميين والديمقراطيين في العالم، هو اين الخطأ؟ في النظرية، أم التطبيق؟ أم في كليهما معاً؟.

من ناحيتي ارى ان الخلل يكمن في النظرية والتطبيق معاً، وان كنت اعزو السبب للخلل في التطبيق اكثر من الخلل في النظرية. واعني به التطبيق القسري الاوامري للاشتراكية الذي تجلى في النموذج السوفييتي، حيث ان الاشتراكية كما هو معلوم هي تجربة خلاقة لا يمكن انجازها إلا بالمساهمة الحرة، والمبدعة، والواعية لقوى الشعب الحيّة برمتها، وهذه المساهمة لا تتم إلا بقناعة تامة واصيلة وطوعية من قبل الشعب المعني، وان أي عمل قسري يتنافى مع تعزيز الديمقراطية في هذا المجال سيقود الى تطورات سلبية، وهذا ما كشفت عنه التجارب المذكورة.

عموماً، هناك رأيان يمكن رصدهما حتى الآن: احدهما يقول: لم يكن هناك ثمة «اشتراكية» في الاتحاد السوفييتي وفي دول اوربا الشرقية!!، بل كان هناك نظام رأسمالية الدولة البيروقراطية: والثاني يؤكد على وجود خلل في تطبيق الاشتراكية، وهذا الخلل، وخاصة البيروقراطية ادى الى نسف التجربة من الداخل ـ وهذا هو السبب الذاتي في فشل التجربة ـ أما السبب الخارجي فيتعلق بعملية التخريب الامبريالي المنظمة. وانا اعتقد بالرأي الثاني. وبالمناسبة فان لينين سبق وان نبه الى مخاطر البيروقراطية في وقت مبكر من انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية، وقال ان هناك خطرين يهددان مصير الثورة الاشتراكية: «البيروقراطية والانتاج البضاعي الصغير»، وعن خطر البيروقراطية قال: «بعد ستة اشهر من ثورة اكتوبر، ومع تحطيم الجهاز البيروقراطي القديم من رأسه الى اخمص قدميه، لم تكن نلمس شراً من شرورها «أي البيروقراطية». وبعد عام، حين تبنى المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي برنامجاً حزبياً جديداً، اشرنا بصراحة الى «عودة جزئية للبيروقراطية داخل النظام السوفييتي» غير خائفين من الاعتراف بالشر، بل راغبين بكشفه وتعريته ومهاجمته من اجل استنهاض الافكار والطاقات والجهود لمحاربة هذا الشر. وبعد عامين، في ربيع ١٩٢١، بعد المؤتمر الثامن للسوفييت فاننا وجدنا شرور البيروقراطية اكثر بروزاً وخطراً»[٢].

أما فيما يخص النظرية، فانني اعتقد ان بعض جوانبها، وبعض المقولات والافكار الماركسية قد شاخت وتجاوزها الزمن، فمثلاً ان دكتاتورية البروليتاريا التي تحدث عنها ماركس، ثم توسع فيها لينين لم تعد مناسبة لروح عصرنا، بل ان مجرد ذكر كلمة «دكتاتورية» هي مدعاة للنفور والاشمئزاز، ناهيكم عن ان واقع الطبقة العاملة في الشرق الاوسط، وفي منطقتنا العربية، يختلف جذرياً عن واقع الطبقة العاملة الاوربية، ففي اوربا كان الفرز الطبقي واضحاً حيث انقسم المجتمع بشكل عام الى طبقتين متناقضتين واضحتين: البرجوازية، والعمال.

أما هنا فهناك تداخل طبقي، والطبقة العاملة ضعيفة التطور كماً ونوعاً، كما انها غالباً تعود في جذورها الى اصول فلاحية كما ان مجتمعاتنا الشرق اوسطية هي مجتمعات زراعية عموماً، وتشكل الطبقة المتوسطة، والبرجوازية الصغيرة النسبة الاعلى في تركيبتها الطبقية، لكل هذه الامور، ولامور اخرى ليس هناك مجال لشرحها الآن، لا يمكن ان نتبنى هنا «دكتاتورية البروليتاريا»، بل يمكن ان نتحدث عن نوع من انواع الانظمة «الديمقراطية الشعبية» التي تلعب

فيها الطبقة العاملة دوراً قيادياً ومتميزاً، وانا هنا لا انكر الخصائص الثورية العظيمة التي تتمتع بها الطبقة العاملة والتي تميزها عن كافة الطبقات الاخرى، إلا انني ادعو ان تكون الاحزاب الاشتراكية والشيوعية ليست احزاباً «للطبقة العاملة» بل احزاباً لمجموع كادحي الشعب وطبقاته المنتجة، وهم العمال، والفلاحون والمثقفون، وأصحاب المهن الحرة، وصغار التجار والكسبة. اذ ان هذه النظرة الطبقية هي الاشمل والاوسع والاكثر قدرة على تعبئة طاقات الجماهير الشعبية الكادحة.

من ناحية اخرى، فانني ارى بان ماركس وانجلس قد بالغا بدور العامل الطبقي والصراع الطبقي في تحريك احداث التاريخ، وقللا من اهمية دور العوامل الاخرى. انني ارى بان العامل الطبقي هو احد العوامل الاساسية المحركة للتاريخ، ويرتدي هذا العامل «احياناً» اهمية حاسمة وذلك حينما تبلغ التناقضات الطبقية في مجتمع ما، وفي مرحلة تاريخية ما اوج احتدامها. إلا ان هناك عواملاً اخرى موازية للعامل الطبقي ولا تقل دوراً عنه في التأثير والفاعلية، وذلك كالعامل القومي، والعامل العقائدي الذي يتعلق بالفكر والقيم الروحية والتراثية. ان نظرة بسيطة لما يحدث الآن في يوغسلافيا وفي الاتحاد السوفييتي تؤكد على اهمية العامل القومي في تحريك الاحداث، بالرغم من ان التعصب القومي الشوفيني يتنافى مع التوجه التقدمي والانساني العام. كما ان العامل القومي هو عامل اساسي وحاسم في صراع امتنا العربية مع العدو الصهيوني.

من هنا فانني ارى بان الماركسية نفسها بحاجة الى تطوير وتجديد، وفي هذا المجال ادعو الى قراءة جديدة للفكر الماركسي وتطبيقه بشكل خلاق ومبدع ينسجم مع الخصائص الحسية والملموسة لواقع شعبنا العراقي بقوميتيه الرئيسيتين: العربية والكردية، وبقية القوميات الاخرى، ولواقع امتنا العربية، قراءة قائمة على موقف نقدي للخطاب الماركسي واخذ منه ما ينسجم مع واقعنا، ونبذ ما لا ينسجم معه.

والآن هل انتهت الاشتراكية، لان النموذج السوفييتي قد انهار؟ كلا، ان الاشتراكية لا يمكن ان تنتهي، لانها حاجة يمليها التطور الموضوعي للمجتمع البشري، ولانها الطريق الامثل لحل مشكلات الانسان وانهاء كافة اشكال اغترابانه واستلاباته، ولانها القادرة على تهيئة الظروف المادية والروحية المناسبة لبناء الشخصية الانسانية المتناسقة والمنسجمة والمتطورة والمتحضرة.

اقترح اضافة فقرة جديدة للوثيقة البرنامجية يكون عنوانها: «البيروقراطية داخل الحزب وسبل تجاوزها» ويجري تناولها من حيث: واقعها، واسبابها، واشكال تجلياتها، وآثارها السلبية على مسيرة الحزب، ثم دور القيادة في سيادة البروقراطية والنهج الاوامري المنافي للروح الديمقراطية في الحزب طيلة عقود طويلة من الزمن، انني هنا احتكم الى الفقرة التي وردت في وثيقة آذار حول دور القيادة في ذلك وأقول ايضاً انها المرة الاولى والاكثر جرأة ووضوحاً استطاعت فيها قيادة الحزب ان تنتقد نفسها ودورها المساهم في تثبيت هذه الظاهرة الخطرة والسلبية، لذا فانني اطالب اعتماد التحليل التالي الذي ورد في وثيقة آذار، وادعو الى ادراجه كفقرة اساسية في الوثيقة البرنامجية الجديدة: «لقد عانى حزبنا، بسبب من ظروف نشأته واجواء الحركة الشيوعية العالمية وجملة العوامل التي اتينا على ذكرها سابقاً، من ضعف شديد في تطبيق الديمقراطية، (كاتجاه عام،

وكمضـامين اساسية) في حياة الحزب. وتجلى ذلك في طرق صياغة سياسات الحزب وتوجهاته البـرنامجية، أو تطبيقاتها، أو في اسس بناء تشكيلاته التنظيمية وصلاحياتها، وفي اساليب تربية الكادر ومعايير اصطفائه واصطفافات الهيئات القيادية، والمفاهيم المرتبطة بالعمل القيادي عموماً، وخـضـعـت ترتيبـات الـوضـع القيادي في احيان كثيرة لاسس ومفـاهيم نخبـوية بعيدة عن الديمقراطية. . . ص ٢٦ /الثقافة الجديدة/ العدد ٢٢٠». ان مواجهة القيادة لنفسها بمثل هذا الوضوح، والعلنية، هو موقف شجاع، وليس جَلْداً ذاتياً كما قد يتوهم البعض.

وفي المجال الفكري ايضاً، اقترح تبني الفقرة التي وردت في وثيقة آذار وعنوانها: «موقفنا من العقيدة الدينية، والـدين السياسي ص ٣٧ /المصدر السابق» وايرادها بشكل كامل في مشروع الوثيقة البرنامجية والعمل على تطويرها لاحقاً من خلال المؤتمر وبعده. لان من شأن هذا الموقف المتبصر بطبيعة واقعنا الشرقي ذي الاصول الدينية العريقة جذب فئات كبيرة من شعبنا باتجاه حركتنا الثورية وتبني شعاراتها المنسجمة والمعبرة عن تطلعات الجماهير الشعبية الكادحة.

واقترح ايضاً ضرورة دراسة تاريخ الحزب، وان يتبنى المؤتمر مسألة تشكيل لجنة خاصة للقيام بهذه المهمة مع ضرورة التأكيد على ان تلعب الكوادر الشابة دوراً اساسياً وفاعلاً في مثل هذه اللجنة.

في ص ١١ من الوثيقة البرنامجية /الثقافة الجديدة/ العدد ٢٣٩/ اقترح اضافة الفقرة التالية بالاضـافـة الى الفقـرة المتحـدثة عن توطيد الامن والسلم العالمي: «ابداء التضامن الفعال مع الشعوب المضطهَدة التي تناضل ضد الغلوائية العسكرية الامريكية التي انفلتت من عقالها بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وابداء كل اشكال المقاومة الممكنة ضد المحاولات الامريكية الرامية الى الهيمنة الكلية على العالم واقامة نظام القطب الوحيد.

في ص ٩ ـ ١٠ من الـوثيقة البرنامجية، اؤيد كافة الفقرات المهمة حول مؤسسة الجيش ودورهـا الـوطني ومهمـاتها ما عدا الفقرة التي تقول: «وتصفية اسلحة الدمار الشامل الكيمياوية والبيولوجية، والامتناع عن انتاج الاسلحة النووية. . . الخ ص ١٠ /المصدر السابق». ولكي لا يحصل التباس في الامر، انا مع تصفية اسلحة الابادة الشاملة التي يمتلكها العراق، ولكن يجب ان يُربط امر تصفيتها بالتصفية الشاملة لهذه الاسلحة لكل دول المنطقة على حدٍ سواء، وبشكل متكافيء ومتزامن وقادر على تحقيق مقولة: «الامن المتكافيء والشامل للجميع»، وفي هذا المجال يجب ان لا تتناسى الخطورة الكبيرة التي تشكلها الترسانة النووية والكيمياوية الاسرائيلية ضد امتنا العربية، وضد عموم شعوب المنطقة، وحتى بعد زوال الدكتاتورية، ينبغي ان يمتلك شعبنا قوة رادعة ضد اسرائيل للدفاع المشروع عن النفس.

التجديد في المستوى التنظيمي / مشروع النظام الداخلي

يرتدي التجديد في البنية التنظيمية اهمية كبيرة لا تقل عن التجديد في المستوى الايديولوجي

وعن المستويات الاخرى في البنية الشاملة للحزب، وفي هذا المجال فان النقطة الاولى التي اود اثارتها هو تأييدي الكامل لما جاء في مشروع النظام الداخلي الجديد حول تقليص الحلقات الوسيطة في التسلسل الهرمي الحزبي، ان هذه الخطوة والعمل على الغاء المراتبية الحزبية ستؤدي الى التخفيف من حدة النزعات البيروقراطية في الحزب، وكذلك من الروح الانتهازية لدى البعض من هؤلاء في الحصول على امتيازات من خلال مواقعهم التنظيمية. إلا انه لماذا نسي الرفاق اللذين وعضوا مشروع النظام الداخلي امكانية بروز وانتعاش البيروقراطية في اعلى هيئة قيادية للحزب وهي «اللجنة المركزية» وهذه الهيئة هي الاكثر تأثيراً اذا ما قورنت بالهيئات الوسيطة؟ ولماذا لم يتم تحديد عدد الدورات والفترة الزمنية التي يحق فيها للعضو القيادي البقاء في موقعه التنظيمي؟ ولماذا تم تثبيت ذلك في وثيقة آذار وجرى تركها كلياً في الوثيقة البرنامجية الجديدة؟ وهل كان التجديد التنظيمي المطروح في وثيقة آذار هو مجرد صدى وانعكاس للبيروسترويكا في الاتحاد السوفييتي؟ وحينا زالت البيروسترويكا تناسينا الموضوع؟ واذا صح ذلك فانه يعني بان محاربتنا للبيروقراطية وتجديد الحزب تنظيمياً لم يكن نابعاً من اندفاع ذاتي حقيقي، ومعنى ذلك وجود بعض الرفاق في القيادة مازالوا يرغبون التشبث في مواقعهم التنظيمية حتى ولو كان ذلك على حساب الحزب وتطوره!!. لا اريد ان اتهم احداً، لانني لا امتلك الاجابة الشافية، والسؤال موجه لقيادة الحزب، وارجو ان يصلني وبشكل ديمقراطي وعلى ابواب صفحة الثقافة الجديدة ان امكن، لان الموضوع يهم مئات الرفاق غيري.

انني اطالب ـ بالحاح شديد ـ ان تتضمن الوثيقة البرنامجية التي سيقرها المؤتمر الخامس للحزب هاتين الفقرتين اللتين سبق وان وردتا في وثيقة آذار، وهما:

«ـ الغاء المرتبية الحزبية فعلياً، وابراز الهوية النضالية للمهام الحزبية. ـ تحديد اربع دورات لعضوية متواصلة في اللجنة المركزية، ودورتين لمركز الامين العام، وثلاث دورات لعضوية المكتب السياسي، على ان لا تتجاوز من حيث الفترة الزمنية خمسة عشر عاماً متواصلة، وفي حال الترشيح لدورة اضافية يتوجب حصول المرشح على ثلثي الاصوات... ص ٢٨ / الثقافة الجديدة/ العدد ٢٢٠».

وان التوصل الى اقرار ذلك هو المحك الحقيقي لامكانية انهاء البيروقراطية داخل الحزب، والقضاء على سياسة الامتيازات «والنخبوية» التي طالما تتمتع بها بعض القياديين في الحزب طيلة الفترات السابقة، والتي كانت احد الاسباب الاساسية في تراجع الحزب وعدم تنفيذ سياسته الثورية في العديد من المراحل التاريخية.

ـ في ص ١٤ من مشروع النظام الداخلي تقول فقرة: «ان الحزب الشيوعي العراقي حزب وطني مستقل، يضع المصالح العليا للشعب والوطن فوق أية مصلحة اخرى... / الثقافة الجديدة/ العدد ٢٣٩». اتفق مع هذه الفقرة عموماً وهي تؤكد على استقلالية الحزب التي تعرضت في مرات عديدة للانتقاص بسبب تبعيتنا للمركز في «موسكو»، إلا ان هذه الاستقلالية يجب ان لا تتعارض مع مصالح الشعوب المضطهَدة، بل تتكامل معها، ومع القيم الانسانية النضالية العامة،

ومع ذلك اقترح ان تكون الفقرة، كالتالي: «ان الحزب الشيوعي العراقي حزب وطني وقومي اشتراكي مستقل، يضع المصالح العليا للشعب والوطن والامة فوق أية مصلحة اخرى»، واعتقد ان القول هنا لا يُحدث أي تناقض. بين الامين العربية والكردية فللمناضل الشيوعي العربي يحق له الافتخار بأمته وتراثها، وكذلك المناضل الشيوعي الكردي، شرط ان لا يقود ذلك الى بعض النعرات الشوفينية أو القومية المتعصبة الضيقة الافق. وطالما لدى الحزب فرع في كردستان، فللحزب الشيوعي في كردستان العراق الحق برسم برامج خاصة تربوية وتثقيفية حول وضع امته الكردية، وذلك ضمن اطار السياسة العامة للحزب، وبروح التآخي بين القوميتين الرئيسيتين: العربية والكردية وكذلك التآخي مع القوميات والاقليات الاخرى.

ـ في ص ١٨ من مشروع النظام الداخلي ـ حول فقرة العضوية في الحزب ـ اقترح ابدال جملة «والى قضية الطبقة العاملة» بجملة اخرى اكثر شمولية هي: «والى قضية الطبقات الكادحة من شعبنا» الثقافة الجديدة ـ العدد السابق».

ـ في ص ٢٠ حول فقرة الترشيح والعضوية في الحزب، اقترح ان تكون فترة الترشيح للعمال وغيرهم ٩ أشهر بدلاً من ان تكون ٦ أشهر للعمال و٩ أشهر لغيرهم.

ـ في ص ٢٤ حول فقرة السكرتير العام للجنة المركزية، اقترح حذف جملة «وهو الشخصية التنفيذية الاولى للجنة المركزية» لانها توحي بشيء من البيروقراطية والنرجسية الغير مرغوبة، ولانها تميز بين المناضلين في القيادة، ليس هناك اول وثان في النضال. بل هناك اختلاف فقط في درجة تحمل المسؤولية وفي امكانية ومواهب كل رفيق عن رفيقه الآخر.

ـ اقترح ايضاً استبدال جملة «السكرتير العام للجنة المركزية للحزب» بـ «منسق اعمال اللجنة المركزية».

ـ في ص ٢٤ /حول فقرة المكتب السياسي، اقترح استبدال جملة «المكتب السياسي للجنة المركزية» بـ «جملة اخرى هي: «مكتب اللجنة المركزية».

حول تغيير اسم الحزب

اعترف انه من الصعوبة بمكان تحديد موقف نهائي من هذا الموضوع الآن، وذلك بسبب توفر موجبات لتغيير اسم الحزب، ولعدم تغييره ايضاً. وللعملية برُمّتها جانبان: سلبي وايجابي.

من ناحية انا اتفق مع المتشبثين ببقاء اسم الحزب حول عراقته وارتباط دوره النضالي بتاريخ شعبنا وطبقاته الكادحة. وبتجرد كامل، وبمنتهى الموضوعية، اقول ان الحزب الشيوعي العراقي ليس حزباً عريقاً فقط، بل لقد مثل في بعض فتراته، وخاصة من ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨ مصالح وتطلعات الشعب العراقي بأسره، ولست مبالغاً ـ واعتقد ان أي باحث ومؤرخ موضوعي وجاد سيتفق معي ـ اذا قلت بان هذا الحزب، وفي الفترة المذكورة مثل روح وضمير الشعب العراقي، ونزوعه من اجل الاستقلال والسيادة والحرية والتقدم الاجتماعي، لن اطيل يكفي ان اذكر هنا دور الحزب في قيادة الانتفاضات الوطنية: وثبة ١٩٤٨، انتفاضة ١٩٥٢، ومساهمته الاساسية في التهيئة لتفجير ثورة ١٤

تموز ١٩٥٨ ـ طبعاً لا ننسى دور جبهة الانقاذ الوطني ١٩٥٧ ـ وفي توفير السياج الجماهيري الداعم لهذه الثورة الوطنية العملاقة. وكذلك دور الحزب في قيادة النضالات السياسية والمطلبية للعمال والفلاحين: نضالات عمال الميناء والسكك وانتفاضة آل زيرج الفلاحية كأمثلة على ذلك.

ولكن الموضوعية تقتضي ان نقول ايضاً: ان الحزب بشكل عام ـ وقيادته بشكل خاص ـ قد ارتكب خطأين تاريخيين كبيرين: الاول عدم استلامه للسلطة بعد انتصار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، أو على اقل تقدير مساهمته الحاسمة في السلطة وفي وجهة تطورها آنذاك. والثاني تحالفه الغير متكافيء مع قادة انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، ولقد ادى ذلك الى حدوث حالة احباط لدى فئات ليست قليلة من ابناء شعبنا من امكانية احداث تحويل ثوري للمجتمع العراقي بقيادة الحزب الشيوعي العراقي.

من ناحية اخرى، فان تغيير اسم الحزب لا يتعلق بماضيه العريق، بل يتعلق برؤية اخرى: وهي طبيعة انعكاس انهيار التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ودول اوربا الشرقية على بنية تفكير ووعي ونفسية المواطن العراقي. وفي هذا المجال فانني ادعو الحزب للقيام باستفتاءات عامة داخل التنظيم وخارجه بين صفوف اصدقائه والمتعاطفين معه، وكذلك بين صفوف الجماهير عامة حول هذا الموضوع، وعلى ضوء ذلك يتم تغيير الاسم أو عدم تغييره، وحتى لو تم تغييره فان ذلك يعني ان الاسم الجديد لن ينقطع عن تاريخ الاسم القديم، بل هو امتداد تاريخي له، ووارث لنضالاته المجيدة السابقة.

وهنا لا بد من ان نواجه حقيقة هامة وهي ان رفاقنا الشيوعيين في البلدان التي انهارت فيها الاشتراكية وبسبب بيروقراطيتهم وانعزالهم عن الجماهير الكادحة كانوا قد الحقوا ضرراً كبيراً في قدسية وهيبة هذه اللفظة «الشيوعية» وفي محتواها ايضاً، اقول ذلك في ذات الوقت الذي يجب ان نعلن فيه عن دعمنا، الكامل لنضال الشيوعيين والاشتراكيين الحقيقيين الآن في هذه البلدان ضد قوى الثورة المضادة والمخربة والمتحالفة مع الامبريالية العالمية.

واذا تغير اسم الحزب، فان الاسم الجديد ينبغي ان يعبر عن الخيار الديمقراطي الاشتراكي شكلاً ومحتوى.

ختاماً: اود القول بانني لا ادعي بان آرائي وافكاري المكتوبة في هذا المقال كلية الصحة، بل ربما تحوي العديد من الافكار الخاطئة، واعلن عن استعدادي لتصحيحها اذا جاء هناك من يقنعني بذلك عن طريق الحوار الصحفي، أو الحوار الشخصي المباشر، إلا انني في هذه اللحظة مقتنع فيما ذهبت اليه، وأرى مستقبل أي حزب ثوري في منطقتنا هو في مدى قدرته على التعبير عن السمات الجوهرية التي تشكل واقع هذه المنطقة! ارثاً، وتاريخاً، وحضارة، وبنية نفسية، وفكراً، وراهناً، أي الانطلاق من ذاتنا الى العالم، وليس العكس.

آذار / ١٩٩٢

(١) صحيفة تشرين السورية /١٦/١١/١٩٩١، حوار مع الرفيق يوسف فيصل.

(٢) لينين /المؤلفات/ المجلد ٣٢/ص ٣٥١.

وجهة نظر خاصة حول مشروع البرنامج

فياض الحمادة

الحزب الشيوعي السوري

مقدمة :

في اطار دعوة الحزب الشيوعي العراقي الرفاق والاصدقاء للمساهمة في النقاش حول الوثيقة البرنامجية للحزب، والمنشورة في «طريق الشعب» (عدد رقم ٧ ـ سنة ٥٧)، وما نشرته مجلة «الثقافة الجديدة» من وجهات نظر متعددة، اود المساهمة في النقاش على ارضية التزامي الشيوعي ومن خلال وجهة نظر شخصية.

ان الوثيقة البرنامجية المطروحة للنقاش على ابواب المؤتمر الخامس للحزب تتمحور حول نقطتين اساسيتين، **الاولى** تتمثل بمهمة ملحة وهي اسقاط «الدكتاتورية» واقامة البديل الديمقراطي، ولتحقيق هذه المهمة تتناول الوثيقة مهمات «حكومة ديمقراطية ائتلافية انتقالية» يدعو الحزب الشيوعي العراقي الى تشكيلها، كضرورة لتحقيق الهدف الاساسي المتمثل بازاحة الدكتاتورية.

مقدمة ثانية :

قبل الحديث عن الوثيقة البرنامجية، اود ابداء بعض الملاحظات ـ المنهجية وهي :

ملاحظة اولى: ان برنامج أي حزب تتحكم به، شكلاً ـ منهجاً ومحتوى، جملة ظروف وعوامل اهمها:

ـ تجربة الحزب السابقة، وخلال مرحلة معينة.

- وضع الحزب الحالي في البلد الذي يعمل ويناضل داخله.

- الوضع الاقليمي - والقومي - والدولي الراهن - وموقع البلد المعني خلاله، واشكال علاقاته.

ملاحظة ثانية: ان الحزب الشيوعي العراقي بوصفه (حزباً شيوعياً) يتحمل «جزءاً» من المسؤولية الادبية - التاريخية، عن الوضع الذي آلت اليه الحركة الشيوعية العالمية، بدءاً من انهيار الاتحاد السوفييتي وانعكاسات هذا الانهيار، وانتهاءً بالحملة المسعورة على الفكر الاشتراكي والشيوعي خصوصاً.

وبهذا الاطار لا بد من تقديم كشف حساب امام الشعب يتناول:

- التجربة العالمية: اخفاقاتها ونجاحاتها.

- التجربة العربية - والمحلية، واقعها وآفاقها.

- الموقف من الوضع الجديد واحتمالات تطوره اللاحق.

ملاحظة ثالثة: ان الحزب الشيوعي العراقي، بوصفه فصيلاً من حركة التحرر الوطني العربية والعالمية عليه ان يساهم بوجهة نظره، ودوره بعدد من القضايا المطروحة والملحة مثل:

- المسألة القومية، والوحدة العربية في ضوء التغيرات الجارية في العالم والوطن العربي، خصوصاً بعد حرب الخليج الثانية، والمستمرة!

- الموقف من قضايا القوميات الاخرى - على الساحة العربية خصوصاً.

- الموقف من حركات التحرر الوطني الاخرى.

ملاحظة رابعة: شكلت حرب الخليج الثانية، حالة انعطافية جديدة على الساحة العراقية والعربية، ترابطت الى حد كبير بالوضع الدولي والاقليمي المحيط.

ان الحزب الشيوعي العراقي بوصفه حزباً، عراقياً، معني قبل غيره بالوقوف امام هذه الحالة الانعطافية، وتحديد موقف واضح من المسائل التالية:

- مسؤولية «النظام»!

- مسؤولية «الوضع العربي» والاقليمي المحيط.

- مسؤولية الامبريالية العالمية وخاصة الامريكية.

- الموقف من ما يسمى «بالشرعية الدولية»، والنظام العالمي «الجديد».

ملاحظة خامسة: على الصعيد الفكري (النظري) يواجه الفكر الاشتراكي عموماً، صعوبات جدية، تبلورت وتوضحت بعد انهيار التجربة الأم في الاتحاد السوفييتي سابقاً، وهذا يتطلب توضيحات من الحزب الشيوعي العراقي حول عدد من المسائل مثل:

- الخيار الاشتراكي وآفاق تطبيقه لاحقاً على الصعيد الوطني.

ـ شكل ومحتوى، الخطاب السياسي للحزب للمرحلة الحالية والقادمة على ارضية التبدلات العاصفة والمستمرة.

ـ الموقف من الاصولية الدينية، التي تطرح نفسها بديلاً للخيار الوطني التقدمي ـ القومي الديمقراطي.

في ضوء الملاحظات، المذكورة آنفاً، ارى ان مشروع البرنامج للحزب الشيوعي العراقي (خجول) الى حد ما تجاه العديد من القضايا الملحة، والتي مسّتها، الى حد كبير، التغيرات الجارية في العالم.

أولاً : الحزب

ان حزب الشيوعيين العراقيين كان ومايزال مدرسة وطنية و(ماركسية) على الصعيد العراقي والعربي عموماً، وكانت بطولاتهم ونضالاتهم ملهماً لنضالات رفاقهم الشيوعيين في البلدان العربية الاخرى، ترى اين يقف الحزب الشيوعي العراقي الآن؟.. ولماذا حصل ما حصل؟

ثانياً: السلطة، والبديل الديمقراطي

ـ منذ فترة طويلة نسبياً، وادبيات معظم «قوى المعارضة» العربية، ومنها الحزب الشيوعي العراقي، تعلق كل مشاكل شعوبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية على شمّاعة السلطة، مع تغييب الاسس الداخلية التي تحكم استمراريتها كسلطة من جهة، ومسؤولية «الشعب» ممثلاً بقواه السياسية (المعارضة) من جهة اخرى، وبهذا الاطار يكون من المفيد جداً ان يتناول الحزب الشيوعي العراقي هذه الاشكالية، على خصوصية العراق واستمرار الدكتاتورية (الخاصة) في الحكم بالعراق.

ـ وفي اطار الحديث عن السلطة الحاكمة في العراق يحدد مشروع الحزب الشيوعي العراقي الهدف الاساسي (ازاحة الدكتاتورية) عبر تشكيل (حكومة ديمقراطية ائتلافية انتقالية) ويضع امام هذه الحكومة جملة اهداف تتمثل بتصفية النظام الدكتاتوري وآثاره السياسية والاجتماعية، وحروبه الداخلية والخارجية وما رافقها من تشوهات اجتماعية وثقافية واخلاقية... ومأساة الشعب الكردي داخل العراق.. بالاضافة لقضايا النساء والشبيبة والاوضاع الاقتصادية المختلفة... الخ. ويشير مشروع البرنامج ان (الحكومة الانتقالية تضم القوى والتيارات الاساسية بالبلاد).

أرى من المفيد للعراق ولحزبه الشيوعي ان يحدد اتجاهات هذه القوى واصطفافاتها وآفاقها، وموقعها من العملية الثورية (الديمقراطية) في العراق، اذ لا يجوز ان يكون

الحديث عن ذلك عموميات ومفردات «مجردة» مثلاً: ـ من هي القوى التي يستند اليها النظام: التيار القومي ـ الماركسي ـ الديني . . . الخ .

ثالثاً: الوضع العربي.

اذا كانت احدى ابرز سمات الوضع الدولي «الجديد» هي بروز التكتلات ـ الدولية ـ الاقليمية ـ القومية، فان من واجب مشروع البرنامج ان يتعرض لهذا الجانب بشيء من الوضوح، ومن خلال كَوْن العراق جزءاً لا يتجزأ من الامة العربية، وتاريخه جزء من تاريخها، بل ومساهم اساسي وفعال بهذا التاريخ بمدّه وجزره، ولعقود طويلة، مع الاخذ بعين الاعتبار مصالح الشعب الكردي داخل العراق، وارتباطه بحركة التحرر الوطني الكردية، وهذا يتطلب:

ـ تأكيد مساهمة القوى الوطنية والديمقراطية العراقية في النضال القومي التحرري العربي.

ـ تأكيد وحدة نضال فصائل حركة التحرر الوطني العربية على اساس الحوار الشامل والديمقراطي والنضال المشترك من اجل الوحدة العربية والديمقراطية.

ـ موقفاً موضوعياً وعصرياً من قضايا القوميات الاخرى على امتداد الساحة العربية على ارضية المصلحة المشتركة والمتبادلة، وبما ينسجم مع تطلعات القوى الوطنية والديمقراطية العربية.

رابعاً: الوضع الدولي

ان السمة الحالية للوضع الدولي الجديد، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، هي بروز قطب عالمي وحيد (ولو مؤقتاً) ألا وهو الولايات المتحدة الامريكية، ولعبها دور الشرطي الدولي الذي يعاقب هذا النظام أو البلد، أو ذاك، مع تحول مجلس الامن وهيئة الامم المتحدة من مؤسسات تمثل الشرعية الدولية (الى حد ما) الى هيئات تابعة، وتأتمر بما تمليه عليها الادارة الامريكية واستخباراتها. واذا كان الحزب الشيوعي العراقي قد حدد بمؤتمره الرابع ووثائقه اللاحقة مسؤولية الامبريالية العالمية وخاصة الامريكية في تأجيج حرب الخليج الاولى ضد الثورة الايرانية، فليس «عيباً» ان يحدد الحزب الشيوعي العراقي مسؤولية الامبريالية (الامريكية) في «توليف» حرب الخليج الثانية، والتي تمثلت بنتائج احتلال العراق للكويت، خاصة بعد ان توضح للعيان رغبة الولايات المتحدة في احتلال المنطقة، وضرب مقدرات الشعب العراقي كخطوة اولى لاخضاع كامل المنطقة تحت الهيمنة الامريكية، وما تحرير الكويت إلا ذريعة لذلك وحق يراد به باطل. وبالتالي

فعلى مشروع الوثيقة ان «يوضح» السمة العدوانية للامبريالية العالمية، وخصوصاً الامريكية، وهذا الموقف الحزبي ضروري من الناحية الادبية ـ والاخلاقية امام الشعب ـ المحبط.

ولا ابالغ اذا قلت ان مصداقية أية قوة وطنية على الساحة العربية تتمثل بما تفعله من اجل توطيد وتطوير الوحدة الوطنية من اجل مواجهة التكالب الصهيوني الامبريالي على المنطقة العربية.

وفي الختام اتمنى ان تتكحل عيون الشعب العراقي بسقوط الحكم الدكتاتوري الحاكم على ايدي جميع مناضلي العراق وبجميع انتماءاتهم القومية والدينية. وتحية للشيوعيين العراقيين، والى مزيد من التقدم والازدهار من اجل عراق حر، وشعب سعيد، والى نضال دؤوب على هدى الاوائل فهد وسلام عادل ورفاقهم.

في اعدادنا القادمة

بعض ملامح تطور الحركة التحررية في كردستان العراق .... نوزاد عبدالله

منهجية التصنيف العقائدية .... د. ميثم الجنابي

الميتافيزيقيا الانسانية بين تشوانغ تسه والفكر الاسلامي .... هادي العلوي

قوانين المياه الدولية ومشكلة الفرات .... د. حسن الجنابي

سيادة الدولة وحقوق الانسان .... د. حكمت حكيم

اخاطبكم واحداً من اغلبية صامتة .... عامر

درس ابن رشد .... الزواوي بغورة

استعمار المانيا الشرقية .... ترجمة: محمد صالح ياسين

من ملامح الخريطة التعليمية .... د. النداف صالح

التبويب والشعار في مشروع البرنامج

جامعي مغترب

مقدمة

في سبيل ازاحة الدكتاتورية واقامة البديل الديمقراطي، كمهمة مركزية، قدم الحزوب الشيوعي العراقي مشروع الوثيقة البرنامجية للمرحلة القادمة. وتبين الوثيقة مهمات الحكومة القادمة بشكل مفصل ضمن ست عشرة مهمة غير معنونة تشمل مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتعكس نظرة الحزب، التي وضحها في بيانات لجنته المركزية في آذار ١٩٨٩، آذار ١٩٩٠ وايلول ١٩٩١. كما تتضمن الوثيقة مهمات جديدة كان لاضافتها مغزى خاص، منها ما يخص الجيش واخرى حول حماية البيئة. وطرح نظرة جديدة نحو اقامة جمهورية اتحادية (فيدرالية) ديمقراطية في العراق. وجرى التركيز في مختلف هذه المهمات وبشكل ملموس على الديمقراطية، وعلى جوانب ذات علاقة بالعمل الجماهيري والديمقراطي، واهمها ما يخص العقائد الدينية والمسائل القومية.

يعتبر مشروع الوثيقة البرنامجية نقلة نوعية تتماشى مع طبيعة المجتمع العراقي وتركيبه القومي والتطورات الجارية فيه مما يجعل من المشروع اساساً لبرنامج قابل للتحقيق والتبني من مختلف الاحزاب الوطنية والقومية والدينية وقادر على استقطاب الشعب وكسب التأييد العربي والعالمي.

مساهمتي هنا لا تتضمن نقاشاً لمهمات الحكومة المقبلة رغم انها اساس مشروع الوثيقة البرنامجية، بل اسعى لتوضيح نقطتين انجذب اليهما انتباهي عند قراءتي لمشروع الوثيقة لاول مرة. احدى هاتين النقطتين ذات علاقة بتبويب وتسلسل المشروع والاخرى ذات علاقة بشعارات الحزب الرئيسية.

التبويب والتسلسل

المتعارف عليه ان اطروحات الحزب وادبياته تتميز بالبساطة والجمالية الادبية والتناسق والتسلسل في تبويب اجزائه وبشكل جعلت من نمط واسلوب اطروحاته مطمحاً لاعدائه. لذا فان من المتوقع ان يثار تساؤل عن افتقار مهمات الحكومة المقبلة الست عشرة لعناوين توضح وتربط الفقرات الواردة ضمن كل مهمة. ان وضع هذه العناوين ليس صفة جمالية بقدر ما يراد بها التنسيق والاحكام لابواب وتسلسل البرنامج. فرغم وجود خطوط عامة تجمع فقرات كل مهمة ومما يسهل تبويبها إلا اننا نجد ان المهمة «اولاً» والمهمة «ثانياً» تختلفان بالتركيب وبتشكيل الفقرات عن المهمات الاخرى. ففي الوقت الذي خصصت المهمة «ثانياً» للآثار التي خلفتها الحروب نجد ان هناك في المهمة «خامساً» واخرى في المهمة «ثالث عشر» ذات علاقة جملة عن اعادة الفلاحين تكررت مرتين احداهما الى اراضيهم (الفقرة الثالثة من المهمة «رابعاً») والاخرى الى قراهم (الفقرة الرابعة من المهمة «عاشراً»). المهمة «خامس عشر» والمهمة «سادس عشر» متداخلتان. وبعض الفقرات في المهمات جاءت من العمومية بحيث لا تصلح ان تكون فقرة لبرنامج بقدر ما هي جملة توضع في مقدمته وعلى سبيل المثال ما ورد في الفقرة الرابعة من المهمة «خامساً» والتي تنص على «ايلاء اهتمام خاص بالشبيبة العمالية».

عموماً قد لا أكون صائباً في شرح هذه التداخلات وقد يجري اعطاء تفسير لها ولكن... ليس ذلك ما تعودناه في تناسق عال المستوى في برامج واطروحات الحزب.

الشعار والمنهج

يطمح الحزب، وحسب ما بينته جريدة الحزب المركزية (طريق الشعب) الى ان يحدث المؤتمر الخامس للحزب نقلة نوعية في حياة الحزب والبلاد نحو تحقيق شعار «وطن حر وشعب سعيد». ومع ما يتضمنه هذا الشعار السامي من معاني ويوضح ما يستهدفه الحزب ستراتيجياً، إلا ان هذا الشعار مرن يعكس في جوهره معانٍ عدة. فمنظور الطبقة البرجوازية عن سعادة الشعب وحرية الوطن يختلف عن منظور الطبقات الكادحة. ومنذ تأسيس الحزب، رافق شعار «يا عمال العالم اتحدوا» شعار «وطن حر وشعب سعيد» ليتصدرا برامج الحزب وجريدته المركزية واطروحاته وبياناته. وبشكل لا سابقة له اسقط شعار «يا عمال العالم اتحدوا» من صدارة مشروع الوثيقة البرنامجية. كما نلاحظ ولاول مرة تجنباً لذكر كلمة «الاممية» رغم ورودها في مشروع النظام الداخلي للحزب. ومع ان مشروع الوثيقة البرنامجية واضح باسترشاده بالمنهج الماركسي كما يؤكد في نهاية المشروع على خياره الاشتراكي لبناء المجتمع في المستقبل، وهما بلا شك يعكسان المنهج الذي

يتبعه الحزب من اجل تحقيق شعاره «وطن حر وشعب سعيد»، ولكن هذا الشعار بحاجة ماسة الى ان يرافقه شعار يبين المنهج المتبع.

المسألة ليست في الاهمية المرحلية لشعار «يا عمال العالم اتحدوا»، بل في مضمونه. الشيوعيون العراقيون حملوا راية الاممية. وهذه تم ذكرها في مشروع النظام الداخلي ولم يجر ذكرها صراحة في مشروع الوثيقة البرنامجية. وهذه يكون لها مدلول اعمق في ظل غياب شعار يوضح اممية الحزب ونهجه. ارجو ان لا يؤخذ من كلامي ان هناك جموداً في الاصرار على الشعار بقدر ما هو لفتح نقاش حول شعاز يرافق الشعار الاساسي للحزب ويوضح نهجه وامميته.

لقد اشبعت نقاشاً مختلف المواضيع في مختلف ادبيات الحزب ولم اجد ما يخص شعار الاممية من نقاش سوى اقتراح (لاحظ طريق الشعب تشرين الثاني ١٩٩١) من رفيق يطلب حتى رفع الشعار في صدارة جريدة الحزب المركزية!

انا فخور بان الحزب رفع راية الاممية، وأكون اكثر فخراً وانا ارى الحزب لم يتنكر لهذه الراية في وقت كان بأمس الحاجة لها من اولئك الذين ادعوا انهم حماتها ولم يطبقوا ما ادعوا انهم آمنوا به. وانا فخور، وانا اكرر هنا (وقد لا تكون الكلمات بالنص الحرفي) قول الرفيق فهد «انا وطني قبل ان اكون اممياً، وعندما اصبحت اممياً صرت اكثر وطنية».

ولتكن هذه الكلمات ذات المعنى العميق اساساً ومنطلقاً لشعار يوضح اممية الحزب ونهجه ويرافق شعاره السامي «وطن حر وشعب سعيد».

خاتمة

انها بادرة لا سابقة عندنا لها ان يقدم حزب مشروع برنامجه للمناقشة وبهذا الشكل الواسع وعلى كافة المستويات وليشمل اضافة لاعضائه، انصاره ومؤيديه، واعضاء وانصار الاحزاب الاخرى والمستقلين . . . الخ لمناقشته آخذاً كل آرائهم بنفس الجدية والاعتبار. اننا نمارس فعلاً نمطاً فعالاً من الديمقراطية وبادرة نتمنى ان تتبناها كل قوى الشعب واحزابه الوطنية والقومية والدينية. فمثل هذه الممارسة لها فعالية في تثبيت اسس الديمقراطية اكثر قوة حتى من ضمانات حرية الانتخابات البرلمانية. والسبب بسيط: لان افراد الشعب سيتقدمون للانتخابات وهم على علم واضح جداً في ما يقصده كل حزب من برنامجه وبحيث لا يجد أي حزب مجالاً تكتيكياً لان يحيد عما وضعه في برنامجه حتى وهو بحالة سيطرة على نسبة عالية من مقاعد البرلمان.

ومعاً في سبيل ازاحة الدكتاتورية واقامة البديل الديمقراطي.

استراليا



لمحة على ضوء مناقشة الوثيقتين

ابو ذكرى

قبل ان ابدأ بالمناقشة صادف وان شهدت حادثاً مؤلماً ولكنه بنفس الوقت له معنى كبير يرتبط كما اعتقد بما اريد ان اشير اليه هنا، يتلخص هذا الحادث في «صورة لينين». فقد شهدت هذه الصورة باطارها الجيد والزجاج لم يتكسر مرمية فوق القمامة للحي الذي اسكنه، ولكن والحق يقال بصورة محتشمة. . ولم يكن لي الوقت لاخذها والرجوع الى الدار، وعند العودة رأيت الصورة نقلت الى مكان افضل ولكن قرب القمامة، وعليه قررت مراقبة الحادث، الذي جعل من هذه الصورة اشبه بقصة، اذ اخذت تنتقل من مكان الى آخر ومن وضع الى آخر، حتى رأيتها في الاخير قد اقتلعت من الاطار وابعدت عن القمامة شيئاً ما وبعدها ظلت في مكانها ولكن وجه الصورة كان نحو الحائط وبالتالي اختفت الصورة نهائياً.

هذه الحالة تعكس الوضع النفسي كما يبدو لي للشيوعيين الساكنين في هذا الحي واصدقائهم، فهي تعكس الخوف والتردد وعدم اتخاذ القرار بخصوص الموقف من هذا الرجل العظيم حقاً. هذه الحالة لا تختلف عن المناقشات التي تدور الآن حول الوثيقتين «البرنامج والنظام الداخلي»، وبدأنا نفلسف الامور كعادتنا وبرزت النظرية الماركسية، والمنهج الماركسي والتراث اللينيني، واختفت كلمة الشيوعية والاشتراكية العلمية، والماركسية اللينينية واخذنا ننظر ونربط اخطاءنا وعدم اتضاح الرؤيا امامنا لمختلف

الاسباب بعدم القناعة بمبادئنا، ولهذا جاءت الوثيقتان متعارضتين الى حد ما، وبنفس الوقت يتضح للقارىء ان وثيقة البرنامج بحد ذاتها تعكس هذا التناقض والاختلاف في الآراء.

لنتصفح تاريخنا الحزبي، فنحن كنا جميعاً مع تقديس عبادة الفرد منذ الشرارة واصدار الاعداد الاولى لجريدتنا القاعدة الى انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ثم وقفنا جميعاً ضد رسالتي موريس توريس وتوغلياتي بالرغم من ما احتوتا من ملاحظات جدية، واخيراً صفقنا بعنف للبريسترويكا، وطبلنا الى بريسترويكا عربية، ولما حصل الانقلاب الكاريكاتيري في موسكو اخذ بعضنا يتشمت ان صح التعبير

وايدهم آخرون وللاسف. وقف الكثيرون بقناعة أو غير قناعة مع موقف يلتسن، ونفس الشيء من الموقف حول احداث الصين، ورفعنا شعار حقوق الانسان ولا ادري ان كنا ندرك عند فوز هؤلاء الذين قمعت حركتهم هل حقاً سيدافعون عن حقوق الانسان؟! نحن هاجمنا المانيا الديمقراطية بعنف وعلى صفحات الثقافة الجديدة وهاجمنا الصين وهاجمنا وهاجمنا، ولكن لم ار مقالة للدفاع عن هونيكر والمعاملة التي يتلقاها، وقد تسترت عليه سفارة شيلي، يا لسخريات القدر!!

بهذه الحالة من القلق النفسي والارتباك نناقش الوثيقتين. . ولا نريد اطلاقاً ان نعترف بان الوضع الدولي وما جرى في الاتحاد السوفييتي وبلدان اوربا الشرقية ترك تأثيراً على واقعنا الموضوعي والذاتي، هذا بالاضافة الى اننا لحد الآن لم نستقر على حالة معينة من الوضع التنظيمي، فأمامي الآن سبعة وثائق للنظام الداخلي من عام ١٩٤٥ ولحد الآن، وجميعها متضاربة وفي كل مرة ندافع عن الصيغة الاخيرة متأثرين بالاوضاع المستجدة لا من حيث التطور الذاتي الملموس، بل من حيث انعكاس الواقع الموضوعي والتأثيرات الخارجية، لقد اصابنا وللاسف الشديد شئنا أم ابينا «داء الروح التجاري الخالي من المبدأ»، هذا الداء الذي يؤدي غالباً ببعض الشيوعيين (البلاشفة) الى الانحطاط والتخلي عن القضية الثورية، ان هذا الداء الخاص قد وصفه بيلنياك في روايته السنة العارية، حيث يعرض المؤلف نماذج من «البلاشفة» الروس المملوئين ارادة وتصميماً عملياً وهم «يعملون» بكثير من «الهمة» ولكنهم لا آفاق لهم، ولا يعرفون «لا ماذا ولا لماذا» وهم لهذا ينحرفون عن جادة العمل الثوري، ولم يسخر احد من داء الروح التجاري هذا مثل سخرية لينين اللاذعة «ممارسة ضيقة» و«روح تجارية خرقاء» هكذا كان ينعت هذا الداء وكان يجابهه عادة بالعمل الثوري الحي وبضرورة وجود الآفاق الثورية في اقل مهمة من اعمالنا اليومية مشيراً بذلك

الى الروح التجاري الخالي من المبدأ هو ايضاً مضاد للينينية الحقة كتكلف الابتكار «الثوري»[1].

فالصيغ السبع للنظام الداخلي اسمحوا لي القول هي نوع من الابتكار الخالي من المبدأ حيث ارى في الصيغ المطروحة هروباً من تحمل اعباء النظرية الماركسية ـ اللينينية ونعتمد فقط على المنهج الماركسي والبعض يضيف مشكوراً التراث اللينيني. ولنسر بلا نظرية ترشدنا علماً بان النظام الداخلي الذي اقره الكونفرنس الثالث لعام ١٩٦٧ جاء فيه ما نصه:

«والحزب الشيوعي العراقي يسترشد في نشاطه بالنظرية الماركسية ـ اللينينة ويدافع عن نقاوتها ضد تشويهات التيارات والعناصر التحريفية اليمينية والعقائدية المتحجرة ويعمل من اجل تطبيقها تطبيقاً خلاقاً على ظروف العراق الملموسة والحزب الشيوعي العراقي يذود عن المصالح الوطنية للشعب العراقي بأسره كما يذود عن المصالح الطبقية للعمال والفلاحين وسائر الكادحين، وهو يعتز بأمجاد شعبنا الوطنية وبتراثه الحضاري العريق وتقاليده الثورية ويستمد منها العزم والتصميم في النضال من اجل تعزيز استقلال العراق وتصفية مواقع الاستعمار السياسية والاقتصادية والفكرية في ربوعه» فهل هذه الصيغة مرفوضة ولا تقبل التأييد؟

ان من يتصفح التاريخ في الحركة الشيوعية العالمية ويعود الى عام ١٩٤٣ وما حصل بعد قرار حل «الكومنترن» من تشويهات وابرزها البراودرية حيث طالب قادة الحزب الشيوعي الامريكي وعلى رأسهم براودر بحل الحزب الشيوعي، لان الكومنترن انحل فلا داعي لوجود حزب شيوعي. انتقلت عدوى هذا المرض الى العراق في حينه وجاء على لسان الشراريين بقيادة عبدالله مسعود القريني نفس الرأي والاتجاه، وهكذا ظهرت عدة تيارات تحريفية ضد الماركسية ـ اللينينية ولم تجد من يتصدى لها إلا بعد حوال العشر سنوات. فليس غريباً اطلاقاً، ان تبرز مثل هذه الافكار دون ان اجد من يدافع عدا القلة عن نظرية الاشتراكية العلمية ونحن الآن بأمس الحاجة الى تطويرها سيما وان تطورها مرتبط بالتطور العلمي حيث ان التكنولوجيا الحديثة شقت طريقاً شامخاً تفرض وجود منظرين وبالمستوى للدفاع عن الماركسية ـ اللينينية وتطويرها باعتبار ان هذه النظرية ليست عقيدة جامدة بل انها دليلاً للعمل.

هذه مقدمة للدخول في موضوع مناقشة الوثيقتين ولا اريد هنا الطعن أو المساس بأحد لانه ليس من حقي ذلك، بل من حقي ان اعاتب من له القدرة على سد هذه الثغرة ولم يتحرك بل يظل يتفرج بانتظار تكليف محدد!

فبخصوص ذكر الاشتراكية والشيوعية وعدم ذكرها، والتبريرات التي جاءت بهذا

الخصوص هو ان تجربة الاشتراكية ـ النموذج السوفييتي وما حصل في بلدان اوربا الشرقية يجعلنا امام فكرة مفادها اذا كنا لم نتمكن بعد من بناء الاشتراكية بالرغم من مرور سبعين سنة واكثر فلماذا نحشر هاتين الكلمتين ونحن غير قادرين على تحقيقها! بالاضافة الى كونهما عاملاً لم يساعد على توسيع القاعدة الحزبية. يدفعني هذا الى التذكير فقط بما جاء في مقدمة البيان الشيوعي الذي اصدره ماركس وانجلز عام ١٨٤٨ حيث لم يفكر ماركس أو انجلز اطلاقاً ببناء الاشتراكية أو الشيوعية في ذلك الوقت فقد جاء:

«أي حزب معارض لم يتهمه خصومه القابضون على زمام السلطة بالشيوعية؟ وأي حزب معارض لم يلصق بدوره تهمة الشيوعية ـ الدامغة ـ سواء بأقسام المعارضة التي هي اكثر تقدماً منه أم بخصومه الرجعيين؟ ويستمر البيان: ومن كل ذلك نستخلص شيئين: اولهما: ان الشيوعية اصبحت قوة معترفاً بها من جميع القوى الاوربية (هذا كان عام ١٨٤٨ ـ الباحث). ثانيهما: ان الشيوعيين قد آن لهم ان يعرضوا أمام العالم بأسره مفهوماتهم واهدافهم وميولهم، ويدحضوا خرافة شبح الشيوعية ببيان من الحزب نفسه»[٣].

من هذه المقدمة ابدأ بالمناقشة للوثيقتين وابدأ اولاً: بوثيقة النظام الداخلي.

١ ـ بالنسبة للمقدمة ارجو العودة الى درج الاسترشاد بالنظرية الماركسية ـ اللينينية.. الى آخر الفقرة والسبب هو كما اسلفت في مقدمة البحث

٢ ـ الباب الثاني ـ العضوية في الحزب، المادة الثانية تركيب الحزب.. اقترح ان تكون الصيغة كما يلي:

«يضم الحزب الشيوعي ... باعتبارها قضيتهم بالذات، ولا يقبل في صفوفه العناصر الخاملة والمترددة والمتسيبة والثرثارة وسيئة السلوك باعتبار ان اعضاء الحزب هم مفخرة شعبنا النبيل».

٣ ـ المادة (٧) الاستقالة من الحزب، تعدل وتصبح الفقرة (٤) كما يلي: يعتبر مستقيلاً من الحزب كل من تخلى عن الالتزام (بأحد) شروط العضوية (عن قصد)

٤ ـ المادة (٥) المؤتمر الوطني. ارجو اضافة نقطة انتخاب السكرتير العام لان انتخاب السكرتير العام من المؤتمر له اهميته في تسيير العمل ويعطي السكرتير العام دفعاً اكبر في المبادرات.

المادة (١١) اللجنة المركزية.

تحذف الفقرة (١٣) التي تنص على انتخاب السكرتير العام حيث اقترحت ان ينتخب من قبل المؤتمر الوطني.

المادة (١٣) السكرتير العام:

١ ـ ... وهو مسؤول امام المؤتمر الوطني واللجنة المركزية بشأن تطبيق قراراتها.

ملاحظة: انا مع المقترح بخصوص دورتين لعضوية اللجنة المركزية، وعضوية المكتب السياسي والسكرتير العام وفي حالة الدورة الثالثة ان يحصل عضو اللجنة المركزية والسكرتير العام على اكثرية الثلثين من الذين لهم حق التصويت ونفس الشيء بالنسبة لعضوية المكتب السياسي.

* * *

وجدير بالذكر هنا، انه ليست العبرة في دقة نصوص النظام الداخلي أو عدم دقتها بقدر ما العبرة في التطبيق والممارسة اليومية. فما فائدة الانظمة الداخلية اذا كانت توضع على الرف؟ وان الممارسة العملية اليومية بعيدة كل البعد عن الانظمة الداخلية مهما اخذت من وقت في المناقشة قبل اقرارها من اجل اختيار النصوص والجمل الملائمة.

ان اللجنة المركزية في حزبنا نفذت ما راق لها في حالات عدة، وفي حالات خطيرة واعطت نفسها حقوقاً فوق المؤتمر الوطني وتجاوزت بذلك صلاحياتها والامثلة على ذلك غير قليلة:

- فهل يحق للجنة المركزية اقصاء اعضاء في اللجنة المركزية وقد انتخبوا من قبل المؤتمر؟

- وهل يحق للجنة المركزية ان تعاقب عضواً في اللجنة المركزية دون محاسبته أو حتى مواجهته بأخطائه اذا كان قد قام بعمل خاطىء يستوجب العقوبة؟

- هل يحق لعضو في اللجنة المركزية في مجال عمله ان يحجب قرارات اللجنة المركزية عن عضو آخر في اللجنة المركزية يعمل معه ولم يدع للاجتماع دون سبب مبرر.. أو ابلاغه بقرارات لا صحة لها؟!

وعلى هذا الاساس- اقترح اضافة مادة في العقوبات تنص على معاقبة اعضاء اللجنة المركزية من العناصر البيروقراطية والمسيئة في تطبيق النظام الداخلي.

- اقترح اضافة وصايا الحزب في خاتمة النظام الداخلي. وبالنسبة للمؤتمر الخامس لحزبنا فأقترح ان تكون عضوية المؤتمر بالاضافة الى المنتخبين في الكونفرنسات الحزبية استدعاء كافة اعضاء اللجنة المركزية السابقين والذين لم يسيئوا الى الحزب والحركة الوطنية ولم يتعاونوا مع الجهات المعادية، الى المؤتمر لانهم حرموا بغير حق من طرح وجهات نظرهم واستخدام حقهم اسوة بالآخرين واعتقد ان هذا هو حق ديمقراطي واسلوب سليم من الواجب الاخذ به اذا ما اردنا نتائج حسنة لمؤتمرنا الخامس.

أما بخصوص الوثيقة البرنامجية:

بالرغم من كون مشروع الوثيقة البرنامجية كان موفقاً بحدود كبيرة مقارنة بالنظام الداخلي إلا انه لم يخل من بعض الثغرات ان صح التعبير ارى من الافضل تحاشيها، ففي

الفقرة الخامسة اعود فأكرر ضرورة الصياغة على اساس «مسترشداً بالماركسية ـ اللينينية وسائر التراث الانساني الاشتراكي. . . الخ» ولا ارى مبرراً اطلاقاً لذكر المنهج الماركسي والتراث اللينيني خاصة وان وثيقة النظام الداخلي أكدت في المادة الاولى على «ان الحزب الشيوعي اتحاد طوعي لمناضلين تجمعهم نظرية واحدة ويكرسون طاقاتهم وحياتهم لقضية الطبقة العاملة والشعب».

اما الفقرة السادسة فقد جاءت على النحو التالي:

«ان المهمة المركزية التي يتوقف على انجازها تحقيق سائر المهمات. . . . وبناء نظام ديمقراطي تعددي تداولي. . . الخ». هنا اقترح حذف كلمة تداولي اذ لا مبرر لها، اذ ان «بناء نظام ديمقراطي تعددي ينبثق عن ارادة الشعب المعبر عنها بالانتخابات الحرة المباشرة وبالاقتراع السري» كافية تغني المعنى وبالنسبة للنقاط الاخرى المدرجة في البرنامج فهي جيدة واضافة كلمة أو حذف اخرى لا يزيد ولا يقلل من اهمية هذه الوثيقة، إلا ان المهم هو الموقف من الجبهة والتحالفات فمادامت الدعوة الى جبهة عريضة وواسعة الهدف منها تخليص شعبنا من ويلات وآثار مآسي النظام الدكتاتوري وحاكمه «جلاد الشعب»، فتجربة حزبنا غنية بهذا الصدد، وعليه نأمل ان لا نتعالى على القوى المتحالفة معنا ولا نتصرف تصرفاً يسارياً متطرفاً يعزلنا عن مسيرة القافلة، ولا ان نكون ذيلاً للجبهة نخضع عملنا الحزبي للجبهة كلياً، وتصبح قيادة الجبهة فوق قيادة الحزب ويصبح الحزب مقاداً من الجبهة ويتصرف دون الاخذ ببرنامجه الذي وضع على عاتقه العمل على تطبيقه، فلا موقف يساري انعزالي من الجبهة، ولا موقف يميني ذيلي، المهم ان تكون للحزب سياسة ثابتة وفق برنامجه الذي سيقره المؤتمر المقبل ويعمل على تنفيذه بدقة وامانة ووفق مبادئه.

واخيراً اؤكد على ضرورة ابقاء اسم الحزب الشيوعي ولا داعي اطلاقاً لتغييره، فهذا الاسم اصبح جزءاً من تراثنا الحزبي ولا يجوز ان ننقاد وراء الحملة الضارية ضد الماركسية ـ اللينينية وضد الشيوعيين فالاسم سواء تغير أم لم يتغير فالشيوعيون يبقون شيوعيين، ان الحزب الشيوعي في المانيا الديمقراطية كان يدعى الحزب الاشتراكي الالماني الموحد، ونفس الشيء بالنسبة لالبانيا وبولونيا والمجر وسويسرا والجزائر وغيرها. العبرة في سياسة الحزب، اذا كانت صائبة أو خاطئة فهي عامل كسب الجماهير أو ابتعادهم عن الحزب، وليس الاسم هو الذي تهابه الجماهير، وقد مضى على اسم الشيوعية حوالي ١٤٥ عاماً. لهذا اؤكد على ضرورة بقاء التسمية ولا داعي للتغيير.

واخيراً اود الاستفسار فيما يتعلق بموضوع الحزب الشيوعي لكردستان العراق واستفساري هذا يتلخص في نقطة واحدة ألا وهي ما الفائدة من مناقشة موضوع تكوين

تنظيم خاص للحزب الشيوعي في اقليم كردستان ـ منطقة الحكم الذاتي في حين ان العملية آخذة في التنفيذ العملي، وان الكونفرنسات لاختيار مندوبي الحزب الشيوعي في كردستان العراق أوشكت على الانتهاء ولربما كما تتناقل اخبار القادمين من كردستان ان المؤتمر لهذا التنظيم الجديد سينعقد قبل المؤتمر الخامس لحزبنا. . فما جدوى مناقشة هذه النقطة في النظام الداخلي، يصعب علي حقاً ان اجيب على مثل هذا السؤال وأخاف ان تتكرر خطيئة استمرارنا في مناقشة وثيقتي المؤتمر الرابع لحزبنا في حين كان المؤتمر منعقداً وحتى يقال كان قد انهى اعماله. . وشكراً.

بودابست ١٩٩٢/٣/١٥

الهوامش

(١) الاسس اللينينية، ستالين ص ١٥٦، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، البرافد نيسان وايار ١٩٢٤.
(٢) بيان الحزب الشيوعي، مختارات ماركس وانجلز، المجلد الاول ص ٤٨ دار التقدم، موسكو.

حصيلة مناقشة الوثيقتين
في موسع احدى منظماتنا

تواصلت مناقشة مشروعي البرنامج والنظام الداخلي الجديدين في الموسعات التي تعقدها منظمات حزبنا في سياق الاعداد لعقد المؤتمر الوطني الخامس، مؤتمر التجديد المنشود على مختلف الاصعدة.

وتواصل «الثقافة الجديدة» نشر المساهمات التي تردها من المنظمات والرفاق والاصدقاء والكتاب من الاتجاهات الاخرى.

وفيما يلي ننشر نموذجاً لحصيلة النقاش الذي دار في موسع احدى منظمات الحزب.

التقرير الموحد للملاحظات على مشروعي برنامج الحزب والنظام الداخلي

مقدمة :

* درست جميع الهيئات الحزبية عندنا الوثيقتين بروح التروي والجدية، وطرح الرفاق آراءهم بحرية تامة من خلال محاضر الهيئات، والمداخلات المكتوبة. إلا ان هذه الدراسة لم تكن معتمدة على ما جاء في النشرة الداخلية الصادرة عن م. س. بخصوص دراسة الوثيقتين، اذ انها جاءت متأخرة، ولم يجر التصويت على آراء الرفاق في الهيئات الحزبية. ومن خلال هذه المناقشات والدراسات اتضح :

* اجماع الرفاق على ان الحزب اخذ واقع المجتمع العراقي وخصوصيته عند صياغة الوثيقتين من جهة، ومن جهة اخرى نظر الى التطورات السياسية الدولية، وتطورات الحركة الشيوعية، فصاغ باستقلالية وثائقه الداخلية وبذلك اكتسبت الوثائق رضى الرفاق جميعاً من حيث جوهرها العام، باعتبارها نقلة نوعية في حياة الحزب. وقد اغنى الرفاق الوثيقتين بملاحظات يعتبرونها جادة للمساهمة الفاعلة في رسم سياسة الحزب العامة، مما اضفى طابعاً حيوياً على عموم المناقشات في اجتماعات الهيئات الحزبية. هذا واعتمدنا في تبويب التقرير على: الملاحظات المشتركة، والملاحظات الفردية، والاستفسارات.

الملاحظات والمقترحات بشأن الوثيقة البرنامجية

الآراء المشتركة

اكد ٦ رفاق على تبديل كلمة «ازاحة» في شعار الحزب بكلمة «اسقاط» الدكتاتورية، لان كلمة الازاحة لا تعني الاسقاط، والاسقاط يعني ازالة كل مؤسسات النظام ومنظماته. (١٢) رفيقاً كانوا مع الاسقاط في الموسع.

* طرح ٤ رفاق فكرة تغيير اسم الحزب. رفيق واحد اقترح اسماً جديداً هو «حزب الشعب الديمقراطي». اساس الفكرة يكمن في التطورات الجارية في الحركة الشيوعية وموجة التغيير، ولم يكن لدى الرفاق أي استدلال آخر. في الموسع: ١٨ رفيقاً مع بقاء اسم الحزب، واحد مع تغيير الاسم، ورفيق واحد متحفظ.

* تضاف «والطبقي» في نهاية «ويصوغ الحزب الشيوعي العراقي وثيقته البرنامجية استناداً الى دراسة المجتمع العراقي المعاصر وتركيبه القومي»، لان المجتمع العراقي غير منقسم فقط على اساس قومي وإنما طبقي ايضاً. وبذلك تكون دراسة توازن القوى السياسية أولى معايير معرفة نضوج الوضع الثوري، وأي القوى هي المحركة للثورة. كان المقترح من ٣ رفاق ونال اجماع الموسع.

أولاً - لم يعط البرنامج كيفية ازالة (اسقاط) الدكتاتورية، وبذلك يجب تحديد الاساليب. ١٣ رفيقاً مع وضعها في المقدمة.

ثانياً - فقرة ازالة آثار وعواقب حروب - الخ تضاف فيها «ضد ابناء الشعب العراقي» وتحذف «في الوسط والجنوب»، لان الازمة شملت كل العراق، كان هذا اقتراح ٧ رفاق وحظي باجماع الموسع.

ثالثاً - يضاف الى هذه الفقرة «اعتماد سياسة نفطية... الخ: «والتخلص من اعباء ديون النظام من جراء الحرب العراقية الايرانية وحرب الخليج الثانية والتأكيد على عدم

تحميل الشعب العراقي اعباءها» مقترح من ٥ رفاق نال اجماع الموسع.

ـ تضاف فقرة «مصادرة ثروة الطغمة الحاكمة اينما وجدت ووضعها في خدمة الشعب العراقي». مقترح من ٣ رفاق نال اجماع الموسع.

عاشراً ـ تأكيد حق الشعب الكردي في تقرير مصيره بما في ذلك حق الانفصال. مقترح من ٥ رفاق. وصوت ٨ رفاق في الموسع مع تثبيت حق الانفصال.

ثاني عشر ـ قضية الشباب والطلبة لم تناقش بشكل جيد، وصياغة موقف عام واضح منها، رأي ٣ رفاق تبنته توصية من الموسع.

ـ الوثيقة البرنامجية بحاجة الى تفصيل اكثر، كما يرى ٣ رفاق.

* في النقطة الثانية حول انصاف جميع ابناء الشعب العراقي يضاف «من عسكريين ومدنيين المتضررين وتعويضهم مادياً ومعنوياً، وارجاع حقوقهم العامة، والاهتمام بشكل خاص بمشوهي الحرب من خلال انشاء مستشفيات خاصة لهم، وتأهيلهم اجتماعياً». قبل المقترح باجماع الموسع.

* التأكيد على ضرورة محو الامية قبل المقترح باجماع الموسع.

* تضـاف دعوة العراقيين في الخارج للعودة لبناء وطنهم المحتاج الى خبراتهم. رفعت توصية من الموسع بهذا المعنى.

* الفقرة خامساً: حماية الطبقة العاملة والشغيلة عموماً.. الخ، يضاف اليها «وذلك بسن قانـون عمـل جديد يضمن حقـوق العمـال دستـورياً وتمثيلهم في ادارة المشاريع والمؤسسات الاقتصادية. قبل المقترح باجماع الموسع.

* الفقرة (٨) يضاف اليها: ادخال التغذية المدرسية للريف والمدينة. قبل المقترح بالاجماع.

* عدم الاتفاق مع كلمة الدول المتحالفة ويجب تثبيت صفة الامبريالية. لم يقر المقترح.

* الفقرة خامساً: يضاف اليها «الغاء كافة القوانين والاجراءات التعسفية بحق الطبقة العـاملة والتي تحـد من نشـاطهـا وحقـوقها المشروعة، ومنها قانون تحويل العمال الى موظفين، واستعـادة الحـريات النقابية للطبقة العاملة والشغيلة وحقها في الاضراب عن العمل للدفاع عن مصالحها. اقر المقترح باجماع الموسع.

رفيق مع المنهج الماركسي والتراث اللينيني.

٥ رفاق مع النظرية الماركسية اللينينية.

٨ رفاق مع المنهج الماركسي والتراث الاشتراكي الانساني.

٤ رفاق مع النظرية العلمية (المادية الديالكتيكية).

* تشخيص القوى المحركة للثورة والقوى المضادة. ١٥ رفيقاً أيدوا المقترح.

* منع تكوين منظمات حزبية في الجيش. اقر المقترح باجماع الموسع.

* اضافة «العودة» في فقرة الشعب الفلسطيني. ٩ رفاق ايدوا المقترح.

* تضاف صفة «فاشي» اينما وردت كلمة دكتاتوري. ١٢ رفيقاً أيدوا المقترح.

* في فقرة القوات المسلحة تضاف اشارة الى مصير الانصار. قبل المقترح بالاجماع.

مقترحات لرفاق لم يجر التصويت عليها

- التأكيد على جوهر التحالف.
- تثبيت طبقية الحزب.
- اعادة الاقسام الداخلية للتلاميذ في المدن والريف.
- في البرنامج يثبت اسم الحزب ونبذة عن تاريخ الحزب بايجابياته وسلبياته.
- رفيق يرى الابقاء على الشعار السابق للبرنامج.
- في الجانب الاقتصادي لبرالية تتجلى في قضية الطبقة العاملة.
- يقترح رفيق حذف «قرارات المقاطعة» من الفقرة الثانية لانها ستلغى حين سقوط الدكتاتورية.
- يجب تثبيت نوع الدولة الفلسطينية في الفقرة الرابعة.
- تثبيت موقف نقدي تجاه التغيرات في الاتحاد السوفييتي.
- تضاف إلى البرنامج فقرة تشير الى ان حزبنا يرفض الالحاد ويضم مؤمنين في صفوفه.
- اقتراح بتشجيع رأسمالية الريف وليس التعاونيات الزراعية.

مشروع النظام الداخلي

المقدمة: في فقرة «يسترشد الحزب بالمنهج الماركسي والتراث اللينيني» تستبدل بالمنهج الماركسي والنهج اللينيني. ايد المقترح في الموسع ٤ رفاق.

* حذف كلمة صغيرها وكبيرها. مقترح ستة رفاق نال في الموسع الاجماع.

* الباب الاول ـ المادة (١) تغيير جملة بما يتوافق مع مبدأ المركزية الديمقراطية

«ويلتزم بمبدأ المركزية الديمقراطية». ستة رفاق ايدوا المقترح.

* فقرة (د) ـ نقطة (٧) يضاف «مقرونة بمصلحة الحزب واقناع منظمات الحزب بذلك».

الباب الثاني: مادة (٦) ب: العودة في هذه الفقرة الى النظام الداخلي الذي اقره المؤتمر الرابع مقترح من ٤ رفاق أقر بالاجماع.

* المادة (٧) فقرة (٢) هذه الفقرة عائمة يجب تحديدها، مقترح اعادتها الى الفقرة الموجودة في النظام الداخلي الذي اقره المؤتمر الرابع. مقترح من ستة رفاق نال في الموسع الاجماع.

المادة (٨)، فقرة (١): تبديل كلمة «مساءلة» بـ«محاسبة». ١٤ رفيق ايدوا المقترح.

وتبديل كلمة «فصل» بكلمة «طرد». ثمانية رفاق قدموا المقترح وايده في الموسع ٩ رفاق.

* الباب الثالث: المادة (٩)، فقرة (٥): تضاف واللجان المحلية وكافة الهيئات الحزبية، مقترح من سبعة رفاق نال في الموسع الاجماع.

* المادة (١٠): ضرورة انتخاب مندوبي المجلس الحزبي العام ولو بشكل اضيق من المؤتمر. رأي اربعة رفاق.

* المادة (١١): انتخاب اللجنة المركزية والسكرتير لدورتين متتاليتين. مقترح من ثلاثة رفاق في الموسع و«دورة ثالثة بأكثرية الثلثين»، ٧ رفاق مع الصيغة الوادرة في الوثيقة ١٢ رفيقاً مع المقترح.

* انتخاب الهيئات القائدة وسكرتيرها لثلاث دورات، مقترح من ستة رفاق نال في الموسع الاجماع.

* الباب الرابع: ضرورة تسمية «الحزب الشيوعي الكردستاني في العراق. اربعة رفاق مع صيغة الوثيقة (١١) رفيق اقترحوا ذلك. مع بقاء اقليم كردستان خمسة رفاق.

* المادة (١٦): المنظمة المحلية. نقطة (٢) الكونفرنس المحلي يستعاض عنها بالفقرة (ج) ويضاف اليها يعقد كل عامين، وهو اعلى سلطة حزبية في المنظمة المحلية. مقترح من ٥ رفاق. في الموسع ١٩ رفيقاً مع المقترح رفيق واحد ضده.

* ضرورة تثبيت وصايا الحزب. مقترح ثمانية رفاق نال في الموسع الاجماع.

* التأكيد على تركيبة الحزب الطبقية، مقترح عشرة رفاق. في الموسع صوت ١٢ رفيقاً مع المقترح.

* عدم الاتفاق مع حضور ل. الاختصاص المركزية الى المجلس العام بل مندوبين عنها. ايد المقترح ١٩ رفيقاً.

* ليس ضرورياً تقليص فترة الترشيح للعمال. فترة الترشيح للجميع ٦ اشهر. ١٧ رفيقاً مع المقترح و٣ رفاق ضده.

* الباب الثالث، مادة (٩) يضاف كلمة ل. م والمرشحين والاحتياط اليها. تثبت فقرة انتخاب اعضاء احتياط الى ل. م. اقر المقترح بالاجماع.

* تضاف فقرة «لا يقبل الحزب في صفوفه العناصر الخاملة والمترددة والمتسيبة والثرثارة وسيئة السلوك» قبل بالاجماع.

* مقترح بتوصية: رد الاعتبار لكل الرفاق الذين استشهدوا وابعدوا سابقاً من الحزب لاسباب فكرية. قبل بالاجماع.

* توصية: كتابة تاريخ الحزب وتقييم تجربته. قبل بالاجماع.

* تسمية السكرتير الاول بدل السكرتير العام. ١٠ رفاق مع المقترح. ١٠ رفاق ضد المقترح.

* ترويج آراء الاقلية والمناقشة الحزبية حولها في الصحافة الحزبية. ٦ رفاق مع المقترح. ١٤ رفيقاً ضد المقترح.

* انتخاب السكرتير العام (الاول) في المؤتمر وليس من قبل ل. م. ١٤ رفيقاً مع المقترح.

* توسيع الديمقراطية للاعداد للمؤتمر. ١٧ رفيقاً مع المقترح.

مقترحات لم يصوت عليها أو لم تقر

- حذف الامبريالية من النظام الداخلي لانها لا تناسب الظرف الحالي.
- في المادة ١ من الانضباط تثبيت حضور الرفيق المحاسب وتحذف عبارة «إلا اذا تعذر ذلك».
- العلاقة غير واضحة بين حشع وح ش في كردستان العراق.
- لا ضرورة لعبارة «الذود عن الشعب الفلسطيني.. الخ» بعد الانتفاضة بل في مواضع غير المقدمة.
- تحديد فترة الترشيح بتسعة اشهر.
- يصبح الصديق رفيقاً بدون فترة ترشيح بعد قبوله.

ـ لا ينتخب مجدداً اعضاء ل. م وم. س والسكرتير العام الذين بقوا في القيادة منذ المؤتمر الثاني.

حول التقرير السياسي

ـ إلغاء الفقرة الخاصة باوضاع الاتحاد السوفييتي وتقييم محاولة الانقلاب. قبل المقترح بالاجماع.
ـ اضافة فقرة أو أكثر حول الوضع الاقتصادي. اقر المقترح بالاجماع.
ـ اضافة فقرة تشخص بدقة القوى التي مع أو ضد النظام خاصة بعد انتفاضة آذار. اقرت توصية بهذا المضمون.

ملاحظة عامة

يرى الموسع بالاجماع ان على الحزب ان يرفق مع التقارير الموزعة على الرفاق الآراء المختلفة الموجودة في القيادة حول مضامينه.

* حضر الموسع الخاص بمناقشة الوثائق ٢٠ رفيقاً من مجموع ٢٦.



حول الموقف من الحزب الشيوعي في كردستان ـ العراق

وريا سعيد

استجابة للدعوة التي قدمتها اللجنة المركزية لحزبنا الشيوعي العراقي (ايلول ١٩٩١) اقدم هذه المداخلة السريعة منطلقاً من ضرورة المواجهة الصريحة واعتماد امانة المسؤولية التي تقتضي طرح الرؤية كاملة، آخذاً بنظر الاعتبار الاحداث والتطورات الاخيرة التي جرت مؤخراً على ارض الوطن، تلك الاحداث التي ستلقي بظلالها على مستقبل الوطن والشعب.

لذا لكي يكون المؤتمر القادم مؤتمر المصارحة والديمقراطية والتغيير علينا اللجوء الى اساليب وحوار جديد في المناقشة، والتي هي من سمات المرحلة الحالية. وهكذا اود البدء بالاشارة الى التطورات التي جرت على الصعيد العالمي وبشكل خاص احداث وتغييرات بلدان المعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفييتي، تلك الاحداث والتغيرات التي تجاوزت حدود تلك البلدان وجلبت انتباه الرأي العام العالمي من حكومات وانظم واحزاب ومنظمات جماهيرية، حيث نجد بوضوح تقلص تأثير الحركة الشيوعية في العالم غير الاشتراكي، وبصورة خاصة في بعض البلدان الصناعية، حيث تعاني الاحزاب الشيوعية هناك ركوداً معيناً وحتى تقلصاً في عدد اعضائها. وما حدث يعزى الى اسباب عديدة لسنا بصدد مناقشتها في هذه المداخلة. مع الاحداث وبعدها اصبحت الديمقراطية والتعددية الحزبية وحرية الرأي والتعبير والصحافة والمظاهرات والاجتماعات من اولويات مطاليب الجماهير. ودعت الجماهير الى سيادة دولة القانون وحقوق الانسان والعدالة الاجتماعية.

وعلى الصعيد العالمي تم تخفيف التوتر في العلاقات الدولية بين الحكومات ولجأت الى حل المشاكل المعقدة الدولية والاقليمية بالطرق السلمية والابتعاد عن مبدأ العنف والحرب الى حد ما كوسيلة وحيدة لحل تلك الخلافات. ونال ايضاً عدد من الشعوب حقهم في تقرير المصير وشكلت كياناتها القومية المستقلة بعد فشل تجربة بناء دول قوية وكبيرة في الاتحاد السوفييتي ويوغسلافيا حيث تتمركز السلطة فيها في المركز. كل هذا اثار ويثير جدلاً واسعاً في حزبنا كبقية الاحزاب حول حاضر ومستقبل الحزب وفهمه وموقعه في تلك الاحداث وكيفية اعادة بنائه الداخلي مع كيفية بناء اساليب عمله وعلاقاته بالجماهير ومواقفه مما جرى ويجري في العالم وفهمنا الموضوعي والعلمي لكل تلك الاحداث.

وفيما يتعلق بموضوعنا أي موقف حزبنا من الحزب الشيوعي في كردستان العراق وبالارتباط مع كل ما قلناه اعلاه نرى للاسف الشديد مشروع النظام الداخلي والذي طرح فيه هذا الموضوع لا يستجيب ولا يواكب التطورات الجارية في العالم، حيث هناك بنود وقيود كثيرة تعرقل آفاق تطور منظمات الحزب وزيادة فاعليتها ونفوذها بين الجماهير. فهنا من حقنا ان نتساءل: ألسنا بحاجة الى نظام داخلي يعكس التطورات الاخيرة والتغييرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية للمجتمع العراقي وروح مرحلتنا وتطلعات اعضاء الحزب عامة وحاجات الجماهير؟ وفي حالة الجواب ايجاباً، أليس من حقنا ان نتساءل ايضاً أي جهة مسؤولة عن طرح مشروع كهذا؟ بالتأكيد قيادة الحزب وبالاخص اللجنة المركزية هي مسؤولة بالدرجة الاولى حيث لازالت تعالج القضايا والمشاكل التنظيمية والفكرية بأساليب غير ملائمة لروح العصر وتطوراته.

الفقرة الواردة في الباب الرابع المادة ١٥ بشأن تحويل لجنة اقليم الى الحزب الشيوعي في كردستان ـ العراق مقتضبة ومختصرة جداً حيث تقول «بالنظر الى الطابع القومي الذي تتميز به كردستان العراق، يشكل اعضاء الحزب ومنظماته في كردستان تنظيماً حزبياً، يسمى بـ «الحزب الشيوعي في كردستان العراق». وهو جزء من الحزب الشيوعي العراقي، يضع برنامجه ونظامه الداخلي وسياسته، وفقاً للظروف الملموسة لكردستان العراق، وفي ضوء البرنامج والنظام الداخلي للحزب الشيوعي العراقي، وسياسته العامة».

يظهر للقارىء دون جهود تبذل ان قيادة الحزب غير مهتمة بهذه القضية الاساسية بشكل جدي ولا تملك تصوراً ومشروعاً واضحاً لمعالجة هذه المشكلة التنظيمية. فلو كانت اللجنة المركزية جدية أليس من المفروض ان تطلب من لجنة اقليم كردستان طرح مشروع النظام الداخلي والبرنامج للمناقشة العامة وتبلور آراء صحيحة قبل عقد مؤتمر الاقليم كما طرحوا مشروع وثيقتي البرنامج والنظام الداخلي للحزب؟ ففي هذه الايام في كردستان تعقد كونفرنسات المحليات تهيئة لعقد مؤتمر الاقليم، ولكن الكونفرنسات والمؤتمر تفتقر الى

الوثائق الاساسية والضرورية لدراسة الوضع السياسي والفكري والتنظيمي لمنظمة الاقليم وخصوصيات كردستان. ولا اعتقد ان اللجنة المركزية قليلة التجربة في هذا الصدد. ألا تعرف ضرورة وجود مشروع الوثائق؟ مع هذه الثغرة الكبيرة في عملية عقد مؤتمر الاقليم فان الرفاق الاكراد الموجودين خارج العراق محرومون من مشاركة مؤتمر الاقليم. وللعلم ان هناك عدداً غير قليل من الكوادر من مكتب الاقليم ولجنته وكوادر اخرى في المحليات لديهم تجارب غنية وغير قليلة، فلماذا اذن هذا الموقف؟ هذا القرار يدل على عدم جدية اللجنة المركزية في معالجة هذه القضية الملتهبة بشكل صحيح ومشاركة الجميع في المعالجة، ونحن جميعاً نتحدث بممارسة الديمقراطية وحرية النقاش وابداء الصراحة والجماعية في الدراسة والتعليل والصياغة والقرار. باعتقادي هناك ثغرة وفجوة كبيرة في ممارسة المهام بين الاقوال والافعال. فهنا يكمن الخلل والعلة.

في نهاية الفقرة المذكورة في النظام الداخلي وردت شروط تنظيمية غير ديمقراطية لماذا على (حشك) ان يضع برنامجه ونظامه الداخلي على ضوء برنامج النظام الداخلي الخاص بـ (حشع)؟ بالطبع هذا يعود الى المنطلق الاساسي الذي هو اعتبار (حشك) جزء و(حشع) هو الاصل، في حين الصحيح والسليم هو اعتبارهما حزبين شيوعيين متساويين ويعبران في برامجهما وسياستهما وتكتيكاتهما عن مصالح شعبيهما ومشتركين في نفس الوقت في النضال والمهام العراقية المشتركة وغيرها. ان كانت هناك نوايا جدية وصادقة لاعطاء شعبنا الكردي المناضل فرصة بناء حزبه الشيوعي نتيجة بلورة الظروف التاريخية والتي تؤكدها الاحداث ايضاً، لِمَ هذا التردد في اعطاء تنظيمات الاقليم استقلالها الكامل؟ والمسألة ناضجة حسب اعتقادي داخل تنظيمات الاقليم وخارجها. وماذا ستكون ردود الفعل والنتيجة في المؤتمر الخامس للحزب اذا تمسكنا باخضاع الجزء للكل، علماً بان الاقليم لا يفتقر الى شيء يذكر، اعني من ناحية الكادرات التنظيمية والكفاءات الفكرية والسياسية التي يتحلون بها؟

انني على يقين بان اقرب حليف لـ (حشع) في الحركة الوطنية العراقية سيكون (حشك). هناك عدد غير قليل من الرفاق في الحزب أو نستطيع ان نقول اغلبيتهم يدعون الى تعددية الافكار داخل حزب واحد وذلك لاعتبارات عديدة، فلماذا يعارض بعضهم تعددية الاحزاب داخل بلد واحد اذا كان الحزبان مبنيين على اسس ومفاهيم تنظيمية وسياسية وفكرية واحدة بالاضافة الى حاجات المرحلة وتطلعات اليسار الكردستاني.

من حق الرفاق الذين يعارضون هذا التوجه ان يتساءلوا لِمَ هذا الانقسام؟ أليس من الضروري والمفيد النضال ضمن حزب واحد واطار واحد؟ استطيع القول بايجاز ان مهمات الحركة الكردية هي مهمات تحررية صرفة حتى يكتمل التحرر السياسي والذي بدوره يمهد

الارضية للتحرر الاقتصادي والاجتماعي. فنحن منقسمون شعباً وارضاً فلا زلنا نعاني من انـواع الاضـطهاد القومي والسياسي والاجتماعي وهدفنا النهائي هو الاستقلال والسيادة الوطنية. فهذا ما يجب النضال المتفاني لتحقيقه عاجلاً أم آجلاً.

لذا من واجب ومهام الاحزاب والمنظمات الكردستانية اليسارية وغيرها ان تبرز في سياساتها وبرامجها خصوصيات كردستان بالدرجة الاولى وتطلعات الشعب الكردي القريبة والبعيدة. وأمـا مهمـات الحركة الوطنية العراقية فهي مهمات ديمقراطية صرفة. لقد نال الشعب العـربي في العـراق الاستقلال السياسي والاقتصادي والعسكري والاجتماعي. فمهمات واهداف الحركة الوطنية العراقية برمتها محصورة في سبيل حكم ديمقراطي والذي يحقق طموح الشعب في التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي... فهنا يطفح التباين والخلاف حيث ان نشاط الاحزاب والمنظمات الكردستانية يجب ان يكون بالاساس في هذه المـرحلة بالـذات ـ التي يواجه فيها شعبنا ووطنه كردستان حرب جينوسايد والابادة والصهر القومي ـ نضالاً دؤوباً من اجل القضايا القومية والوطنية أولاً وهي مهمة شائكة ولا يمكن انجازها بفترة قصيرة جداً حسب ما اعتقد. وهناك ايضاً مهمات مشتركة لـ (حشك) و(حشع) لذا يستوجب التنسيق والتعاون في بعض المواقف على اساس كونهما:

أولاً: حزبين يسترشدان بالمنهج الماركسي في التعليل والصياغة والعمل.

ثانياً: يواجهان نظاماً دكتاتورياً وشوفينياً واحداً يضطهد ويقمع الطرفين وعدو لكل ما هو تقدمي وانساني.

بالنسبة لشكل التنسيق والتعاون ارى ان مؤتمر الاقليم يقرر حدود ذلك وليس المؤتمر العام للحزب، أي الكلمة الاخيرة تبقى لمؤتمر شيوعيي كردستان، يمكن ان يكون التنسيق على شكل لجنة أو هيئة أو أمانة عامة أو أي شكل آخر، وعدد اعضائها يكون بالتساوي من الطرفين فهذا عمل ديمقراطي صائب حسب ما اعتقد في الوقت الحاضر. ومن الضروري هنا ان نشير الى مسألة الانضمام الى منظمات (حشك). فسكان كردستان من العرب اذا ارادوا ان يعملوا في منـظمـات (حشـك) فمن المنـطق ان لا توضع امامهم أي عراقيل واشكـالات ومن الضـروري تثبيت هذا المبدأ في النظام الداخلي لـ (حشك). بالنسبة للمناطق العربية من العراق، منظمات (حشع) عليها ان تفتح ابوابها امام الاكراد الساكنين هناك اذا ارادوا العمل في صفوفها.

فيمـا يتعلق بالعلاقات الداخلية والعربية والعالمية للحزبين فكلا الطرفين لديهما كامل الاستقلالية في تحديد علاقتهما، على سبيل المثال (حشك) يحدد نوعية علاقاته مع الحـركة التحررية الكردستانية في العراق والاجزاء الاخرى من كردستان المجزأة ويحدد علاقاته مع الحكومات والمنظمات على صعيد المنطقة والعالم. وبنفس المعايير الحزب

الشيوعي في عربستان العراق اذا جاز التعبير يحدد نوعية علاقاته مع الاحزاب والمنظمات العراقية والعربية والعالمية.

وفي مبدأ العلاقات يجب ان تؤكد الاستقلالية الشاملة السياسية والفكرية والتنظيمية أي رفض الوصاية وممارسة النقد والنقد الذاتي لكشف الاخطاء. واشاعة الديمقراطية بأشكالها المتنوعة في كافة مجالات العمل ضمان سليم لاستمرارية العمل المشترك والمثمر.

تبقى مسألة الامتدادات التنظيمية للحزبين في الخارج. في حالة استعداد الرفاق العرب ان يقوموا بمهمات (حشك) والتي هي تحررية في المقدمة، فليس هناك عراقيل في العمل ضمن تنظيم واحد في الخارج، في حالة الرد سلباً فمن حق الحزبين ان يملكا تنظيمين خاصين، أي لكل منهما تنظيماته في الخارج مع الاصرار على بقائهما معاً في القيام بمهمات ونشاطات مشتركة في القضايا المشتركة. فعلى سبيل المثال نضال الحزبين المستقلين ونضال شعب كردستان مع الشعب العربي في سبيل سيادة دولة القانون واحترام حقوق الانسان والديمقراطية وحق تقرير المصير لشعب كردستان من جوهر القضايا المشتركة ومسألة في غاية من الاهمية.

اود الاشارة بان الافكار المطروحة لا تحظى بتأييد عدد من الكوادر من الرفاق الاكراد ،فمازالوا . يعتبرون حل القضية الكردية جزء من القضية الديمقراطية. وبحكم مسؤولياتهم الحزبية ومواقعهم نراهم مهتمين بالقضايا العراقية اكثر من قضية شعبهم الكردي. فهذه الاممية نوع من الكوسموبوليتية. وهم ايضاً على دراية كاملة وكافية اكثر من الآخرين ويعرفون جيداً ان اقليم كردستان في العقدين الاخيرين لم يقم بدوره المطلوب داخل حركة التحرر الوطني الكردية (حتوك) وتخلف كثيراً عن حتلال موقعه الطبيعي في قيادة (حتوك) مع العلم ان اقليم كردستان لحزبنا الشيوعي العراقي يعتبر اقدم تنظيم كردستاني وشارك بشكل فعال في توعية وتنظيم الجماهير الكردستانية الى جانب قيام منظمات الاقليم بنشر الافكار التنويرية في العهد البائد واعوام الحكومات الشوفينية والدكتاتورية المتعاقبة وله صفحات مجيدة في الدفاع عن مصالح واماني الشعب الكردي، في النضال السياسي والكفاح الانصاري المتواصل خلال اكثر من عقدين وفي دفاعه عن استقلالية (حتوك) وجهوده مع فصائلها المختلفة وموقفه المعلن خلال الحرب العراقية ـ الايرانية وبعدها. فهناك كثير من المسائل يمكن كتابتها وابرازها عن دور شيوعيي كردستان وتفانيهم وتضحياتهم، وقدموا آلاف الشهداء الى جانب اخوانهم في (حتوك) في سبيل مستقبل زاهر لشعب كردستان، ولكن مع كل هذا لا يجوز ان نتجاهل انه كان من المفروض ان يقوم الاقليم بدوره القيادي، لكنه تخلف كثيراً وتم تجاهل خصوصيات كردستان وواقع (حتوك)

ومهامها في كردستان العراق في سياسات وتكتيكات الاقليم. وطيلة العقدين المنصرمين ربط اقليم كردستان بقيود سياسية وتنظيمية غير منسجمة مع واقع (حتوك). لذا برهنت التجربة والواقع ان اشراف اللجنة المركزية لحزبنا الشيوعي العراقي ومكتبها على اعمال تنظيم الاقليم قد بلغ حداً من المركزية الشديدة ضمن الوضع العالمي للحركة العالمية آنذاك، بحيث حتى النصوص المسجلة في النظام الداخلي اصبحت على الرفوف في بعض الجوانب. واعتقد ان اقليم كردستان لديه كوادر غير قليلة وقادرة ومجربة لوضع السياسة ومعالجة المشاكل والقضايا المتعلقة بشعب كردستان.

من جانب آخر، لقد استوعب عدد من الرفاق العرب مسألة قيام (حشك) وهذا الاستيعاب حسب اعتقادي نابع من فهمهم الواقعي بحق الامم والشعوب في تشكيل كيانات تنظيمية خاصة بها سواء كدولة وكيان اجتماعي أو كتنظيم سياسي للطبقة العاملة وكادحي ذلك الشعب المعين. وفي نفس الوقت لايزال عدد غير قليل منهم متمسكين بمواقف مناقضة لتطورات العصر واحداثه ويعتبرون هذه الدعوة تلبية لرغبات غير موضوعية وطفرة فوق الواقع الحالي، اعتقد ان انصار هذه الفكرة لايزالون يعللون الواقع بعقل ستاليني ويعتبرون وجود حزب شيوعي آخر مضراً بالحركة اضافة الى اعتبار نفسهم اوصياء على بقية الشيوعيين حتى في نفس الحزب. أليس من حق شعب تعداده اكثر من (٢٥) مليوناً ومحروم من ابسط الحقوق ان يتبنى تنظيماً ماركسياً خاصاً به ويتكلم باسمه؟ لذا فمن الخطأ اللجوء الى وضع عراقيل واجراءات تنظيمية وسياسية وفكرية داخل تنظيم الاقليم وخارجه امام حاملي هذه الافكار ومؤيديها باعتبارها قضية تهم مصلحة شعبهم ومستقبلها، فعلينا ممارسة الصراع الفكري المتعدد الجوانب والحوار البناء والديمقراطية بأرقى اشكالها بعيداً عن التجريح والاساءة الشخصية. فالمستقبل يقرر صحة وخطأ ما نناقش ونعمل.

فـ «الشيوعيون يدعمون تطلع الشعوب جميعاً الى الحرية، ولهذا يؤيدون النضال الوطني التحرري للشعوب والاحزاب التي تقودها» (من كتاب ما هو الحزب ـ بوغايف. ص ٩٣).

لذا من هذا المنطلق على الشيوعيين العرب ان يكونوا من مؤيدي تنظيم حزب شيوعي كردستاني مستقل وليس هناك شيء يضر بمصلحة الطبقة العاملة والشعب الكادح في عربستان العراق وبالاخص في هذه المرحلة بالذات باعتبار مهمات الحزبين ليس مهمات طبقية. وان ضرورة وجود تنظيم اممي واحد لحزب الكادحين في بلد متعدد القوميات كالعراق مثلاً ليس حقيقة مطلقة وانما ضرورته تتوقف على طابع المرحلة التي يمر بها الشعب العراقي وعدد من العوامل الاخرى الداخلية والخارجية.

فما يجب ان نستوعبه في هذه المرحلة بالذات هو الطرق السياسية والعمل التنظيمي الجديد الذي ينسجم مع تطلعات شعب كردستان، آخذين بنظر الاعتبار كل تلك المأساة

التي فرضت على هذا الشعب خلال ضم وطنه الى الكيان العراقي وبالاخص العقود الثلاثة الاخيرة.

وهناك عدد من الرفاق العرب من ذوي الميول والمواقف الشوفينية الذين يعتبرون كردستان العراق جزءاً ابدياً من العراق وغير قابل للانفصال والالتحام بأجزاء اخرى. فأود الاشارة الى ان هذا الموقف ينسجم مع موقف القوميين العرب الذين يعتبرون ارض العراق ويضمنها كردستان جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي. كما اعتقد، لا يحتاج هذا الموقف الى تفسير. نكتفي بما قال لينين «نحن نحكم على الناس لا على اساس اللقب الطنان الذي ينتحلونه لانفسهم، بل على اساس تصرفاتهم وعلى اساس ما يدعون اليه من الواقع» ماركس انجلس ـ الماركسية. لينين ص ١١٤ نعم، يارفاق ما يدعون اليه في الواقع هو اخضاع مصلحة الجزء لمصلحة الكل وبقاء تنظيم اقليم كردستان اسيراً لمواقف وسياسات لا تنسجم مع مصالح شعب كردستان وتغليب ما هو عراقي وعام على خصوصيات وضع كردستان، فهذه السياسة مرفوضة شعبياً ومرفوضة ايضاً نظرياً وعملياً لاحقاً.

وعند الحديث عن (حشك) يرى البعض من الرفاق المسؤولين من مختلف الانتماءات القومية في الحزب، ان هذه الخطوة تؤدي الى اضعاف الحزب الشيوعي في كردستان العراق على الصعيد الداخلي.

اولاً: في مواجهة النظام.

ثانياً: بين احزاب المعارضة العراقية.

ثالثاً: وفي المنطقة العربية والعالم على الصعيد الخارجي.

نحن ماركسيي كردستان عندما ندرس أي شكل تنظيمي يهمنا اولاً مصلحة شعب كردستان واعتقد هذا الحق مشروع لابناء القوميات الاخرى، حيث ان اشكال التنظيم تتغيير حسب المرحلة وتطلعات الشعب. وفي نفس الوقت نحن على اهبة الاستعداد لدعم ومساندة نضال الامم والشعوب في سبيل التحرر والاستقلال السياسي والديمقراطية والتقدم الاقتصادي ـ الاجتماعي بنفس حماس دعمنا ومشاركتنا الفعلي لنضال شعب كردستان. اعتقد ان هذه هي الاممية الصحيحة، فاخضاع الجزء للكل أي بمعنى سحق ارادة شعب كالشعب الكردي ومصالحه ووطنه لصالح القومية الكبرى والانظمة الدكتاتورية والشوفينية المتعاقبة فهي اممية ستالينية برهنت الحياة على فشلها امام ارادة ومصالح الشعوب المتعطشة للحرية والاستقلال والديمقراطية الحقيقية.

وما يتعلق بضعف الحزب في مواجهة النظام، فالانظمة الدكتاتورية والشوفينية لم تبخل في محاربة التنظيمات الصغيرة والكبيرة وتصفية اعضائها وكوادرها ولكنهم استطاعوا ان يواكبون الحياة والتطور لانهم عبروا بسياساتهم عن مصالح فئة أو طبقة معينة، لذلك

فالسياسة الصحيحة تحظى بتأييد الاوساط الشعبية والرسمية مهما تكن سعة الارهاب والقمع. ان حجم الحزب ليس هو معيار وحيد لمكانة الحزب وتأثيره داخلياً وعربياً وعالمياً، وإنما السياسة الصحيحة المستندة على دراسة مزاج الجماهير وتطلعاتها والتنفيذ المبدع لها هي الاساس في تنشيط دور الحزب وسعة نفوذه. في الامس القريب كان عدد اعضاء الحزب الشيوعي السوفييتي الذي تجاوز ١٩ مليون عضو ما يقارب عدد سكان العراق، بقوا على هامش الاحداث وسياستهم لم تحظ بتأييد شعوب الاتحاد السوفييتي.

من جانب آخر، حزبنا يمتلك في وسط وجنوب العراق تنظيماً، فهو ليس محصوراً في اقليم كردستان. لماذا يتصور البعض ان استقلال (حشك) يعني انهاء (حشع) والذي له صفحات مشرقة في تاريخ العراق المعاصر قاد عديداً من المظاهرات والانتفاضات والاضرابات وكان دائماً موجوداً على الساحة بالرغم من شدة الارهاب والملاحقة. ووقف الى جانب الشعب في المحن والمصاعب. ان حاملي هذه التصورات والافكار قليلو الاستعداد للعمل في وسط الجماهير وبين شعبيهم ويريدون ان يبقى الحزب على هامش الاحداث. من جانب آخر كوادر (حشع) في عربستان العراق الذي لديهم تجربة غير قليلة بمواقفهم وعلاقاتهم المبدئية وعملهم المتفاني والمتواصل بين قطاعات الشعب يستطيعون الحفاظ على مكانة الحزب.

هذا وقد تكون مجموعة اخرى تراودها اسئلة مثل: لماذا نحن الشيوعيين العرب لا نقوم بتشكيل حزب شيوعي عربي؟ باعتقادي هذه المسألة تخصهم قبل الآخرين. فاذا وجدوا وتلمسوا ضرورات تشكيله فنحن شيوعيي كردستان لا نتردد في تأييدهم اذا تم تشكيله على اسس ومبادىء ماركسية وبالاخص موقفهم تجاه الشعوب والاقليات القاطنة معهم.

لذا مهما يكن الامر فان مستقبل تنظيمات الاقليم يجب ان يخضع لقرارات مؤتمر اقليم كردستان، ولكن ليس مؤتمر لاقليم كردستان، على الطريقة الحالية الجارية دون وثائق اساسية خاصة بكردستان وشعبه وتنظيم الحزب الملاحق فيه وحرمان كوادر كثيرة اساسية من المشاركة وعدم طرح أي وثيقة خاصة به على المناقشة العلنية الداخلية أو العامة لحد الآن. . . وهذا المؤتمر يجب ان يكون مؤتمر الصراحة والعلنية والديمقراطية والتغيير. وهو يقر برنامجه ونظامه الداخلي حسب خصوصيات كردستان والاحداث الجارية في العالم. ويحدد نوعية علاقته بالحزب الشيوعي في عربستان العراق بارادة الاغلبية. وفي مشروع البرنامج أيد الحزب فكرة فيدرالية الشعب العربي وشعب كردستان فممكن ممارسة فيدرالية في بناء الحزب كأحد اشكال العلاقة بين الحزبين على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

هذا ومن الضروري ان تعمل قيادة (حشك) فور اعلان الحزب باتجاه التيارات والمنظمات الماركسية في كردستان واجراء حوار ديمقراطي بناء بصدد تشكيل تنظيم أو حزب أو جبهة يسارية كردستانية كتيار فعال في الجبهة الكردستانية الحالية.

وما يتعلق باسم (حشك) وشعاراته فهذه المسألة يجب مناقشتها واجراء التغيير لكي ينسجم مع المرحلة الحالية. ولسنا بصدد ابداء الرأي حولهما في هذه المداخلة.

اخيراً علينا القول ان اشكال التنظيم الحزبي ووسائل العمل بين الجماهير يجب ان تكون متحركة حسب تحرك واختلاف الظروف والمراحل النضالية. والماركسية كمنهج علمي وجدلي تنفي شكل منظمة حزبية واساليب عملها المطلقة في مختلف ظروف النضال، وإنما شكل المنظمة أو الحزب واساليب العمل يتوقف على مهمات وحاجات الشعب وخصائص الوضع الملموس. لذا على قيادة الحزب ان تعالج المسائل المطروحة في الحزب. فبدون معالجة مبدئية وجذرية تصعب القيادة ويستحيل اتخاذ الاجراءات الصحيحة. فالمهمة لا تكمن فقط في تغيير اسم منظمة اقليم الى حزب شيوعي في كردستان العراق فالمسألة اهم من هذا وهي ضمان مساهمة (حشك) اولاً وكذلك اليسار الكردستاني بقسط اكبر ومؤثر في قيادة الحركة التحررية الكردستانية. لذا يجب الابتعاد عن الشكلية واللجوء الى الديمقراطية الاصيلة وليس الوهمية والاستماع الى آراء الرفاق والاستفتاء العام بشأن القضايا المهمة فهذه هي الطريقة الوحيدة لحل المشاكل المعقدة، فالمسائل المعقدة لا يتم حلها برغبات فردية أو مجموعات معزولة وإنما الحزب يعلل ويصوغ فقط ما نضج في الحياة وما تعكسه تطلعات الاغلبية في الحزب والجماهير.

٢/ شباط/ ١٩٩٢

رغم ذلك...
فالعدالة حلم الكادحين

حاتم لطفي

منذ فترة وجيزة دفن التاريخ بدويّ هائل تجربة اشتراكية مغدورة من الابناء والحلفاء والاعداء، وتحوّل البلاشفة الاوائل الذين اقدموا على البدء في محاولة لتبديل عالم الشقاء والمظالم بالحرية والعدالة والمساواة الى رجال منبوذين من بيروقراطيّ الموجة الجديدة.

اصارحكم القول ان اشتراكيي هذا العالم من كل حدب وصوب ربما غمرتهم المرارة مثلي، ليس من روح التجديد والديمقراطية، ولا من ادانة البيروقراطية التي تستند في سيطرتها السياسية الى مواقعها القوية في الاجهزة الحزبية والادارية والنخب المثقفة وليس من اجهزة الدولة الفرعونية المخيفة التي انتصبت بوجه الشغيلة دافعة اياها الى الضياع بعد ان اوصلتها الى اللامبالاة السياسية «واللامسؤولية الجماعية» وليس من تحول طليعتها السياسية المنظمة الى اداة في جهاز الدولة منفذاً «الوصايا العشر» للعجائز المحاطين برياء التملق والمديح الكاذب في القصر الامبراطوري. لم تغمرني المرارة من هذا وذاك بل من الاصوات الهاتفة بسقوط فكر الكادحين وحلمهم «بمدن الشمس» المضيئة بالحرية والعدالة والمساواة ومن فرق العازفين على اهانة الشجاعة التي اقتحمت عالمنا القديم المتخم بالرياء والنفاق وحرب اللصوص، تلك الشجاعة التي عركتها المصاعب والكوارث والمحن وتقاسمت الموت والخراب والامل في الليالي المتجمدة، متصدية لجيوش الغزاة والمتدخلين. وعلى اضواء الديمقراطية وموسيقى الجاز المصاحبة لها، لا بد من كلمة في

الـزمن الـذي اصبح فيه حمل الامانة العادية ضرباً من البطولة والتضحية، وربما تكون الكلمة ساخنة بحرارة الايمان بغدٍ افضل متراصفة مع الراغبين في التجديد وتطوير الكلمة النـاقدة، أو تكون ساخطة خارجة عن حدود اللياقة المألوفة، متعارضة مع اولئك الذين لازالوا يعتقدون ان النجاح يكمن في الحفاظ على المقدسات من اسلحة وكتب وتماثيل، يدفعهم الوهم بان «التجربة الاشتراكية» قتلت بصاعقة من «سماء صافية».

لنختزل التاريخ والوقائع

العودة لسنين الماضي المزدحم بالبنادق والخنادق وحرب النجوم والمعبأ بارود من ينتصـر (على من؟) تسـاعـد في نهاية المطاف على رؤية «دروب الآلام» التي سلكتها الشعوب السوفييتية، والمحاطـة بصراخ الحضارة الغربية المتوحشة والتي ساهمت في نمو وتطور المركزية البيروقراطية في الدولة السوفييتية، والتي يمكن اعتبارها رافداً من روافد انهيار التجـربة المغدورة. فمنذ ان مارست ديمقراطية الغرب المطعونة بأخلاقها سياسة التهديد والتجويع ضد شعوب الامبراطورية الروسية الثائرة متصدية لتطورها المستقل بات واضحاً تسارع النمو المشوه للديمقراطية السياسية التي افضت الى انتهاك حقوق الانسان الذي تصاعد في فترات معينة الى جرائم كبيرة. فلقد اصبح معروفاً ان الثورة البلشفية ومنذ يومها الاول اقرت مشروعي الارض والسلام[1] اللذين ارست بموجبهما سياستها الداخلية المتمثلة بتوطيد الاسس المادية لتطوير اخوة المنتجين، والخارجية بتوقيع معاهدة صلح برست[2] في محاولة منها للخروج من دائرة النزاعات الدولية باعتبارها حرباً لصوصية بين الدول الرأسمالية لاعادة تقسيم العالم. ولذا فليس مستغرباً وعلى ضوء سياسة وطابع الثورة وتوجهاتها ان تعمد قيادة البلاشفة ومن جانب واحد الى تسريح الجيش القيصري الذي تكـون في غالبيته من الفلاحين لاستثمار اراضيهم الجديدة، والاستعاضة عن المؤسسة العسكـرية بالميلشيا الـطوعية لحماية امن البلد الداخلي متوصلة بذلك الى عدم حاجة النـظام الجـديد لجيوش جرارة، على الـرغم من المخاطر الجدية المنتصبة في وجهها والمتمثلة في مسـارعـة الدول الاوربية المتصارعة في الحرب الى تقديم الدعم والعون لجنرالات الجيش القديم لفرض مواصلة الحرب الدامية ضد شغيلة هذا البلد. وتطور هذا الدعم لاحقاً الى حرب سافرة ليس بين «الاخوة الاعداء» وحسب بل ومع جيوش المتدخلين الراغبين في دحر الافكار الجديدة التي شكلت خطراً مميتاً لجميع الاطراف المتنازعة. وبهـذا الصدد لا بد من الاشارة الى ان الامبريالية بدولها المختلفة فرضت، منذ الايام الاولى للثورة، سياسة عدوانية ازاء الدولة البلشفية متوخية بذلك تقويض النهج السلمي

للدولة الفتية من جهة وتحجيم تأثيراتها السياسية من جهة اخرى. وازاء وحشية العدوان وسعة نطاقه ارغمت الثورة الوليدة على الاستعانة بسياسة «شيوعية الحرب»[3] التي جرى على اساسها مصادرة المنتجات الفلاحية بالقوة. وادت هذه السياسة الى استنزاف طاقة الاقتصاد المخرّب اصلاً ناهيك عن اثارتها الشكوك ازاء مصداقية الثورة في موضوعة تحالف شغيلة البلاد. وفي الجانب العسكري اضطرت قيادة البلاشفة الى بناء جيشها الذي تكونت فصائله المسلحة من الاقسام الاساسية للطبقة العاملة خاصة الصناعية منها المجربة في النضالات المتعددة، ومن جراء ذلك حرمت الجماهير الواسعة الغير عمالية من روح الابداع وقوة التنظيم التي امتازت بها هذه الفصائل. وتزامناً مع تأسيس الجيش الاحمر[4] شكلت قيادة الدولة لجنة امن الثورة التي كونت مع المؤسسة العسكرية الدعامة الاساسية للدولة الجديدة حارثة بذلك التربة لنمو النزعة المركزية والاوامرية الرامية الى مواجهة المتدخلين واعداء الثورة.

ولقد واصلت الامبريالية سياسة الحصار الاقتصادي والدبلوماسي والتخريب الداخلي حتى بعد ان دحرت جيوش المحتلين عاملة على تغذية الصراعات الداخلية والتي انتهت بصراع مسلح بين البلاشفة والقوى السياسية الاخرى، خاصة مع الاشتراكيين الثوريين الذين انتقلوا الى مواقع معاداة البلشفية بالسلاح متخلين عن سلاح النقد والحوار[5]. وكانت النتيجة الغاء التعددية السياسية التي اعتمدها القادة الروس كشكل من اشكال الديمقراطية الجديدة. وقد حَرَمَ هذا الواقع الجديد الطبقة العاملة والفلاحين، والمثقفين الثوريين من استثمار الديمقراطية وتطويرها على اساس ايصال ممثليهم الى مجالس السوفييتات التي ابتدعتها الطبقة العاملة الروسية في نضالها كشكل ديمقراطي للحكم يجمع بين السلطة التنفيذية والتشريعية منذ ثورة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧[6]. وبهذا الحرمان بات الطريق سالكاً امام نظرية الحزب الواحد الذي عانى هو الآخر من الاجتهادات الفكرية حول التطور السياسي والاقتصادي اللاحق وماهية الاشتراكية وشكل تطورها في البلد الواحد المهدد بالغزو والعدوان. وقد مهّدت هذه الخلافات الفكرية في نهاية المطاف الى تطور كبير في مفهوم المركزية الديمقراطية وبروز خطر البيروقراطية التي تعززت مواقعها في السنوات التي قامت البلشفية فيها باستخدام الدواوينية القديمة للدولة القيصرية ذات التجربة في هذا الميدان والمؤهلة لقيادة وتسيير اجهزة الدولة المختلفة، بعد ان اتحدت معها اقسام كثيرة من المناضلين القياديين[7] مما ادى الى ان يفقد الحزب في هذه الفترة من تطوره بعض خصائصه القيادية، خاصة عندما اضطر الى تسليم وظيفته كعقل جماعي ديمقراطي الى قيادته والاكتفاء بتنفيذ التوجيهات الصادرة اليه من تلك القيادة والتي اقترنت

بتزايد الميول الفردية ونزعة الزعامة الستالينية التي اصبحت التيار القائد والمتمتع بسلطة كبيرة في قيادة الحزب والدولة. وقد شهدت هذه الفترة، اعتماداً على الجملة الثورية والمشاعر الاقتحامية، محاولة للعودة الى صيغ «شيوعية الحرب» التي استعيض عنها بالسياسة الاقتصادية الجديدة «النيب»[8] بحجة مكافحة التطور الرأسمالي المتنامي في البلد. وبهدف الاسراع بنقل اقتصاد البلد الزراعي المتخلف الى اقتصاد صناعي متطور عمدت قيادة البلد الى مصادرة الاراضي الفلاحية وتحويلها الى مزارع حكومية وتعاونيات جماعية، وأرغمت شغيلة الارض الى الانضمام اليها بالاكراه. فكانت نتائجها آلاف الضحايا الابرياء، ناهيك عن تدني الانتاج. وقد ذكّرت هذه الاجراءات البالغة القسوة والتي مارستها الفرق المرسلة الى الريف السوفييتي تحت ذريعة تكوين «تراكم بدائي» للاشتراكية، ذكّرت بتلك الاجراءات الدموية التي دشنت الرأسمالية الانكليزية عصرها حينما بدأت بتحويل اراضي أمرائها المتبرجزين الى مراعي لتربية الاغنام، فاصلةً المنتجين عن وسائل انتاجهم دافعة اياهم الى المدن ليعيشوا حياة التسول والاجرام. وعلى الرغم من هيمنة التيار الستاليني على الدولة والحزب وتصفيته للعديد من الكوادر اللينينية المجربة خاصة العقول المفكرة المعارضة لنهجه، ونقله الحزب الى صيغة عسكرية ذات ضبط حديدي باعتباره «هيئة اركان» الطبقة العاملة، وتحول السوفييتات التي كانت بحق الشكل الارقى من اشكال الديمقراطية الى اشكال تنظيمية فاقدة لبعض خصائصها القديمة بسبب تغيير نِسَب العضوية فيها لصالح المدراء وموظفي الدولة والعناصر الشيوعية الجديدة التي افتقدت التجربة الديمقراطية السابقة واعتمادها على قوة الحماس واقتحام المصاعب، وتنفيذها الصامت لواجباتها المختلفة، فقد هبَّ كادحو وشغيلة البلاد الواسعة بحماس منقطع النظير مجترحين المعجزات للنهوض باقتصاد وطنهم «الاشتراكي» يلهمهم الامل بغدٍ مشرق وبحياة شريفة ومعهم مثقفو الثورة البلشفية الذين عانوا المرارة وخيبة الامل، مطالبين العالم بالغاء الحصار الاقتصادي على وطنهم والكف عن التدخل في شؤونه الداخلية. وقد اهتز ضمير مثقفي العالم وكادحيه حينما استمعوا الى النداء المدوّي الذي وجهه غوركي والذي تردد في ارجاء العالم: «انتم مع مَنْ يا رجال الثقافة» وتجاوباً مع ذلك النداء هب كادحو العالم الرأسمالي لمساندة الشغيلة الجائعة والمنهكة في البناء بمعونات اقتصادية كبيرة وسادت حركة اضرابية واسعة تضامناً مع ابناء اكتوبر في ظروف عالمية بالغة الخطورة تنذر بوقوع كارثة جديدة، حيث استطاعت الفاشية في ايطاليا ايصال «الدوتشي» الى رئاسة الوزراء، ونهض الرايخ «للثأر المقدس» بعد ان استردت المانيا عافيتها ساحبة وراءها ملايين الالمان المُحزَّبين والمهانين تحت شعارات قومية صاخبة «لصيانة العرق الالماني» وبناء دولة قومية مركزية كبرى تعيد المستعمرات الالمانية

«الاراضي الضرورية لتغذية شعبنا» مدفوعة بوصية الفوهرر بضرورة «مواجهة الماركسية بالعنف» ذلك العنف «الذي يخلق العوالم الجديدة»[9]. وامام هذه الموجة من الرياح العاتية مارست المركزية البيروقراطية في القيادة السوفييتية تصفية اخر معاقل المعارضين داخل الحزب الذي تحول بعدها بحدة الى جهاز منفذ لاوامر النخبة القائدة في الدولة بعد ان اندمج فيها وفقد وظيفته الاجتماعية كمنظم وقائد للجماهير وصار فصيلاً عسكرياً يتسم «بالوحدة الفولاذية» التي كانت في الجوهر خنق الافكار المعارضة والمبدعة. وتحت ستار وحدة الحزب الفكرية والتنظيمية جرت تصفية معارضي التوقيع على «معاهدة عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتي وبين المانيا الفاشية»[10] التي رأوا فيها خدعة تمارسها الاوساط النازية المسندة من رجال الصناعات والبارونات الالمان والمحاطة بملايين عديدة من ابناء الطبقة المتوسطة المهتاجة في محاولة لكسب الوقت بانتظار فرصة سانحة لتوجيه ضربة عسكرية قاتلة للدولة السوفييتية.

وبفضل تضحيات الملايين وعبقرية الكادحين الذين اجترحوا المآثر في القتال ومواقع الانتاج استطاع الاتحاد السوفييتي مواجهة القطعان الفاشية وقيض له ان يصمد مرة اخرى وساهم بقدرته العسكرية والاقتصادية في دحر الفاشية وانقاذ الحضارة الانسانية والعمل سوية مع الدول الغربية في وضع حد للحرب العالمية الثانية التي كلفت الشعب السوفييتي الملايين من القتلى والمعوّقين فضلاً عن تخريب وتدمير الآلاف من مدنهم وقراهم ودمارا في البنية الاقتصادية التي شيدتها جهود الكادحين لتبدأ الاشتراكية بنموذجها الستاليني في مواصلة الحياة حاملة معها تناقضها الداخلي المميت. فمن جهة تطورت المركزية والبيروقراطية بشكل مخيف والتي اصبحت تعني الطوابق المختلفة لاجهزة الدولة المنعزلة اكثر فأكثر عن الجماهير الكادحة والمعتمدة على توصيات «القائد العظيم» الذي غذى روح الغطرسة والتعالي لديها بعد ان اصبح رجل الاممية الاول، ومن جهة اخرى خنقها لأي شكل من اشكال الديمقراطية والشرعية الاشتراكية التي اصبحت تتعارض مع امتيازاتها المكتسبة[11]. وجرى تعليق القوانين الديمقراطية التي سنتها المجالس السوفييتية في المراحل المختلفة نتيجة للصراعات الفكرية السابقة وتغييب الدور السياسي للجماهير التي باتت تشعر اكثر فأكثر باحباط متزايد نتيجة لاقصائها عن النشاط السياسي الفاعل مما دفع البيروقراطية الليبرالية «بعد ذوبان الجليد الخروتشيفي» الى ادانة القيادة الستالينية وعبادة الفرد وجرائم الحقبة الماضية في محاولة منها لاعادة الثقة الى الشغيلة السوفييت واعادة روح النشاط والمساهمة في العمل السلمي الجديد على اساس استثمار العلاقات الدولية الجديدة التي ظهر خلالها الاتحاد السوفييتي كدولة جبارة مستنداً على «المنظومة الاشتراكية» المتخمة هي الاخرى بروح المركزية والسائرة في طريق النموذج الواحد

المفضي الى تجاهل خصائصها الوطنية والقومية والواعد باختناقات اقتصادية سياسية قادمة.

ان تنقية العلاقات الدولية من اجواء عدم الثقة بالاستناد الى سياسة التعايش السلمي والمباراة الاقتصادية التي اقرها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي[١٢] والتي عكست ميلاً موضوعياً لحاجة الاشتراكية لتطوير اقتصادها واعادة بناء ما خربته الحرب، لم يلقَ استجابة كافية من جانب الاوساط المحافظة في البلدان الامبريالية بل بالعكس من ذلك واصلت هذه الاوساط سياسة التدخلات السافرة مرة وحروب وكالة المخابرات المركزية مرة اخرى[١٣] ناهيك عن الاستمرار في نهب خيرات الشعوب المختلفة بوسائل بربرية احياناً وبلغة الحضارة والعلاقات الاقتصادية احياناً اخرى والتي ضمنت في نهاية المطاف لعوالم رأس المال المرونة والاستمرار والتكيف وتكديس الثروات الهائلة لتطوير اقتصادها وصناعتها الحربية مقسمة الادوار والمهام بينها بهدف انتزاع المبادرة من «دولة الشر». وقد ادت سياسة الحصار المستمرة وتصاعد حدة الحرب الباردة والتلويح بالقوة بالاضافة الى السياسة الخروتشوفية المرتجلة الى نجاح البيروقراطية المحافظة على اقصاء العناصر الليبرالية من قيادة الدولة والحزب[١٤] والعودة الى سياسة الجدران الحديدية والابواب الموصدة مرغمة على تطوير ماكنتها العسكرية مشددة بنفس الوقت على تخليها الواضح عن موضوعة حتمية الحرب مع العالم الامبريالي على اساس التوازن النووي الستراتيجي الذي بلغه الطرفان المتناحران وكذلك تأكيدها على تأجيل بناء الاشتراكية في بلدان العالم الثالث، مكتفية بدعم البرجوازيات الحاكمة في هذه البلدان جاهدة على اختراع اردية فكرية تتسم باللامبالاة السياسية ازاء مصائر القوى الديمقراطية واليسارية من خلال التضحية بالديمقراطية السياسية، والاكتفاء ببعض الاصلاحات الاجتماعية المحرزة في العديد من هذه البلدان مشجعة اياها لبناء نموذج سياسي مشوه لدولها اقترن بتشديد المركزية وتطور العسكرة وسيادة الحزب الواحد. ورداً على نهج الاوساط الغربية المتمثل في رفض سياسة التعايش السلمي والاصرار على لغة التهديد والتدخل العسكري ضد شعوب هذه البلدان والتي حاول بعضها ان يشق له طريقاً يتسم بالاعتدال والكرامة الوطنية واصل الاتحاد السوفييتي مساعدته لهذه الدول مندفعاً في مناسبات عديدة الى الخروج عن دائرة دفاعه الوطني ليمد جيوشها بالسلاح والخبراء لصد الغزو والعدوان عنها أو التدخل احياناً في دول نطاقه الامني «المجر جيكوسلوفاكيا وافغانستان» لصيانتها من الثورة المضادة أو لقمع رياح التغيير فيها[١٥].

ان دراسة هذه الوقائع تقود الى استنتاج مفاده ان العالم الامبريالي بديمقراطية البرك الدامية استطاع كسب المعركة الاقتصادية بعد ان دفع عدوه التاريخي الى بناء ترسانة

عسكرية ضخمة على حساب الجوانب الاقتصادية التي تؤدي الى رفاه الكادحين وتطور المباراة السلمية الاقتصادية بين النظامين الاقتصاديين. وبذات الوقت كان هذا الصراع الطويل والمرير احد العوامل الاساسية الذي نمت وتطورت في وسطه بيروقراطية الدولة والحزب الوليدة الشرعية للمركزية الشديدة والتي تميزت بالاوامرية والزجرية وخنق الديمقراطية التي تعتبر الشرط الرئيسي لتطوير الشرعية الاشتراكية وسيادة دولة القانون والعدل.

«لندع كل البراهين المملة»

لقد تركت سياسة دعم الانظمة الوطنية اللاديمقراطية التي انتهجتها البيروقراطية في القيادة السوفييتية اثرها على تطور الاحزاب الثورية والديمقراطية التي الهمتها ليس سمعة القادة التاريخيين وحسب وإنما سمعة الجماهير الكادحة التي قاتلت عارية في الخنادق والمصانع والمزارع حالمة بعالمها الجديد الذي تختفي فيه تقارير المخابرات والمنافي السيبيرية. وقد استطاعت القيادة البيروقراطية المحافظة منها والليبرالية استغلال هذه المشاعر والنجاحات على الرغم من «الانقسام الكبير»[16] للتأثير على هذه الاحزاب وتوجيهها نحو التجربة الواحدة والغاء تنوع الخبرة التاريخية للحركة الثورية العالمية وحصرها في خبرة التجربة الروسية. وادت صيغ التشاور والتعاون في العلاقات الاممية بين القيادات المختلفة للحركة الثورية والديمقراطية لبلدان العالم مع قادة «الشقيق الاكبر» الى تفقيس بيروقراطية من نمط آخر داخل العديد من هذه الاحزاب التي جاهدت من اجل الاقتداء بالتجربة الرائدة وتطورت لديها نزعة التمجيد والتشديد على اهمية تبني الموضوعات النظرية التي انتجتها النخب المثقفة للمحافظين السوفييت والتي كان جوهرها الاغتراب عن الواقع الوطني، حيث جرى رسم السياسات المختلفة للكثير من هذه القوى والحركات على ضوء الفتاوى الصادرة من كهنة الماركسية وحراسها والتي سلبت روح الابداع والاجتهاد من قيادة بعض الاحزاب الثورية والديمقراطية واعاقتها من مواصلة النضال من اجل الديمقراطية السياسية ودولة القانون. ولم يقف التأثير المشوه عند هذا الحد بل حاولت بعض الحركات اليسارية التخلي عن فكرة تنظيم الجماهير وربطها بالعمل السياسي الناشط ودفعها للمطالبة بالحرية وحقوق الانسان ساعية الى الاكتفاء بوحدانية الحزب الحاكم معلّلة ذلك بصيانة الانظمة الوطنية ففاقت الدول الموالية للغرب بالارهاب وكتم الاصوات والانفاس. وعلى صعيد العلاقات الخارجية مع القوى السياسية الاخرى اصطفت اغلبية القوى اليسارية والديمقراطية مع البيروقراطية السوفييتية في صراعها ضد

الاحـزاب اليسـارية الراغبة في التجديد والتأكيد على خصائصها الوطنية رافضين بنفس الـوقت اقـامـة أية علاقـات سياسية مع احـزاب الاشتـراكية الـديمقراطية وقد شدَّد هذا الاصـطفـاف الفكـري على الصعيد الـدولي من فرز سدنـة كبار في العديد من القوى الديمقراطية لصيانة النصوص المقدسة من «تلوث»التطور والابداع الذي لا يليق بعظمة التـاريخ والاسـلاف والابـطال بعـد ان لبس الكثير منهم ازياء المـاضي الزاهية وتدرعوا بمقولاته، وشعاراته، وسيوفه، ومتاريسه. وسارت في طليعة المسيرة الظافرة العائدة الى المـاضي الجليل جوقة القساوسة المتشردين والمعززة بفصائل من قادة التنظيم في الاحزاب المختلفة الذين استغلوا واقع الارهاب الجاثم على الكثير من الاحزاب الثورية وحماسة المناضلين في تنفيذ واجباتهم الحزبية، لتبرير تعطيل الديمقراطية الداخلية لسنوات طويلة فاتحين الابواب لهيمنة المركزية الآمرة التي احاطت نفسها بنظام الطوابق المتعددة وثبات الكادر السـاعي الى نزعة الاحتراف الوظيفي والذي فقد جوهره الثوري وتحوّل الى صيغة للارتزاق مستخدمين شعار «الكادر يحل كل شيء» رافضين الديمقراطية الداخلية وتعدد الآراء والاختلاط مع الكادحين.

فلا غرابة اذن ان تفرز في نهاية المطاف بيروقراطية حزبية في العديد من قيادات هذه الاحزاب والمنظمات تتمتع ببعض الامتيازات التي وفرها بيروقراطيو الدولة الاشتراكية حتى باتت هذه النخب البيروقراطية بمعنى ما جزءامن بيروقراطية الدولة الاشتراكية وذلك عندما تحجـرت برامجهـا وشعـاراتها وتجمدت سياسة المراحل والنماذج الجاهزة المنبعثة من موديلات التطور اللارأسمالي والدولة الديمقراطية الثورية وذات التوجه الاشتراكي في نشاطها.

الهزائم بدلاً من النجاحات

على دويّ مدفعية الـديمقـراطية وحقوق الانسان اطلّت البيروقراطية الليبرالية في القيادة السوفييتية الى العالم برايات التجديد والعلنية التي اكتشفت دفعة واحدة بقدرة «رجل الابتسامة العذبة...»[١٢] وانشد الجميع لحن الحرية الخالد بدفعهم الامل في اعادة القيم المهـدورة، قيم الشـرعية الاشتـراكية والديمقراطية ودولة القانون والعدل والاعتماد على حكمـة المنتجين والكادحين الذين اغرقوا في اللامبالاة السياسية. وسعت البيروقراطية الجـديدة الى التـلاعب بلغة العصر لترسم في البدء سياسة المصالح المشتركة والامن المتبـادل في علاقـاتهـا الـدولية، طارحة هذه المرة شتى الاردية الايديولوجية لاسلافها المحـافظين، متخطية الغام الاممية البروليتارية بشعار الحضارة الانسانية الواحدة، ونبذ

الايديولوجية في العلاقات الدولية والتي على اساسها جرى نبذ محيطها الامني السابق «البلدان الاشتراكية»، وتركها تحت رحمة الاقدار وتوجيه «ركلة» قاتلة للانظمة الوطنية والحليفة لها، وفك الارتباط مع الحركات الديمقراطية واليسارية، تحت واجهة المصالحة الوطنية ساخرة من تضحياتها الجسيمة متخلية بسرعة كبيرة عن سلاحها ومنجزاتها وحضارة شعوبها متوجة الحاجة الموضوعية لاستمرارها بحكم البلاد ليس على اساس تطور الديمقراطية والشرعية الاشتراكية والمحافظة على المنجزات التي ابتدعتها مبادرة الكادحين والمفكرين بل على اساس الامتيازات التي اكتسبتها خلال مسيرتها المجيدة في خدمة جهاز الدولة والحزب وتجلى ذلك في الصراعات المحتدمة بين تيارات البيروقراطية الحاكمة المحافظة منها والراغبة في مواصلة التأكيد على امتيازاتها المتمثلة في قيادتها لاجهزة الدولة الاتحادية المختلفة والطامحة الى التغيير على اساس توطد علاقاتها مع الغرب الامبريالي والابقاء على ديمقراطية شكلية يحترق الجميع فيها، والليبرالية القومية المدعومة من اوساط كبيرة خارج البلاد والطامحة الى اعلاء شأن القومية الروسية التي انهكتها التضحية الاممية المستمرة لصالح القوميات الاخرى[١٩] سواء تلك المتعايشة معها في الدولة الاتحادية أو تلك التي التزمت ازاءها بمعاهدات دولية والتي ادت في نهاية المطاف إلى نفاذ صبر الاوساط المحافظة منها وبإيماءة من سلطة الرئيس التي فقدت هيبتها واصبحت «كضياء نجم بعيد»[٢٠] والى القيام بالمحاولة الانقلابية المعزولة والتي اسفرت عن انتصار لا بد منه للبيروقراطية الليبرالية القومية التي سارعت الى تقاسم التركة الكبيرة لدولة الاتحاد بعد تفكيكها مقيمة على انقاضها بناء سياسياً اقتصادياً جديداً يرتكز على عودة مظفرة للمركزية الشديدة فاتحة الطريق امام حروب الاخوة وشقاء الكادحين ولكن هذه المرة ليس من خلال «العقب الحديدية» والطبول الاممية بل بعلنية صاخبة وشعارات قومية جديدة براقة.

وعلى الضفة الاخرى شرب الغرب نخب الانتصار على «الافكار الخبيثة» ولكن بقلق يتزايد حجمه تغذيه تساؤلات عديدة حول ماهية عالمنا الجديد ومستقبله ودور شعوب عالمنا الثالث المثقل بالديون والعقوبات وحراس مجلس الامن وغطرسة الدركي الاميركي الذي تتصاعد عربدته يوماً بعد آخر، ومظاهر الركود الاقتصادي والبطالة والعنصرية الجديدة التي تقرع شوارع اوربا بشارات هتلرية. وبأفواه فاغرة يتساءل الكثيرون عن دور روسيا التي تطل بعلمها القومي ونشيدها القيصري على الجمهوريات الناشئة:

«وكنا كالزروع شكت محولاً فلما استمطرت مطرت جراداً»

بعد ان دمرت بنيتها الاقتصادية ومحاولاتها السريعة للعودة الى الاشكال الرأسمالية تبدأ رحلة العذابات الطويلة متوهمة بقيادة الثرثارين «والمخمورين»[٢١] خلق امبراطورية

كبيرة تصارع الغرب بنمط رأسمالي متخلف وبشكل سياسي شديد المركزية والبيروقراطية ويتساءل العالم ايضاً عن مصير الشغيلة الروسية التي ايقظت من سباتها العميق مندفعة الى العمل السياسي الناشط والمفتوح على كل الاحتمالات.

وبانتظار «افضل الازمنة»
لتقرع الاجراس وليَتَمَجّد اسم الرب
ثلاثا

١٥/٢/١٩٩٢

الهوامش

(١) في تشرين الثاني ١٩١٧ اقرّ المؤتمر الثاني للسوفييتات مشرُوعي الارض والسلام.

(٢) في بداية عام ١٩١٨ وقعت روسيا السوفييتية معاهدة صلح بريست مع المانيا بشروط مجحفة اذ تعهدت روسيا السوفييتية بموجب هذه الاتفاقية تسليم الطرف الالماني مليون كم٢ من اراضيها يقطنها ٤٦ مليون نسمة وتحويلها الى محميات للامبريالية الالمانية ودفع تعويضات مالية قدرها ٦ مليارات مارك أي ما يعادل ٢,٥ مليار روبل بموجب بروتوكول اضافي والغت روسيا السوفييتية هذه الاتفاقية في نهاية ١٩١٨ بعد اندلاع الثورة البروليتارية في المانيا وهروب القيصر ويلهلم.

(٣) اقرت هذه السياسة تسليم المواد العينية الالزامي لدعم الفصائل المسلحة المتصدية للعدوان واستمرت بين ١٩١٨ - ١٩٢١.

(٤) في ١٥ كانون الثاني ١٩١٨ تأسس الجيش الاحمر من المتطوعين وفي ٢٩ أيار تحول الى التجنيد العام الالزامي للعمال وفقراء الفلاحين.

(٥) ١٩٢١ - ١٩٢٢ تم اتخاذ قرارات حول تقييد العمل السياسي العلني وجرت محاكمة عدة احزاب جراء نشاطها المعادي.

(٦) نشأت السوفييتات ابان الصراع السياسي في روسيا في ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية ١٩٠٥ - ١٩٠٧ وكانت الطبقة العاملة الروسية صاحبة المبادرة في انشائها وحظيت السوفييتات بانتشار واسع في ١٩١٧ بوصفها هيئات ديمقراطية تعبر عن مصالح جميع كادحي روسيا وبعد الثورة الاشتراكية اصبحت نموذجاً لتركيب الدولة.

(٧) يتحدث جون ريد في عشرة ايام هزت العالم عن هذا الاتحاد فالجنرالات والمدراء يخططون وممثلو السلطة السوفييتية يضعون الشرعية بمصادقتهم على تلك القرارات.

(٨) جرى رسم السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) بعد انتهاء الحرب الاهلية ١٩٢١ لغرض تحفيز الفلاحين على الانتاج وتطوير التبادل البضاعي. وقد وقف الى جانب هذه السياسة بوخارين متصدياً للدعوات الى التخلي عنها.

(٩) جان جاك شوفاليه ـ امهات الكتب السياسية ص ٣٥٧ ـ ٣٦٠.

(١٠) في اعوام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ جرت محاكمات موسكو الشهيرة والتي تم خلالها تصفية ما سمي آنذاك «التكتل اليميني التروتسكي المعادي للسوفييت» وكان ضمنهم بوخارين ـ ريكوف ـ زينوفيف مع مجموعة اخرى من العسكريين.

(١١) يقول الكاتب الجيكوسلوفاكي مليتار «ان البيروقراطية ليست طبقة جديدة ولا تتصرف كطبقة جديدة لكن التاريخ يثبت ان الاقسام الكبرى منها يمكن ان تتمسك بالسلطة للدفاع عن مصالحها» نقله ارنست ماندل الى أين يسير الاتحاد السوفيتي في ظل غورباجيف /دار كنعان لدراسات والنشر ١٩٩١ ص ٩٦.

(١٢) في عام ١٩٥٦ انعقد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي حيث حاولت البيروقراطية الليبرالية التي ادانت الفترة الستالينية بعث الشرعية الاشتراكية ويمكن اعتبار هذه المحاولة جزء من ضغط القاعدة الحزبية والعناصر الديمقراطية.

(١٣) حاولت وكالة المخابرات المركزية تخريب لقاء القمة بين خروتشوف وايزنهاور عام ١٩٥٨ حينما ارسلت طائرة تجسسية اسقطت على اراضي الاتحاد السوفييتي.

(١٤) جرت محاولة اولى للاطاحة بخروتشوف في عام ١٩٥٧ من قبل العناصر الستالينية مولوتوف فروتشيلوف ولكنها فشلت بسبب مساندة اللجنة المركزية له وبأغلبية مطلقة ولعب دوراً متميزاً في افشال الحملة المعادية كل من سوسلوف ـ بريجنيف وفي عام ١٩٦٤ جرت الاطاحة بخروتشوف على يد نفس العناصر التي كانت مؤيدة له. انظر ـ نحن والعرب ـ حولية اجتماعية، سياسية وعلمية ـ دار التقدم ـ موسكو ١٩٩٠ ص ٦١.

(١٥) جرى التدخل في المجر عام ١٩٥٦ عندما اندلعت الثورة هناك بقيادة رئيس الوزراء امري ناج، وفي عام ١٩٦٨ تدخلت القوات السوفيتية لقمع ما سمي بربيع براغ بقيادة سكرتير الحزب الشيوعي دوبشيك أما في عام ١٩٧٩ فقد تدخلت القوات السوفيتية لصالح بابراك كرمال الذي تزعم جناحاً في حزب الشعب الافغاني ضد جناح آخر بقيادة حفظ الله أمين.

(١٦) جرى الانقسام الكبير في الحركة الشيوعية العالمية بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي وتطور لاحقاً الى معاداة صارخة بين الصين والاتحاد السوفييتي.

(١٧) «رجل الابتسامة العذبة والاسنان الحديدية» وصف اطلقه اندريه غروميكو على غورباجيف.

(١٨) «البيروقراطية انها اتحاد من الناس قائم على مصالح خاصة بهدف حمايتها والدفاع عنها وهذه المصالح الخاصة تموه بقناع المصالح العامة للدولة» ماركس النص مقتبس من دور بيجيف ـ سركولوف، ديمقراطية أم البيروقراطية حول النظام التمثيلي السوفييتي ـ دار التقدم ١٩٩١ ص ٢٤.

(١٩) في السبعينات تندر الطلاب السوفييت حول المساعدة التي يقدمها الاتحاد السوفييتي للدول المختلفة بما معناه «في الغرب السود يكدحون والبيض يأكلون.. أما عندنا فالبيض يكدحون والسود يأكلون».

(٢٠) هناك دلالات واضحة على علم غورباجوف بالمحاولة الانقلابية منها على سبيل المثال رفض السلطات الروسية علنية محاكمة المتهمين بالمحاولة الانقلابية.

(٢١) وصف اطلقته الصحافة الاميركية على يلتسين.

كربلاء...
والاعداد لثورة العشرين

محمد حسن السلامي

يا من تمـرّس بالـحُـلـيّ وروّضـهـا   فكـان رغـم ضواريـهـا له الـغـلـبُ

محمد سعيد الصكار

لقـد كان تاريخاً فاصلاً ومرحلة دخلها العراق عنوة، بدءاً من يوم ١١ آذار ١٩١٧ بدخول القوات الانكليزية المحتلة بغداد. فكان التاريخ هذا انعطافة جديدة في مسالك متعرجة في مسار التحولات التاريخية للعراق. فان المحتل الجديد كانت له، قبل احتلال بغداد، مستعمرات في الشرق الاقصى ودرّة تاجه لها، امتداداً الى افغانستان في الشرق فضلاً عن مستعمراته في الغرب. فما كانت خبرته المكتسبة عبر تاريخه الاستعماري خلال القرون الماضية ضئيلة في كيفية ايجاد السبل المناسبة لتصريف ومعالجة امور البلد الذي يستحدث احتلاله بما يتوافق مع سياسته الاستعمارية اساساً، بطول نفس ظاهر، وعلى قاعدة المعلومات الاستخبارية الواسعة المتحصلة.

وبالفعل فان العراق الذي وقع تحت كعب الجزمة العسكرية البريطانية «الكافرة» بعد ما كان يئن من سياط الجندرمة التركية «المسلحة» لم يقع تحت نفوذه دون دهاء ومكر اضافة الى سياسة العصا التي يمتاز بها كل المستعمرين خلال القرون الماضية.

فقبل احتلال بغداد كان لقادتهم السياسيين علاقات واتصالات متعددة النشاطات، ومتنوعة الاغراض مع شخصيات من اهالي المدن المختلفة في العراق. بعدما استتب الوضع العسكري في بغداد للمحتلين الجدد بدأ استثمار هذه العلاقات، اذ كفلت رجالات يسيرون شؤون مدنهم بأنفسهم دون التدخل المباشر من قبل القوات البريطانية أو حكامها السياسيين، باعتبار ان ذلك مرحلة انتقالية ليس من السهولة تغييرها اوائل الاحتلال، وهذا ما تؤكده المس بيل:«كانت هذه الطريقة الوحيدة التي امكننا الالتجاء اليها، لان تعيين ضابط بريطاني مع ما يكفيه من الحرس لم يكن ممكناً من الوجهة العسكرية[1]».

كربلاء وادارتها الاهلية:

كان للمدن المقدسة بعض الامتيازات منها اعفاء ابنائها من الخدمة العسكرية. لكن التغييرات التي طرأت على الدستور سنة ١٩٠٨ ومبدأ المساواة الذي كانت تدعو اليه (جمعية الاتحاد والترقّي) تعني الغاء هذه الامتيازات، لكن الادارة التركية استمرت على معاملة هذه المدن بالامتياز السابق بحيث ان الكثير من الهاربين قد التجأوا الى كربلاء. فقرر الاتراك اعادة هؤلاء الفارين الى خدمتهم اولاً وفرض التجنيد على اهالي المدن المقدسة ايضاً. فوقعت اضطرابات شديدة سنة ١٩١٥ مما ادى الى استلام شيوخ البلد زمام الامور الادارية فيها، بعد ان أُخرجت مؤسسات الحكومة من كربلاء، ومن بين هؤلاء الشيوخ محمد علي كمونة وعائلته. وتؤكد المس بيل ان الاخير قد اتصل بالسر برسي كوكس حينما كان في الكويت في ايلول ١٩١٥ وتبادلا الرسائل في شؤون مختلفة منها كيفية تسيير شؤون المدينة اذا تم تنصيبه حاكماً على الولاية[2] نظراً لمخاوفه من عودة الاتراك الى المدن المقدسة وما يقترفونه من فظائع، خاصة ما وقع في الحلة سنة ١٩١٤.
كما ان الشيخ محمد علي كمونة كان ضمن الوفود التي حضرت الى مكتب رئيس الحكام السياسيين البريطانيين. وكان شيوخ عشائر ووجهاء العاصمة ورجال من جميع الطبقات قد وفدوا اليه بعد احتلال بغداد، فتم تخويله بالمحافظة على الامن والاستقرار في كربلاء، كباقي المدن الاخرى التي حضر بعض رجالها.
ان الاستراتيجية والتكتيك العسكري لا يستهوي تمتع العدو المنهزم ببعض عناصر الاستمرار والبقاء على قيد الحياة حتى وان كانت تلك العناصر غير هامة ولا تشكل خطراً يُذكر على القوات المنتصرة بالمفهوم العسكري لذلك نجد ان القوات البريطانية قد اتفقت مع فهد بك شيخ مشايخ آل عنزة لايقاف نقل البضائع عن طريق البادية الى ما تبقى من

القوات التركية في المناطق الفراتية. كما كان ذلك سبباً في تبدل الاحوال وتنحية آل كمونة عن تسيير الشؤون، حيث ان قوافل من السلع والمواد الاخرى تمر من كربلاء نحو العشائر الاخرى المنتشرة في البادية. كما ان السلطات البريطانية اعتبرت ان الشيخ محمد علي يتجاهل مرور هذه القوافل أو يتساهل في ذلك. أما بالنسبة لفخري الدين كمونة فقد اعتبر مشتركاً في هذه الامدادات التي تحتوي على الرز والقمح والاقمشة. فقد تم استدعاء الاخير الى بغداد لمقابلة السربرسي كوكس في ٧ ايلول ١٩١٧ ومنها نفي الى الهند بعدما تجمع لدى الحاكم السياسي البريطاني من معلومات حول هذه المسألة. أما الشيخ محمد علي فقد تم ابلاغه شفهياً بطلب السفر الى بغداد، فلم يستجب بسهولة لذلك بعدما علم ما جرى لاخيه فخري الدين من اعتقال ونفي. غير ان السر برسي كوكس وجه اليه رسالة خاصة اخبره فيها بضرورة ان يحل محله ضابط بريطاني بصفة معاون حاكم سياسي في كربلاء. بعد تشجيع بعض العلماء في كربلاء والنجف سافر الى بغداد، وفي يوم ١٩١٨/٥/١٢ عين الكابتن (براي) معاونا للحاكم السياسي في كربلاء. واسندت الكليدارية فيها الى حميد محمد علي كمونة.

الاستفتاء العام الاول:

لم يكن خاف على السلطات البريطانية المحتلة في مركزها لندن ما يجري من احداث وما يعتمل من افكار لدى الحركات السياسية الوطنية أو الدينية، في مساحة شاسعة دخلت في مرحلة جديدة من تاريخ حافل بالاحداث والتقلبات. فقد بدأ انحسار دور الرجل المريض تركيا فكانت ثورة الشريف حسين مع ابنائه في الحجاز سنة ١٩١٦ ضد الدولة العثمانية ذات اثر هام على جماهير واسعة من المثقفين وغيرهم خاصة وان ضباطاً عراقيين كانوا ضمن ثورته تلك. هذا من جانب ومن جانب ثانٍ برزت الافكار القومية التي اصبحت محفزاً نشطاً ضد هذه الدولة الآفلة. أما ولاتها في العراق فكانوا يسيِّرون ولاياتهم بلا ضوابط دينية أو مذهبية ولا يعبأون بأية قيم اجتماعية محلية مما ترك آثاراً عنيفة ضدهم. وعلى سبيل المثال، في نيسان ١٩١٦ بذل الاتراك جهداً كبيراً في حملة شديدة قاسية لاخضاع اهالي كربلاء، اشاعوا بان فخري الدين كمونة قد قد حرض بعض القبائل لمساعدة اهالي كربلاء ضد عشيرة بني حسن التي بدورها قامت بهجومات ضد البلدة ولا يبدو ذلك بعيداً عن ايادي وتشجيع السلطات التركية ذاتها لهم. اثر ذلك طوق الاتراك دار فخري الدين واعتقلوه فثارت ثائرة المدينة، واصطدم الجمعان بعنف كما استخدم الاتراك مدافعهم ضد بيوت واهالي كربلاء، فأصابت المدافع حتى العتبات المقدسة فيها. غير ان

نتائج المعركة لم تكن إلا لصالح اهالي كربلاء، فتأسست ادارة خاصة يديرها آل كمونة. وقبل ذلك كانت المدينة سنة ١٨٤٢ قد شهدت واقعة نجيب باشا الذي دخل بحصانه الى الحرم الحسيني بعد معارك فازت بها القوات التركية[٣].

كل هذه العوامل مع غيرها ما كانت خافية على المخابرات البريطانية بل ان تقارير رجالها وزياراتهم للعراق قبل الاحتلال يمكن ان تؤخذ على اساس تمهيد الجو السياسي لدخول القوات البريطانية العراق.

بعدما سيطرت القوات الغازية وتم تعيين حكام سياسيين للمدن اوعزت السلطات البريطانية في لندن الى وكيل الحاكم الملكي العام في بغداد باجراء استفتاء عام من اسئلة محددة هي:

١ ـ هل يفضل العراقيون تأسيس دولة عربية واحدة تستهدي بارشادات بريطانيا وتمتد حدودها من حدود ولاية الموصل في الشمال الى الخليج؟.

٢ ـ وفي هذه الحالة، هل يرون ان الدولة الجديدة يجب ان يكون على رأسها امير عربي؟

٣ ـ واذا كان الامر كذلك، فمن هو الذي يفضلون نصبه رئيساً للدولة؟.

هكذا نجد ان الاسئلة المستفتى عنها تمّ صياغتها عن الدور الاساسي الموكول للحكومة القادمة. فالخديعة ظاهرة من الاسئلة حينما تتحدث عن دولة عربية واحدة، رئيسها عربي، من الذي يفضل ان يكون هذا الرئيس؟بين طيات هذه العناصر التي تستجيب للحس الوطني والقومي تم تسريب «تستهدي بارشادات بريطانية».

اوعز ارنولد ويلسن وكيل الحاكم العام للحكام السياسيين البريطانيين في المدن بتوجيه اجوبة الاستفتاء حسبمايتناسب مع عدم الالتزام بتشكيل حكومة وطنية عراقية.

ويبدو ان ذلك لم يكن خافياً على بعض العناصر الوطنية والدينية في بغداد وكربلاء، ففي الكاظمية قدمت مضبطة (عريضة) الى السلطات البريطانية هذا نصها:

باسم الله الرحمن الرحيم

بناءً على الحرية التي منحتنا اياها الدول العظمى. وفي مقدمتها الدولتان الفخيمتان انكلترا وفرنسة. وحيث اننا ممثلو جمهور كبير من الامة العربية العراقية المسلمة فاننا نطلب ان تكون للعراق الممتدة اراضيه من شمال الموصل الى الخليج حكومة عربية اسلامية يرأسها ملك عربي مسلم هو احد انجال الملك حسين. على ان يكون مقيداً بمجلس تشريعي وطني. والله ولي التوفيق.

حرر يوم الاربعاء ربيع الثاني ١٣٣٧ التواقيع: محمد مهدي الصدر. الشيخ ابراهيم السلماني. الشيخ مهدي الخالصي. عبد الحسين آل الشيخ ياسين. احمد آل

السيد حيدر. السيد حسن الصدر. وتواقيع كثيرة اخرى بحيث يكون المجموع ١٤٣ توقيعاً (مضبطة الكاظمية رقم ٨ الكاظمية)[٤].

الى جانب الوعي الوطني الذي يتجلى في رفض الاحتلال، فقد تعاضد معه العامل الديني الذي كان عنصراً توحيدياً لفئات عديدة تكاتفت في مظاهرات وتجمعات في جامع الحيدر خانه والكاظمية مما جعل الاستفتاء يتعرقل بشدة.

أما في كربلاء فان المس بيل تشكل الصورة عنها بـوضوح حين تقول «ان المجتهدين في كربلاء والكاظمية حرموا على المسلمين ان يصوتوا لغير تشكيل حكومة اسلامية، فبلغ الاختلاف حداً اوقف سير الاستفتاء. فما هي حكاية هذه العرقلة ومن الذي اوقفه؟

لقد كان هنالك بعض التمايز بين موقف علماء النجف وعلماء كربلاء أو الكاظمية في مسألة الاستفتاء، اذ ان كبير علماء كربلاء كان من المتشددين ازاء الاحتلال البريطاني والاستفتاء الذي اراده المحتلون لتنفيذ مخططاتهم الاستعمارية، هو العلامة محمد تقي الشيرازي كبير علماء ومجتهدي كربلاء آنذاك. وقد انتقلت اليه المرجعية الدينية بعد وفاة العلامة محمد كاظم اليزدي في تلك الآونة كما ان التقارير التي تتحدث عن العلامة محمد تقي الشيرازي لا تفصل مواقفه وحركاته عن ابنه، الوطني الثائر محمد رضا الشيرازي. فقد افتى والده فتواه التي كانت بحد ذاتها ثورة ضد المحتل، وهذا نصها:

باسم الله الرحمن الرحيم

ليس لاحد من المسلمين ان ينتخب أو يختار غير المسلم للامارة والسلطنة على المسلمين.

٢٠ ربيع الثاني ١٣٣٧

الاحقر

محمد تقي الحائري الشيرازي[٥]

تقول المس بيل عن هذه الفتوى: «فقد اصدر العالم الاكبر في البلدة فتوى بتكفير أي شخص يرغب في تشكيل حكومة غير مسلمة»[٦]. هكذا تم ايقاف مخططات استعمارية عبر هذا الاستفتاء خاصة في كربلاء ذاتها والكاظمية، أما النجف فقد جرى الاستفتاء وأصبحت نتائجه قطعية.

احدث اصدار هذه الفتوى ثم توزيعها بنطاق واسع على العشائر والاهالي في المدن اثـرا كبيرا جداً اربـك السلطات المحتلة. وبهـذا اصبحت كربـلاء قطب الـرحى في الاستقطاب المتصاعد ضد الانكليز مما اضطرهم الى سحب بعض موظفيهم وعناصرهم الهـامين من كربـلاء خاصة وانه في خريف ١٩١٩ اكتشفت عملية كانت مخططة لقتل ضباط بريطانيين مع موظفيهم. وقد ادى ذلك الى اعتقال رجال من الاهالي في كربلاء.

فطلب العلامة الشيرازي اطلاق سراحهم بكفالته الشخصية. كان اطلاق سراحهم مشجعاً على الاستمرار في مخططاتهم الاولى، فزاد الوضع تأزماً داخل كربلاء، وتقدم العلامة الشيرازي بفتوى جديدة حرمت الادارة البريطانية من الحصول على موظفين عراقيين يساهمون في تسيير شؤون عامة في البلديات، فان الفتوى «تحرم توظف المسلمين في الادارة البريطانية»، كان ذلك في اوائل آذار ١٩٢٠ فبدأت الاستقالات تزداد من الادارات الحكومية.

ممهدات الثورة:

في هذه الاثناء وبعدما عين الملك عبدالله ملكاً على العراق وهو في دمشق يوم ٩ آذار، طُلب الى شيوخ قبائل الفرات ان توقع عريضة تدعو الملك للقدوم لتسلم مملكته العراقية. يتحدث المؤرخون عن ان هذه العريضة قد تم التوقيع عليها وارسالها من الشامية، عندها وجدت القبائل واهالي المدن بين يديها رسائل تم توزيعها بشكل واسع. وهي كالتالي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد فان اخوانكم في بغداد والكاظمية وكربلاء والنجف، وغيرها من انحاء العراق، قد اتفقوا فيما بينهم على الاجتماع والقيام بمظاهرات سلمية، وقد قامت جماعة كبيرة بتلك التظاهرات، مع المحافظة على الامن طالبين حقوقهم المشروعة المنتجة لاستقلال العراق ان شاء الله بحكومة اسلامية، وذلك بان يرسل كل قطر أو ناحية الى عاصمة العراق وفداً للمطالبة بحقه، متفقاً مع الذين سيتوجهون من انحاء العراق عن قريب الى بغداد. فالواجب عليكم بل على المسلمين الاتفاق مع اخوانكم على هذا المبدأ الشريف، واياكم والاخلال بالامن والتخالف والتشاجر بعضكم مع بعض، فان ذلك مضرّ بمقاصدكم ومضيع لحقوقكم التي صار الآن اوان حصولها بأيديكم، واوصيكم بالمحافظة على جميع الملل والنحل التي في بلادكم في نفوسهم، واموالهم، واعراضهم. ولا تنالوا احداً منهم بسوء ابداً، وفقكم الله جميعاً لما يرضيه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كربلاء ١٩/ ١٠/ رمضان/ ١٣٣٨

الاحقر

محمد تقي الحائري الشيرازي[٧]

يتفق الكثير من الباحثين على ان عمليات الثورة لم تكن وليدة ردود فعل لاحداث اعقبها هذا اللهيب الذي امتد الى كل العراق بعدما قدح زناده في الفرات الاوسط. بل من

الثابت انه كان يوجد تخطيط واتفاق سابق لتصعيد اللهيب والصراع الى الحد الذي يثير الثورة على امتداد واسع. فرسالة الشيخ الشيرازي تم تلبيتها من قبل اهالي المدن بان اوكلت عنها بعض وجهائها للسفر الى بغداد والقيام بالتظاهرات مع ارسال العرائض معهم بتواقيع عديدة.

العلاقة مع بغداد:

عقد في جامع الحيدر خانه التجمع الكبير يوم ٢٤ أيار ١٩٢٠ والقى القبض على احد المشاركين في اليوم التالي، مما ادى الى اضراب عام والقيام بتظاهرات كبيرة في بغداد. واوكلت هذه المظاهرة لبعض الشخصيات الوطنية والدينية تمثيلهم امام الحاكم الملكي العام وفي يوم ٢ حزيران الموافق لـ ١٤ رمضان تم عقد الاجتماع من ٢٠ شخصية من بينهم محمد جعفر ابو التمن، السيد ابو القاسم الكاشاني، السيد محمد الصدر، يوسف السويدي، فؤاد والد فندي، سعيد النقشبندي، رفعت الجادرجي... وغيرهم. فسلم السيد يوسف السويدي عريضة تتضمن المطاليب التالية: اولاً: الاسراع في تأليف مؤتمر يمثل الامة العراقية لتعيين مصيرها. فيقرر شكل ادارتها في الداخل ونوع علاقاتها في الخارج. ثانياً: منح الحرية للمطبوعات، ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغباته وافكاره. ثالثاً: رفع الحواجز الموضوعة في طريق البريد والبرق، بين انحاء القطر اولاً، وبينه وبين الاقطار المجاورة له والممالك الاخرى ثانياً... الخ[8].

وهكذا تصاعد الحماس والشعور الوطني المعادي للاحتلال، خاصة بعد ان اصبحت المرجعية الدينية للعلامة محمد تقي الشيرازي. ولا بد ان نذكر ايضاً ان ابنه الشيخ محمد رضا كان من الحماس والروح الوطنية التي ساهمت في هذا الاحتدام. لكن المراجع الغربية وتقاريرها تسيء التقدير عندما تعتبر ان الشيخ محمد تقي من الكبر والشيخوخة بحيث ان ابنه هو الذي يوجهه. فهي تلغي ذلك العداء المستحكم للاحتلال البريطاني من قبل العلماء والوطنيين لدوافع دينية أو سياسية... فما بال هذه التقارير لم تذكر رسالة وصلت في يوم من ايام رمضان من العلامة الشيرازي الى الزعيم الوطني جعفر ابو التمن تقول: «... فسّرنا اتحاد كلمة الامة البغدادية، واندفاع علمائها، ووجوهها، واعيانها، الى المطالبة بحقوق الامة المشروعة...»[9] فبعد قراءة هذه الرسالة في الآلاف المؤلفة من المجتمعين في صحن الكاظمية بادر في اليوم التالي رؤساء الطوائف المسيحية واليهودية، وعلى رأسهم البطاركة، والقسس والرهبان والحاخاميون، لمقابلة علماء الكاظمية، واعلنوا تأييدهم.

كما تشير الرسائل التالية الى ان الثورة يتم الاعداد لها حثيثاً:

١ ـ تعدد النسخ للرسائل الخاصة بالمجتهد الشيرازي التي كانت تصل الى العشائر والمدن بتوقيعه رغم الزعم البريطاني بان تواقيعه عليها مزوّرة مع انه لم يتنصل منها.

٢ ـ زيارة كربلاء من قبل رؤساء وشيوخ العشائر ايام عيد الفطر الذي صادف منتصف حزيران.

٣ ـ التنقلات الخاصة للسيد عبد المهدي المنتفكي (الناصرية) الى بغداد واجتماعه بالشيخ مهدي الخالصي ثم اتصاله بمبعوثين من النجف وزعماء في الشامية وابي صخير. ثم سفره الى الناصرية ليفاتح العشائر هناك بالثورة.

٤ ـ اجتماع الشيخ رحوم الظالمي بجمع من رؤساء العشائر وتسليمهم فتوى الامام الشيرازي ومن بينهم المرحومان شعلان ابو الجولان وغثيث الحرجان في الشوملي.

مما يجد ذكره هنا ان هذه الاتصالات والتحركات واصدار الفتاوى لم تكن بدافع ديني بحت اذ ان الحماس الوطني كان متقداً ليس في بغداد والكاظمية فحسب، بل في نفس كربلاء ايضاً حيث ان نجل الشيخ محمد تقي الشيرازي لم يكن من المكانة الدينية بمرتبة الاجتهاد بل ان فكره المعادي للاحتلال والمتفتح على الحركة الثورية في العالم كما يبدو كان احد الدوافع لهذا العداء المتواصل الذي لم يكل يوماً. و تتناول التقارير البريطانية هذه المسألة ومنها يمكن الاستنتاج من نفس سيرة هذه الشخصية بعض المميزات الهامة ومنها:

١ ـ انه من المعادين للاحتلال البريطاني بفعالية مؤثرة.

٢ ـ انه ذو تأثير كبير على الوضع السياسي من خلال علاقاته بالقبائل والوجوه الوطنية، مع توفر عامل هام كونه نجل العلامة المرجع الاعلى.

٣ ـ هنالك زعم بريطاني بكون الشيخ محمد رضا الشيرازي له علاقة بالبلاشفة وان تحركاته لاثارة الثورة وايقاف الاستفتاء كانت بتدبير بلشفي فأوقف سنة ١٩١٩ بتهمة اثارة القلاقل غير ان والده قد كفله فأطلق سراحه، وفي ٢٢ حزيران ١٩٢٠. اوقف ثانية مع تسعة آخرين. كما تذكر التقارير ان برقية صادرة من «رشت» عن السلطات الروسية (البلشفية) تذكر «انه كان يشتغل للدعوة البلشفية في كربلاء»[١١].

٤ ـ ومما زاد الوضع تفجراً في كربلاء اعتقاله قبل يوم من الانفجار الكبير أي يوم ٢٩ حزيران. الى هذا يضاف اعتقال الحاج مخيف... في الديوانية فقد كان من المعتقد لدى السلطات البريطانية ان ذلك سيؤدي الى نزع الفتيل وابعاد شرارة الثورة، والذي حصل العكس ان الشرارة بذلك قد قدح زنادها.

لذلك واجهت السلطات البريطانية حالة جديدة من الاعمال أو العمليات التي

توسعت مساحةًوتعمقت تأثيراً يوماً بعد آخر. فان احد القطارات يتم اخراجه عن سكته في اوائل أيار وفي اوائل حزيران اخرج قطاران عن سككهما على مقربة من الحلة، ثم اخذ الموظفون العراقيون يستقيلون من الادارات البريطانية بعدما اصدر العلامة الشيرازي فتواه المذكورة. وازدادت صعوبة جباية الضرائب عن الحاصلات الشتوية، وفي الشطرة (من لواء الناصرية) الذي كان يسمى المنتفك أُبلغ الكابتن (ميد) معاون الحاكم العسكري فيها في ١٧ ايار بانه سيواجه بالعنف اذا استمر بقياس الاراضي الزراعية. ثم ان الحلة قد عاشت حالة توتر باعتقال ستة من رجالها، اضافة الى اعتقال وتهجير الشيخ محمد رضا الشيرازي مع تسعة من زملائه الى جزيرة (هنجام).

أما ممثل السلطات البريطانية في كربلاء محمد خان بهادر فانه كان في وضع صعب جداً وانسحب من كربلاء، ثم قطعت مياه نهر الحسينية الذي يسقي المدينة، ويعترف وكيل الحاكم العام ان قطع المياه لم يُغير مسار الاحداث بأي شيء وبالعكس زاد في إلهاب الاحداث وازمها اكثر مما هي عليه، كما انه يشير ان المطبعة «في كربلاء كانت مسخرة لهم على الدوام لتخرج صفحات طويلة عريضة من المنشورات والمطبوعات التي كانت تنشر ببراعة وتفنن.

هكذا كانت كربلاء المحرك والمفجر للثورة العارمة التي اجتاحت العراق والتي هزت الكيان البريطاني فيه قبل ان تتثبت اقدامه على ارض العراق. فلم تمض بعد ثلاث سنوات على احتلاله لبغداد. فأخذ يعيد جرد حساباته وخططه السياسية والعسكرية التي يريد تنفيذها على الشعب العراقي، فكانت هذه الثورة الصعقة الكهربائية التي افهمت المستعمر الجديد مقدار وقوة الشحنات الثورية التي يتمتع بها شعبنا فيقف خلف الكواليس السياسية باسم «الحكم الوطني» والذي استمر حتى ثورة شعبنا في ١٤ تموز ١٩٥٨ الخالدة.

كوتنكن - المانيا

الهوامش

* تمت كتابة هذه المقالة استناداً الى موسوعة العتبات المقدسة المتكونة من ١٢ جزءاً تأليف جعفر الخليلي.

(١) المس غيرترود بيل مستشرقة ورحالة بريطانية، ثم اصبحت سكرتيرة دار الاعتماد البريطاني في بغداد. تقرير قدمته الى البرلمان البريطاني. ترجمه الاستاذ جعفر الخياط بعنوان: «فصول من تاريخ العراق القريب» بيروت ١٩٤٩: نقلاً عن «كربلاء في المراجع الغربية» الموسوعة - ج ٨، ص ٣٢٥.

(٢) المصدر السابق ص ٣٢٢.
(٣) المصدر السابق ص ٣٣٥.
(٤) الكاظمية في المراجع العربية (جعفر الخياط) الموسوعة ج ٩ ص ٢٨٥.
(٥) الكاظمية في المراجع الغربية (جعفر الخياط) الموسوعة ج ٩ ص ٢٨٢.
(٦) تقرير الحكم الذاتي في العراق «ترجمة جعفر الخياط» الموسوعة ج ٨ ص ٣٣٧.
(٧) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية نقلاً عن الكاظمية في المراجع الغربية (جعفر الخياط) الموسوعة ج ٩ ص ٢٨٨.
(٨) الحقائق الناصعة نقلاً عن الكاظمية في المراجع الغربية حسين علي محفوظ الموسوعة ج ٩ ص ١٤٩
(٩) الحقائق الناصعة ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٣ نقلاً عن الكاظمية في المراجع العربية حسين علي محفوظ موسوعة العتبات المقدسة ج ٩ ص ١٥٢.
(١٠) كربلاء في المراجع الغربية ص ٣٤٢ نقلاً عن موسوعة العتبات المقدسة ج ٨.

في أعدادنا القادمة

تعقيب .... شيخ سعيد
تعقيب على تعقيب .... عبد اللطيف السعدي
مساهمة في حوار تجديد الحزب .... د. كاظم حبيب
الصابئة و«اشكالية التسمية» .... سنان بن ثابت
قراءة في محضر اجتماع طارق عزيز مع بيكر .... هوشنك الوزيري
حوار مع عبد الرزاق الصافي .... هوشنك الوزيري
ازمة الحضارة .... د. فيصل السامر
الآراميون والسريان .... ثائر الصابر
القوة القانونية لقرارات مجلس الامن .... د. احمد الموسوي
مساهمة في النقاش .... حيان

١ - ادب السلوك الصوفي - ادب الروح

د ميثم الجنابي

«يا بني اجعل عملك ملحاً وادبك دقيقاً»

رويم

أبدعت الصوفية في عمها وعملها شأن كل اتجاهات الابداع الانساني الكبرى كيانها الخاص. ومن الممكن مقارنة التصوف بمدارس الفكر أو احزاب السياسة، إلا ان هذه المقارنة تبدأ في الوعي وتنتهي في تأملاته. والتعقيد الملازم لهذه «المقارنة السيئة» لا يقوم فقط في استحالة المطابقة فيما بين نماذج متباينة في صيرورتها وديمومتها بل وجدوى الجهود المضنية لحصر قوة وجاذبية الفراسة الروحية في مقولات التحليل الباردة وقواعد المنطق الشكلية. وليس من قبيل الصدفة ان ينصح الجُنيد (ت-٢٩٧ هـ) اتباعه واصحابه قائلاً: «اذا لقيت الفقير فالقه بالرفق ولا تلقه بالعلم. فان الرفق يؤنسه والعلم يوحشه». وليس سوى الذهنية الخرقاء هي التي بامكانها ان تخترع لهذه الفكرة العميقة تفاهة التأويل القائل بمعاداة العلم!!. فهو لم يضع العلم والرفق على طرفي نقيض بقدر ما انه طالب بأولية الرفق في الملاقاة. وبهذا يكون قد ذوّب العلم في العمل أو جعل من الممارسة «الرفق» الاسلوب الايجابي لاستيعاب حقائق العلم. وبهذا يكون قد عبّر عن احد نماذج الادب السلوكي دون ان يعرض قواعده على المرء.

وهنا يجدر القول انه من الصعب تناول جميع آراء المتصوفة للبرهنة على نموذجها المتميز في نظراتها ومواقفها من ادب السلوك. فالمتصوفة تشترك ايضاً في تباينها. اذ ان الفرق الصوفية العديدة ومدارسها الفكرية التي وضع كل منها مبادىء اولية باعتبارها درجات واسس ضرورية للسير في «الطريق» لا تمثل في جوهرها إلا صيغاً لبلوغ الهدف المشترك فيما بينها أي الفناء في الحق.

بصيغة اخرى، ان تباين الطرق الصوفية في سيرها يقوم في افتراض كل منها كون المبادىء الاولية لطريقته هي الاسهل والادق لتربية المريد في بلوغ ما اسمته بدرجات التوحيد. وقد تفننت الصوفية في اكتشاف سبل «الطريق». فالنقشبندية على سبيل المثال بنت طريقتها على «التعرض والقاء الجذبة المقدمة على السلوك». فطريقها يتضمن مبادىء اتباع السنة ومبدأ الجذب المقدم على السلوك في حين ان بقية الطريق تقوم في تقديم السلوك على الجذب. ولهذا قالوا: بداية الطريقة النقشبندية نهاية الطرق. وهناك من جعل العكس هو اسلوب التربية الصوفية. وليس هنا من تناقض. فالمتصوفة لم تبحث في ذلك عن اساس نظري لقناعاتها أو تنظير تأملي أو عقلاني لاطروحاتها وممارساتها. لقد حاول كل منهم اكتشاف حقائق اللانهاية. وهذا ما يمكننا العثور عليه في كل تجليات ابداعهم الفكري والعملي.

لقد مثلت المتصوفة في آدابها وحدة التنوع وعكست في امتثالها الوحدة حقائق الكل. إلا ان هذه الصيغة المجردة هي التعبير الحي عن النهائي. أي عن تلك الديناميكية المتناقضة التي تفترض في كل خطوةٍ حدوداً منفية. وهذا ما جعلها تنظر الى ادبها باعتباره ادب الوقت. فهي لم تبحث عن اسس لذلك فيّ معايير المصلحة والقوة بل في ديمومة الروح الاخلاقي. أي اننا نستطيع الحديث في آن واحد عن مستويين في ادب السلوك - الثقافي - التاريخي والروحي - الادبي في قيمه «الخالدة».

ان تحليل هذه القضية سوف يضعنا بالضرورة امام احدى المعضلات الجوهرية التي يفرضها منطق الفكر في التعامل مع قضاياه وواقعيتها في تناقض التطور الاجتما - حضاري والكينونة الثقافية للامم.

فالامم تبدع قواعد سلوكها لا لفرط اعجابها بقواعد السلوك بل لتحديد حدودها الممكنة. فالوجود يفترض اللانهاية، إلا انه لا يتكامل إلا في النهائي. أو على الاقل انها تشكل على الدوام اسلوب وجوده الضروري (الواقعي). واذا شئنا ان نطبق هذه الصيغة الصورية لابداع الخيال المقارن، فاننا نستطيع ان نستشف نفس الوحدة المتناقضة بين النهائي (التاريخي - الثقافي) واللانهائي (الروحي - المطلق) في ادب السلوك الصوفي. وهذا ما جعل من تراث المتصوفة في هذا الميدان ايضاً معيناً لا ينضب لوعي الذات

الاخلاقي وتساميه المعرفي.

فقد استمدت المتصوفة في منطلقاتها الاولية بل وفي الكثير من حوافز وعيها الاخلاقي ـ السلوكي الاولي من قيم اسلام الدعوة والرسالة. أي من ذلك الرصيد الذي لم تشوهه بعد مهارة الجدل ومكر السياسة ومصالح السلطة. وقد وجد ذلك انعكاسه ليس في مبدأ التصوف الاول ـ الزهد بل وفي نزع الارادة الظاهرية من خلال صياغة مبدأ الارادة المجردة أو الكيان اللامرئي الذي يتحكم في كل ما هو موجود. أو هو ذاته الرجوع الى المبادىء الاولى في ادراك حقيقة الوجود ومعنى الفعل (الانساني).

واذا كانت هذه المحاولات الاولى قد سارت في ادب السلوك الاسلامي التقليدي أو السني أو المتعارف عليه أو المثال الارقى فلأنه الاسلوب الواقعي الممكن لظهور وتبلور المجرّد (الحقيقي). فقد سلكت المتصوفة الاولى في سلوكها اسلوب ما ينبغي، إلا انها لم تنظر اليه نظرتها الى غاية نهائية. وحتى حال غياب تجزء الغاية والوسيلة كقيم وكيانات قائمة بحد ذاتها في منظوماتها اللاحقة فانها لم تعترف ان جاز التعبير إلا بشرعية النفي الاخلاقي. وفي هذه العملية الدائبة والمتناقضة تبلورت تقاليد ادب الروح الصوفي.

فالتصورات الشائعة عن ادب التصوف وقواعد سلوكه تتضمن ان امكن القول عناصر متكافئة في خطئها وسطحيتها سواء ايدت أو عارضت، مدحت أو ذمت، اقبلت عليه أو ادبرت عنه. والقضية هنا ليست فقط في ان التصوف «بحر مغرق وقفت على ساحله الانبياء» بل وفي تلك الميوعة المرنة التي لا يمكن الامساك بها إلا من خلال رمي قيود النفس. أي انها تستلزم الذوبان كلياً في بحرها كذرات من املاحه. اذ ان لمس حقائق التصوف تستلزم تذليل شعورية اللمس. والملموس في عرف التصوف هو كل ما لا يمكن للكلمات ان تعبر عنه. اذ ليس الوعي السائد سوى وعي المقارنة الشرطية، لا ادراك حقائق الاشياء كما هي. ولهذا صاغوا مبدأ الوجود (والايجاد) في السير والفناء في التوحيد. أي بلوغ تلك الحالة التي تنقشع فيها قواعد الجهل «المعرفي»، وفي ميدان السلوك تلك الحالة التي تصبح فيها قواعد التصوف «المجرد» خلفية واسلوب وباعث الممارسة الحياتية في سعيها نحو المطلق.

غير ان هذه الحصيلة النظرية في تاريخيتها كانت نتاجاً معقداً لتفاعل وتداخل التاريخي والوجداني ـ المنطقي الذي بحث عن تآلف له في منظومة فريدة في عالم الاسلام. فأدب السلوك الصوفي بهذا المعنى هو نتاج لعالم الاسلام وهو في الوقت نفسه نفي لادب العوام وديانات الامم. انه الممثل النخبوي لقواعد الحق (المطلق) في السلوك. وقد حدد ذلك ديناميكيته الداخلية وتسامحه الرفيع وقدرته على التأقلم ومرونته اللامتناهية وانسانيته العميقة. إلا انه فسح المجال ايضاً واعطى مبررات مهاجمته الدائمة

بفعل نخبويته المتسامية. فمن السهولة ادانة المتصوفة لانه من الصعوبة بلوغ مستواهم. ومن السهولة تفنيد حقائقهم لانه من الصعوبة فهمها. وقد ادركت المتصوفة اكثر من غيرها آنذاك حقائق هذا الواقع المتناقض. إلا انها لم تسع في ادراكها له لتم كسراته ولا تبرير تناقضاته بل وضع الامور كل في نصابها باعتبارها «سنّة» الوجود. وهي بذلك لم «تنظر» لهرمية التعالي، بل لهرمية التسامي ولكن في وحدة الكل. وهذا ما يمكننا العثور عليه في استيعابها الخاص لعلاقة ادب تربيتها وسلوكها بآداب الاسلام.

فقد صاغت المتصوفة آدابها بالطريقة التي رأت فيها نموذج الحقيقة الناصعة لروح الاسلام. أي انها طابقت سعيها التربوي وقواعد سلوكها بالصيغة التي تتجاوب فيها تعاليم الاسلام وقيمه مع ثلاثية العلم والحال والعمل. ولهذا انطلق سراج الدين الطوسي (ت ـ ٣٧٨ هـ) في استعراض مقدمات الادب الصوفي من الآية القرآنية «يا ايها الذين آمنوا قُوا انفسكم واهلكم ناراً» معتبراً اياها تحذيراً ووصاية بضرورة التربية والادب والتعلم من اجل وقايتهم. وهذا ما ينطبق على استعماله لآراء ابن سيرين والحسن البصري (ت ـ ١٩٠ هـ). فقد استشهد بكلمات الاول القائلة بان افضل الآداب واقرب الى الله هي معرفة بربوبيته وعمل بطاعته والحمد على السراء والصبر على الضراء، وكلمات الثاني القائلة: انفع الآداب واجلها التفقه في الدين فانه يصرف اليه قلوب المتعلمين؛ والزهد في الدنيا فانه يقربك من رب العالمين؛ والمعرفة بما لله عليك يحويها كمال الايمان[1]. أي انه ابرز في تقاليد الادب الاسلامي سواء في آيات كتابه وأقوال اتباعه وحدة المعرفة والعمل (ابن سيرين) والتفقه والزهد والمعرفة (الحسن البصري). وسوف تنصاع التقاليد الكتبية للمتصوفة لهذا المسار. إلا ان كلًا منها سيضع آياته واحاديثه التي تعكس، في طريقة تأويلها وكيفية ادماجها في المبادىء العامة عن حد الادب، تطور التصورات الصوفية واسلوب صياغتها للاسس النظرية الكبرى أو بصورة ادق تعمق التجارب الفردية وكيفية تعميمها. فاذا اكتفى القشيري (ت ـ ٤٦٥ هـ) بالاستناد الى الآية «ما زاغ البصر وما طغى» باعتبارها التمثيل الاعمق لحفظ آداب الحضرة الآلهية[2] وبالحديث النبوي «ادبني ربي فأحسن تأديبي» فان السهروردي (ت ـ ٦٣٢ هـ) قد استفاض في تأويلاته الى الدرجة التي يضع فيها الآية الآنفة الذكر في اساس نظرية متكاملة للموقف من الادب والسلوك أو ما اسماه بآداب «الحضرة الالهية لاهل القرب»[3] غير ان تركيز السهروردي على المثال الاسلامي الاعلى (الشخصية النبوية المحمدية) ما هو إلا الصياغة العامة التي تتطابق في ظواهرها مع الصيغة السنّية ـ الاسلامية النموذجية[4] أي انها تعبّر عما دعوته بالنموذج أو المستوى التاريخي ـ الثقافي. وما عدا ذلك فهو من ميدان الادب الحقائقي (الصوفي).

فقد انطلق السهروردي من ان الادب هو تهذيب الظاهر والباطن. فاذا تهذّب ظاهر

العبد وباطنه صار صوفياً أديباً. بصيغة اخرى، انه افترض في تكامل الادب الصوفي تكامل مكارم الاخلاق. أي انه وجد في امكانية تغيير الاخلاق الاساس «المادي» لعملية التربية الصوفية. فالله، كما يقول السهروردي، خلق الانسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد وجعله أهلاً للادب ومكارم الاخلاق. وان تضمّن هذه الاهليّة كامكانية كامنة فيه كوجود النخل في النوى(٢). من هنا فان تزكية النفس بالادب وتدبيرها بالعقل هو استخراج ما في القوة الى الفعل. ان هذه الصياغة العقلية للموقف من ادب السلوك وخضوعه لقواعد التربية تعكس ليس فقط تقاليد العقلانية الفلسفية والموقف من طبيعة الفضائل (الفلسفية)، بل وفي وضعها هذه الصياغة العقلانية في اساس التنظير الاعم للتصورات الصوفية حول مغزى وغاية الادب الصوفي. فالسهروردي لم يقف عند حدود التعامل العقلاني أو القناعة العقلانية لجدلية القوة والفعل (الارسطية)، بل حاول ربطها بفكرة وحدة فعل الخير والمحبة الانسانية الصالحة. فالاخيرة هي المصدر الاعمق للفعل الانساني لانه لا قدرة للانسان على تكوينها. فهي المادة الجوهرية الكامنة في فعل الخير. وبالتالي فان منبع الادب هو السجية الصالحة والمنح الالهية.

ان هذا الاضمحلال اللامباشر للعقلانية (الفلسفية) في سلوك المريد لم ينطلق من مقدمة الاقرار بضرورة الشيخ، بل العكس. وبهذا تكون العملية ذاتها، أي وحدة التربية والمريد والشيخ، جزءاً من الطريق الضروري الذي يمكن ان تتكشف فيه حقائق السجية الانسانية من اجل بلوغ الكمال أو القرب. وليس هذا القرب سوى النهاية ـ اللانهاية التي يفترضها وينفيها طريق الادب الصوفي. فالاخير هو التجلي المتباين لحال الصوفي في تملّكه كمالات الادب. وبما ان الكمالات هي الذرى المضمحلة في السلوك نحو المطلق، بهذا تنحلّ تجلياتها العديدة حالما يتم بلوغها. غير ان الصوفي لا يجد في هذه العملية ما يوحي اليه بخداع السراب، بل بحقائق الوجد الخاطف. وفيما بين السراب والوجد تكمن على الدوام ليس تباينات الملموس ووحدة السعي، بل وعورة الجهد المضني في السير نحو الاعتدال المطلق. أي كل ما يشكل في اعماق الصوفي باعث الفعل واسلوب تجلّيه.

وبغض النظر عن ان التقاليد الصوفية في موقفها من ادب السلوك قد ابدعت صيغاً عديدة لتحديد تجاربها من الاعتدال المطلق، فانها التقت فيما هو اساسي: الاقرار بجدلية النفى الدائمة لبلوغ الاعتدال. ومن الممكن رؤية ما في هذه الصياغة من تأثير غير مباشر لفكرة «الوسط الذهبي» أو اوساط الامور (الفلسفية العقلانية الارسطية أو الحياتية الرزينة). إلا ان هذه العقلانية تفقد مبرراتها الواقعية واهدافها النهائية في طبيعة التصورات والممارسات الصوفية. والقضية ههنا ليست فقط في غياب فعالية وحوافز المنفعة والمضرة (وكل ثنويات المصلحة المتضادة) بل وفي طبيعة التجربة الفردية للتسامي الاخلاقي، التي

تفترض في ضرورة افعالها معنى المطلق، وما يترتب على ذلك بالتالي من مذاق خاص لسر اللسان والوجدان. وليس من قبيل الصدفة ان تدخل المتصوفة في بطون الكلمات القرآنية من اجل استكناه معنى آدابها. فهي لم تبحث هنا عن مبرر لممارساتها، بل عن رنين «ثقافي» يعطي لـ «اسرارها» معنى مقبولاً، أي تلك الصيغة التي تجعل من الاعتدال المطلق في الطريق اسلوب الحال والمثال. فعندما حاول السهروردي (ت ـ ٦٣٢ هـ) على سبيل المثال تصوير النبي محمد باعتباره مجمع الآداب ظاهراً وباطناً، فهو لم ينطلق من تقاليد الكلمة، بل من المثال الصوفي لما اسميته بالاعتدال المطلق في سلوك الطريق. ولهذا وجد في حديث المعراج احد نماذجه الملموسة. اذ وجد في ممارسة النبي النموذج الارقى للنظر والقدم (أو العلم والحال). فقد جمع النبي في معراجه وحدة النظر والقدم بالصيغة التي جعلته يذلل كل المعوقات التي اعاقت غيره من الانبياء في سموات المعراج (الروحي). ففي مساره، كما يقول السهروردي، لم يزل النبي محمد «متجلس حجاله في خفارة ادب حاله حتى طرق حجب السموات، فانصبت اليه اقسام القرب انصباباً وانقشعت عنه سحائب الحجب حجاباً حجاباً، حتى استقام على سراط (ما زاغ البصر وما طغى). فمر كالبرق الخاطف الى مخدع الوصل واللطائف. وهذه غاية في الادب ونهاية في الارب»[1]. فالسهروردي لم يضع الصيغة المحمدية في مقدمة آرائه لان فكرة المطلق ذاتها لا ترتضي بالمثال الجزئي إلا كتصوير لها لا غير. إلا ان المثال الجزئي يمكنه ان يتحول الى مطلق المتجلي. وهذا كما اشرت سابقاً هو النموذج التاريخي ـ الثقافي الذي أَلْهَم المتصوفة طابعها الاسلامي وجوهرها الانساني.

ان افتراض المتصوفة وجود «ادب الحضرة الألهية» أو «ادب القرب» هو النموذج الثقافي ـ التاريخي للمطلق أو وحدة الاسلامي ـ الانساني، أو الانا ـ الجميع، أو السر ـ المعني. وهذا ما جعل من الممكن الحديث عن النبي محمد كمجمع للآداب ظاهراً وباطناً، ومن الآية «ما زاغ البصر وما طغى» تجل رمزي للممارسة. فقد وجد السهروردي في هذه الآية «غامضة» أخبر الله بها عن اعتدال قلبه (النبي محمد) المقدس عن الاعراض والاقبال. أي انه اعرض عما سوى الله. انها الآية التي تضمنت في جوانحها «انعدام الزيغان والطغيان». فهي لم تعبر عن اعتدال قلبه بل وعن ثبوت حاله (الاخلاقي ـ الوجداني). اذ لا يعني ما زاغ البصر وما طغى سوى ثبات حاله في طرفي الاعراض والاقبال. أي انه تلقى وتقبّل كل ما ورد عليه في مقام القرب بالروح والقلب، ثم فرّ منه اليه، منطوياً بفراره في مطاوي انكساره وافتقاره لكي لا تنبسط النفس فتطغى. فان الطغيان عند الاستغناء وصف للنفس[2]. بصيغة اخرى ان سلوك الادب الصوفي يستلزم تلك الاستقامة التي تفقد معها كل «اطراف» التذبذب والتناقض قيمتها المستقلة لتتحول الى

جزء منفي في المسار نحو الاعتدال. أو انه السعي نحو الذوبان في الكل الادبي، الذي يجعل الفرار منه اليه. انها عملية النفي التي تستلزم في سعيها نحو الكمال تذليل طغيان الاستغناء باعتباره وصفاً للنفي دائماً. انها العملية التي تضع مهمة تكامل الكل في الذات من خلال الالتزام بأدب السلوك. آنذاك سيكفّ ادب السلوك عن ان يكون فعلاً ظاهرياً أو باطنياً أو انعكاساً للبصر أو البصيرة، بل يصبح تعبيراً عن تلك «السرّية» التي لا يمكن ان يعرقل وحدتها الوجدانية سوى العقل المنطقي والحاحاته الجزئية. اذ لا يعني «ما زاغ البصر وما طغى» في ميدان السلوك (النظري ـ العملي أو الحقائقي ـ الطرائقي) سوى عدم تخلف البصر عن البصيرة (لزيغ) وعدم سبق البصر البصيرة (الطغيان)، فيتجاوز حدّه ويتعدى مقامه. فلكلٍ مقامه وحدّه. ولهذا استقام البصر مع البصيرة. فالادب الصوفي لم يطالب باستقامة البصر مع البصيرة فحسب، بل والظاهر مع الباطن والقلب مع القالب والنظر مع القدم (أي العلم مع الحال). اذ انه وجد في تقدم النظر (العلم) على القدم (الحال) طغياناً وتخلف القدم عن النظر تقصيراً. ولهذا جعل من اعتدال هذه الاحوال المثال الارقى لكمال القلب (الصوفي)، أي تلك الحالة التي يصير فيها قلب الصوفي كقالبه، وقالبه كقلبه، وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره، وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره[8] أي مشاهدة الكل بالكل، أي تلك «المغامرة» التي تفرض حسب عبارة التستري (ت ـ ٢٧٣ هـ) مراقبة الذات بالصيغة التي تستلزم الثبات في صفاتها الموجبة في محلها.

فالمتصوفة في «تنظيرها» لادب السلوك لم تنهمك بتضحية «الاولوية» و«الثانوية»، الجوهري والعرضي، بل بأدب الفعل المتوهج بالسر الروحي للقناعة الذاتية. وقد فسح ذلك المجال لتنوع هائل في خضم الوحدة. ولكنها ابقت مع ذلك على كيان التجربة الفردية كنموذج لتجلي «الاعتدال المطلق». ولهذا كان من الممكن بالنسبة للتنظير الصوفي لادب السلوك ان يجد في اقوال المتصوفة العديدة تأييداً لاطروحاته العامة. ففي الوقت الذي قبل السهروردي على سبيل المثال، آراء أبي العباس بن عطاء (ت ـ ٣٠٩ هـ) في تفسيره للآية القرآنية «ما زاغ البصر وما طغى» والقائلة: «لم يره بطغيان، بل رآه على شروط اعتدال القوى»، فانه وجد تأييداً لها ايضاً في كلمات ابي محمد الجريري (ت ـ ٣١١ هـ) القائلة: «التسرع الى استدراك علم الانقطاع وسيلة، والوقوف على حد الانحسار نجاة واللياذ بالهرب من علم الدنو وصلة، واستقباح ترك الجواب ذخيرة، والاعتصام من قبول دواعي استماع الخطاب تكلف، وخوف فوت ما انطوى من فصاحة الفهم في حيز الاقبال مساءة، والاصغاء الى تلقي ما ينفصل عن معدنه بُعد، والاستسلام عند التلاقي جرأة، والانبساط في محل الانس غرة»[9]. فبالقدر الذي لا تقدم المتصوفة تفسيراً لآرائها، لا تسعى في الوقت نفسه لحصر تصوراتها وانطباعاتها في اطار محدد، مازال كل ما في الوجود

عرضة للتغير، ومازالت قيمة الحركة في مغزاها. وقد اعطى ذلك لعلمها وعملها في ادب السلوك تنوعاً هائلاً. إلا ان اتجاهيته العامة كانت تقوم في تجاوز ادب العوام الى ادب الحق (المطلق)، أي تجاوز ادب العوام في الشريعة والطريقة والحقيقة. أي في مكونات الوجود الجوهري للعلم والعمل. غير ان هذا التجاوز لا يستند الى آلية رد الفعل أو التصور المسبق عن ضرورة «البديل»، بقدر ما انه ينبع من مقوماته الجوهرية كنبع الدمع من العين.

ان سعي الصوفية للوحدة أو الكل أو الفناء في التوحيد، ما هو إلا الصياغة الظاهرية لابداع وحدة الهمّ الداخلي، الذي يضمحل هو ذاته حال بلوغه. وبهذا المعنى فان ادب المتصوفة الروحي هو ادبهم الجسدي. والعكس هو الصحيح. والقضية ههنا ليست في تبديل الكلمات والمفاهيم، بقدر ما ان تقاليد الصوفية ومسعاها النهائي ينصبّ في اتجاه الغاء وتذليل ثنويات الروح والجسد بل وكل ثنويات الوعي واشكالاته المدرسية. وبالقدر الذي تشكل ثلاثية الشريعة والطريقة والحقيقة مستويات وثنويات الوعي الثقافي في تاريخيته ورمزيته الدينية ـ الميتافيزيقية، فانها تمثل في الوقت نفسه اسلوب تذليلها.

فالجوهري في هذه الثلاثية لا يقوم في قواعدها العامة أو الخاصة بل في مصدريتها وروحها الداخلية. وفي حالة تطبيق ذلك على ادب السلوك، فان الجوهري فيه ليس قواعده العامة بل مصدريته وروحه الداخلية، أي باعث الحق والتسامي الدائم.

ان تأمل المتصوفة ومعاناتها الطرائقية ـ الحقائقية (الاخلاقية ـ المعرفية) عن خصال الادب وأساليبه ومكوناته جعلها تبحث دوماً عن حيثياته المعنوية ـ الوجدانية فوجدتها في كل الادب باعتباره غاية ووسيلة السمو الاخلاقي. وليس من قبيل الصدفة ان تردد المتصوفة فكرة ان ادب الخدمة اجمل من الخدمة، ذلك لانها وجدت فيه (الادب) اسلوب اضمحلاله في الفعل، الذي يشكل في حوافزه الوجدانية وفعاليته المعرفية قيمة كبرى.

فالمتصوفة لم تبن آراءها هذه استناداً الى ادراكها اهمية الادب في سلوك الطريق فحسب، ولادراكها وعورة قواعده ذاتها. ففي هذه الوعورة يكمن معيار واسلوب شحذ ادب امتلاك الادب، أي وعي النفي الدائم في السمو الاخلاقي. ولهذا اكدت على ان الادب هو كمال الاشياء ولا يصفو إلا للانبياء والصديقين[١٠]. في حين وجد القشيري (ت ـ ٤٦٥ هـ) حقيقة الادب في اجتماع خصال الادب[١١]. إلا انهم لم يقصدوا بالادب ههنا سوى ادب الفعل لا ادب القول.

ان هذا التميز الجوهري، ولحد ما الطرائقي يعكس في آن تباين ادب الصوفية عن ادب العوام (السائد)، أي تجاوز وتذليل ادب العوام بأدب الحق. فالاخير هو الفعل المطلق. أي الصفاء الكامل الذي يتجاوز في مسعاه المعتدل «شروط التطرف» حتى في حالة مزاولتها الظاهرية. وهنا تنعكس ايضاً ديناميكية الروح الصوفي التي تفترض في

ممارستها الدائمة نفي التقليدية المتحجرة وتوكيد تلقائية المحبة القلبية. أي وحدة قهر الارادة وتحريرها. وفي هذا ينعكس استيعابها المتميز لخصوصية الادب وطابعه المتعالي.

ان تشديد المتصوفة على ان الادب ادبان: ادب قول وادب فعل لا يسعى لوضع احدهما بالضد من الآخر، بقدر ما انه يؤكد أهمية الفعل وجوهريته في سلوك الطريق. ويرتبط هذا التشديد بأولويات التصوف، أي بضرورة الفعل كمقدمة للسير في «طريق الحق». اذ ان ادب الفعل كما يقول كلثوم الغساني يمنح محبة القلوب ويصرف عنه العيوب(١٢).

فاقرار الصوفية بدرجات الادب يتضمن في آن واحد الاعتراف بتباين المستويات (العوام والخواص) وواقعية وتفاؤلية التطور الاخلاقي (الادبي). فالمتصوفة لم تصغ مبدأ النخبوية الاجتماعية، بل مبدأ التسامي الادبي. وان اسلوبها في تربية المريد هو اسلوب (وطريق) تذليل الانا الاجتماعية الضيقة باسم المبدأ الاعلى. أي انه التجاوز الواقعي (الثقافي) والمثالي (الاخلاقي ـ المطلق) لادب العوام. فالمتصوفة لم تضع قيوداً خارجية في الادب. واذا كانت القواعد الادبية والقضية هنا كما هو واضح من النص لا تقوم فقط في وضع المتصوفة نفسها خارج اطار اهل الدنيا واهل الدين، بل وفي طبيعة تعاملها مع الادب بشكل عام، وادبها بشكل خاص. فالجوهري في ادب التصوف هو طهارة القلوب ومراعاة الاسرار، أي عالم الروح الاخلاقي. فالمتصوفة لا تخضع في آدابها لقوى ما خارجية مقننة. بمعنى انها تزيل مفعول وشرعية القوانين الرسمية لتستعيض عنها بقواعد الروح الاخلاقي. ولهذا قال ذو النون المصري (ت ـ ٢٤٥ هـ) بان «ادب العارف فوق كل ادب لان معروفه مؤدب قلبه». أي انه لا يخضع إلا لما يمليه عليه قلبه (الصوفي) أو حقيقة القلب. وقد جعل ذلك ادب المتصوفة في مظهريته يبدو كنفي لقواعد العرف والتقاليد، أو انتهاكاً لقيم وقواعد الشرع. إلا ان هذا التصور هو مجرد انعكاس ايديولوجي «لسوء الادب».

ذلك لا يعني غياب أية تقاليد ضابطة أو قواعد متحكمة في الادب الصوفي. وإلا فمن الصعب الحديث عن ادب بالمعنى الدقيق للكلمة. فالادب بمعنى ما هو قيد. إلا ان اتخاذه صيغة «القهر» الصوفي للنفس حوّله من عالم القيود التقليدية الى مصاف الاخلاص القلبي. ولهذا لم تجد المتصوفة في تقييد نفسها سوى طريق لتحريرها. أي انها تتبع في ممارستها مسيرة الحياة ذاتها. فمن اجل ان تتواجد الشمس فمن الضروري مدّها الكون بأشعتها. انها العملية التلقائية المتوحدة التي تفترض في أي فعل عين نقيضه، إلا انها تتقبله في الكل. وقد تضمنت هذه الممارسة في ذاتها نفي القيود الظاهرية.

لقد بحثت المتصوفة في نموذج ادبها وقواعده عما يمكنه ان يكون وسيلة رقيها

الاخلاقي . وبهذا تكون قد افترضت طريقاً نخبوياً للخير المطلق لا يتعارض في الكثير من سماته مع حقائق الوجود الكبرى. فدخول الطريق الصوفي يستلزم في قواعده الادبية الاقرار اللســاني ـ الفعلي بالتوبة الحقيقية، أي تذليل الرذيلة وتحقيق الفضيلة. وقد حدد ذلك لدرجة كبيرة الوحدة المتناقضة، أو الديناميكية الحية للسمو الاخلاقي التي «يغزلها» تفاعل التجربة الفردية والسلوك الطرائقي.

الهوامش

(١) سراج الدين الطوسي: ـ اللمع في التصوف، ليدن ١٩١٤ ص ١٤٢.
(٢) القشيري: ـ الرسالة القشيرية في علم التصوف، القاهرة ١٩٥٧ ص ١٢٨.
(٣) انني لا اتكلم هنا إلا عما يمكن دعوته بالنظرية العامة لادب السلوك الصوفي. وإلا فان لكل متصوف ادبه الخاص به. أو ما سأدعوه بفردية الادب الصوفي وخصوصيته التجريبية في ممارسة الطريق (الصوفي). اذ ان ما يثير اهتمامي هنا وما تستلزمه قواعد البحث العلمي والتحليل الفلسفي هو رؤية وصياغة المبادىء العامة التي تعطي لنا امكانية الحديث عن اتجاه تصوفي خاص في ادب السلوك وقواعده، وبالتالي عن نموذج صوفي في التربية.
(٤) ان آراء السهروردي تشكل اساساً نظرياً للادب الصوفي. فهي تعبر، كما اشرت سابقاً، عن نموذج معين في التقاليد الصوفية. وان ظاهريتها السنية هي الاخرى شكل من اشكال تفاعل الشريعة والحقيقة وكيفية انعكاسهما في الطريقة. وهذا ما يبرز بوضوح في الطريقة السهروردية. وإلا فان بين التصوف والاتجاه السني التقليدي بوناً شاسعاً لا يمكن تذليله. وان هذا البون هو ليس نتاجاً لتناقض ما جوهري بقدر ما انه يعبر عن اساليب مختلفة في الموقف من تعاليم الاسلام، ومستويات متباينة في التعامل مع مختلف قضايا الوجود والوعي.
(٥) السهروردي: عوارف المعارف، ص ١٥٠.
(٦) السهروردي: عوارف المعارف، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٧) السهروردي: عوارف المعارف، ص ١٥١.
(٨) السهروردي: عوارف المعارف، ص ١٥٢.
(٩) السهروردي: عوارف المعارف، ص ١٥٢.
(١٠) سراج الدين الطوسي: اللمع في التصوف، ليدن ١٩١٤، ص ١٤٢.
(١١) القشيري: ـ الرسالة القشيرية في علم التصوف، القاهرة ١٩٥٧، ص ١٢٨.
(١٢) الطوسي: اللمع في التصوف، ص ١٤٢.

القوة القانونية لقرارات مجلس الامن

د. احمد الموسوي

مجلس الامن هـو الاداة التنفيذية لمنـظمة الامم المتحدة. اهم مسؤولياته حفظ السلم والامن الـدوليين، ومـا يتـرتب على هذه المسؤولية من تدابير وتنفيذ ما يوصي به المجلس ويقرره.

يعد مجلس الامن احد الاجهزة الرئيسية الستة التي تضمنها مثياق الامم المتحدة في الفقرة الاولى من المادة السابعة منه، وهي: الجمعية العامة، مجلس الامن، المجلس الاقتصادي والاجتماعي، مجلس الوصاية، محكمة العدل الدولية، الامانة العامة.

يمتلك مجلس الامن مسؤوليات متعددة ومتنوعة وفقاً لاحكام ميثاق الامم المتحدة، وقد وضحت العديد من مواد الميثاق سلطات المجلس، منها مهمة المحافظة على السلم الـدولي وتسوية المنازعات والخلافات الدولية، ومنها سلطات ادارية يقوم بها المجلس بالاشتراك مع الجمعية العامة كقبول الاعضاء الجدد وتعيين الامين العام للامـم 'متحدة وغيرها.

العضوية في مجلس الامن:

يتألف مجلس الامن بموجب نص المادة /٢٣/ من ميثاق الامم المتحدة من احد عشر عضـواً من «الامم المتحدة» وتكون جمهورية الصين وفرنسا واتحاد الجمهوريات

السوفييتية الاشتراكية والمملكة المتحدة (لبريطانيا العظمى وشمال ايرلندا) والولايات المتحدة الامريكية اعضاء دائمين فيه. وتنتخب الجمعية العامة ستة اعضاء آخرين من الامم المتحدة ليكونوا اعضاء غير دائمين في المجلس ولمدة سنتين، على ان يختار في اول انتخاب للاعضاء غير الدائمين ثلاثة منهم لمدة سنة. والعضو الذي انتهت مدته لا يجوز اعادة انتخابه على الفور، ويراعى في انتخاب الاعضاء غير الدائمين التوزيع الجغرافي العادل. ويكون لكل عضو في مجلس الامن مندوب واحد.

وبعد ازدياد عدد الدول الاعضاء في المنظمة تم تعديل في ميثاق الامم المتحدة في مجال عدد الاعضاء في مجلس الامن، واصبح خمسة عشر عضواً بدلاً من احد عشر عضواً، وشمل التعديل زيادة عدد الدول غير دائمة العضوية في المجلس.

قرارات مجلس الامن:

لاهمية المسؤوليات والسلطات التي يمارسها مجلس الامن للقيام بمهامه وما يترتب عليهما من اتخاذ ما يلزم من اجراءات وما يستلزم اتخاذ هذه الاجراءات من توصيات أو قرارات، فقد برزت بعض الآراء حول القوة القانونية لقرارات مجلس الامن، أهمها، رأي يعتبر ان كل ما يصدر عن مجلس الامن يتمتع بقوة قانونية ملزمة، دون التمييز بين القرارات التي يصدرها المجلس وبين التوصيات.

ان اصحاب هذا الرأي يستندون الى تفسير المادة /٢٥/ من ميثاق الامم المتحدة التي تنص على ان «يتعهد اعضاء الامم المتحدة بقبول قرارات مجلس الامن وتنفيذها وفق هذا الميثاق».

أما الرأي الآخر فهو الذي يفرق ما بين القرارات والتوصيات التي يصدرها المجلس، فالقرارات هي التي تتمتع بقوة الزامية وواجبة التنفيذ، أما التوصيات فلا تتمتع بقوة الزامية.

ان الرأي الثاني هو المنسجم والمتوافق مع نص المادة /[illegible]/ والمواد ٤١، ٤٤، ٤٨، ٤٩[1]، وغيرها من مواد الميثاق التي حددت حصراً كلمة قرارات والحالات التي يستعمل فيها مجلس الامن سلطات لاصدارها، وفي مواضع اخرى ذكر الميثاق كلمة توصيات، يتضح من هذا التمييز في التعبير بان هناك فرقاً بين الحالتين، يعتمد على خطورة الحالة المعروضة وتقدير مجلس الامن الذي منحه الميثاق صلاحيات ووظائف واسعة باعتباره الجهاز التنفيذي في المنظمة وعهد اليه بمسؤولية حفظ السلم الدولي وتسوية المنازعات سلمياً.

ان الاختصاصات والمسؤوليات الجسام الملقاة على مجلس الامن من الضروري ان تقابلها السلطات اللازمة، وفي مقدمتها القوة القانونية لقراراته، وفي الوقت نفسه ضرورة التمييز بين قرارات المجلس من حيث الاهمية، لان المجلس يقوم باختصاصات متعددة، ليس من المعقول ان تساوي القيمة القانونية للقرار الذي يصدره المجلس فيما يتعلق بحالات تهديد السلم والاخلال به ووقوع العدوان، وبين ما يتخذه المجلس بالاشتراك مع الجمعية العامة لايقاف العضوية وانتخاب اعضاء محكمة العدل الدولية وغيرها.

ويبدي الفقيه السوفييتي، تونكين، رأيه في اساس الفرق بين التوصية والقرار الملزم كالتالي «التوصية ليست إلا رغبة، في حين ان القرار الملزم يفرض التزامات قانونية». ويستنتج مما تقدم ان لقرارات مجلس الامن فقط قوة الزامية واجبة التنفيذ، أما توصيات المجلس وتوجيهاته فليس لها قوة الزامية، وهذا ينطبق ويتوافق مع التفسير الموضوعي لكلمتي «قرارات وتوصيات» الواردة الذكر في ميثاق الامم المتحدة.

ان الصلاحيات والسلطات التي منحها الميثاق لمجلس الامن دون غيره من الاجهزة للقيام بمسؤولياته في حفظ الامن الدولي واتخاذ التدابير اللازمة ومنها التدابير العسكرية، يعود الى تشكيل مجلس الامن ووجود اعضاء دائمين وهم الدول الكبرى التي منحت امتيازات لها، ولتحقيق رغبة الدول الكبرى، افرد الميثاق لمجلس الامن الدور الاوسع لامكان قيام الدول دائمة العضوية بدور اساسي في صياغة القرار الذي يراه المجلس مناسباً في اتخاذ التدابير اللازمة. ومن هنا جاءت اهمية القرارات التي يصدرها المجلس وقوتها الالزامية.

كما ان دوره المميز قد برز لاعتباره الجهاز المتخصص في شؤون المحافظة على السلم وتأمين الاستقرار في المجتمع الدولي، كما يعد مجلس الامن من اهم اجهزة الامم المتحدة، لما يتمتع به من سلطات وما عهد له من مسؤوليات ومنها الدور الفعال الذي يقوم به المجلس في مجال التسوية السلمية للمنازعات والخلافات الدولية. وقد فرق ميثاق الامم المتحدة بين المنازعات الدولية[1]، فالمنازعات القانونية هي من اختصاص محكمة العدل الدولية، أما المنازعات السياسية ففي حالة عدم استطاعة الدول المتنازعة الوصول الى حل سلمي فهي من اختصاص مجلس الامن.

يتوجب على مجلس الامن للقيام بالمهام الموكولة اليه وخاصة في مجالي حفظ الامن الدولي وحل المنازعات والخلافات الدولية سلمياً وجود تمثيل دائم لاعضائه في مقر الهيئة، وهذا ما نص عليه ميثاق الامم المتحدة[2]، والزم اعضاءه، لان طبيعة ووظيفة مجلس الامن ضمن الاختصاصات الواسعة والمهمة التي منحها ونص عليها الميثاق وخطورتها يتوجب تنظيم عمل المجلس بشكل يستطيع القيام بمهامه وباستمرار وتأمين عقد

اجتماعاته، أي تواجد التمثيل الدائم للدول الاعضاء في مقر الهيئة «الامم المتحدة» أي يعتبر المجلس في دورة انعقاد مستمرة.

حق النقض وقرار الاتحاد من اجل السلام:

نتيجة عجز مجلس الامن عن ممارسة سلطاته في مواجهة حالات تهديد الامن والسلام الدوليين لعدم امكان اتخاذ القرار والاجراء المناسب بسبب تركيبة المجلس وحق النقض / الفيتو/ فقد اصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة عام ١٩٥٠ بسبب ازمة كوريا قراراً سمّي قرار الاتحاد من اجل السلام ينص على انه «اذا اخفق مجلس الامن بسبب عدم توافر الاجماع بين اعضائه الدائمين في القيام بمسؤولياته الاساسية الخاصة بحفظ الامن الدولي، في الحالات التي يلوح فيها تهديد السلم أو اخلال به أو عمل عدواني، تبحث الجمعية العامة الموضوع فوراً لاصدار التوصيات اللازمة للاعضاء لاتخاذ التدابير الجماعية المناسبة، بما في ذلك استخدام القوات المسلحة للمحافظة على السلم أو اعادته الى نصابه».

وبموجب قرار الاتحاد من اجل السلام، يمكن دعوة الجمعية العامة الى عقد دورة طارئة مستعجلة تتم خلال /٢٤/ ساعة، للنظر في وضع قرار الاتحاد من اجل السلام موضع التنفيذ، اذا تلقى الامين العام طلباً من مجلس الامن وبموافقة تسعة من اعضائه، أو من الجمعية العامة بموافقة أغلبية اعضائها.

ويمكن القول بان الهيمنة على المنظمة وبالاخص من قبل الولايات المتحدة الامريكية وممارساتها وتهديداتها المتكررة بوقف المساعدات المالية والانسحاب منها ومن المنظمات المتخصصة العاملة في اطارها، واستعمال حق النقض، يقف عائقاً امام اتخاذ قرارات، وتنفيذ الالتزامات المترتبة على تلك القرارات باسم الاسرة الدولية مجتمعة، وبما يخدم ويتوافق مع الاهداف والمبادىء التي انشئت المنظمة من اجلها، وخاصة في المسائل المهمة، مما يزيد من حدة التوتر الدولي، وعدم امكان المنظمة القيام بدورها باعتبارها منظمة عالمية من حيث العضوية وعامة من حيث الاختصاص، ولها اجهزة تتمتع بصلاحيات وسلطات واسعة اقرها واضعو الميثاق والدول المؤسسة وتضمنها الميثاق للوصول الى الاهداف التي انشئت المنظمة من اجلها.

ان استخدام الفيتو الامريكي قد منع في حالات عدة اتخاذ قرار ادانة الاعمال العدوانية التي تقوم بها قوات الاحتلال الاسرائيلي، والدعم الامريكي المستمر لدويلة العدو الصهيوني، ساعد ويساعد على تمادي سلطات الاحتلال الاسرائيلي في جرائمها

وتجاوزها ارادة المجتمع الدولي وانتهاك قواعد القانون الدولي.

ومن المفيد ان نذكر في هذا المجال ان السياسة التي تنتهجها الولايات المتحدة الامريكية بدعم الانظمة العنصرية تؤدي الى خلق المزيد من بؤر التوتر في العالم، وينعكس ذلك على العلاقات بين الدول وعلى دور منظمة الامم المتحدة باعتبارها مركزاً لتنسيق الجهود والنشاطات الدولية للوصول الى تحقيق المصالح المشتركة واهداف المنظمة، وفي الوقت نفسه يضعف دور مجلس الامن باعتباره احد الاجهزة الرئيسية من اجهزة الامم المتحدة والمختص في مجال حفظ السلم والامن الدوليين وتسوية المنازعات والخلافات الدولية ويضعف من القوة القانونية لقراراته.

اواخر ١٩٩١

الهوامش والمراجع:

(١) نذكر بعض فقرات المواد التي نصت على كلمة قرارات، مقدمة المادة /٤١/ التي تنص على ان «لمجلس الامن ان يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير التي لا تتطلب استخدام القوة المسلحة لتنفيذ قراراته، والمادة /٤٤/ التي تنص على ان «اذا قرر مجلس الامن استخدام القوة... ينبغي ان يدعو العضو الذي يشترك اذا شاء في القرارات التي يصدرها» والفقرة الاولى من المادة /٤٨/ التي تنص على ان «الاعمال اللازمة لتنفيذ قرارات مجلس الامن... يقوم بها جميع اعضاء الامم المتحدة أو بعض هؤلاء الاعضاء حسبما يقرره المجلس». والمادة /٤٩/ التي تنص على ان «يتضافر اعضاء الامم المتحدة على تقديم المعونة المتبادلة لتنفيذ التدابير التي قررها مجلس الامن».

(٢) المنازعات الدولية تنقسم الى: ١ ـ المنازعات السياسية، وهي التي تنشأ عن مطالبة احد اطراف النزاع في تعديل نص قانوني قائم. ٢ ـ المنازعات القانونية، وهي المنازعات التي يختلف فيها اطراف النزاع حول تنفيذ أو تفسير احكام قانون قائم.

(٣) الفقرة الاولى من المادة /٢٨/ من ميثاق الامم المتحدة.

(٤) هانز كلش، قانون الامم المتحدة، لندن ١٩٥١.

(٥) زكي هاشم، الامم المتحدة، القاهرة، ١٩٥١.

(٦) تونكين، القانون الدولي العام، القاهرة ١٩٧٣.

الكومبيوتر والترجمة

سلام كبة

مصنع بلا عمال، غزو الفضاء والوصول الى المريخ والزهرة، اقمار صناعية، شبكة اتصالات عبر القارات، انسان آلي، اكتشافات طبية جديدة، تطورات الهندسة الوراثية، الليزر. . . هذه هي عناوين القرن العشرين وثمرة مئات السنين من التطور العلمي والتقدم التكنولوجي. لقد قفزت العلوم، وخاصة العلوم الالكترونية، قفزات جبارة في السنوات الاخيرة، حتى بدأ الكلام عن «انسنة الآلة واتمتة الانسان» وذلك عبر سلسلة طويلة من التطبيقات العملية لمختلف النظريات العلمية التي توصل اليها عباقرة العلم في السنوات الماضية.

بدأت وتطورت الثورة العلمية ـ التكنولوجية التي احدثتها الرأسمالية المعاصرة في نفس الفترة التي شهدت التغيرات الكبيرة التي طرأت على الاوضاع الدولية اثناء وبعد الحرب العالمية الثانية. ومنذ نهاية هذه الحرب توجّه الرأسمالية افضل امكانياتها لتحقيق الثورة العلمية ـ التكنولوجية وتتحمل القسط الاكبر في تطوير منجزاتها، واستخدامها في العمليات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.

شهدت بداية التسعينات بوادر ولادة جيل تقني جديد. وستشهد الاعوام القادمة اكتمال ونضج الثورة التقنية الثالثة (تمييزاً لها عن الثورة الصناعية ـ الاولى ـ اوائل القرن القرن التاسع عشر والثورة العلمية التكنولوجية ـ الثانية ـ بُعيد انتهاء الحرب العالمية

الثـانية). وستعتمـد هذه الثـورة اساساً على العقل البشري والالكترونيات الدقيقة وعلوم الحسـابـات والذكاء الاصطناعي، وتوليد وخزن واسترداد المعلومات مع توصيلها بسرعة متناهية. اذن تشكل الاتمتة المتطورة، والسيبرنتيكا، والبيونيكا والهندسة الوراثية، والثورة المعلوماتية، والثورتان الميكروالكترونية، والبيوجينية مضمون الثورة العلمية ـ التكنولوجية الحديثة وتميز اتجاهات تطورها. لقد تطورت الميكانوغرافيا، ويعدها الصناعة المعلوماتية ولم تستقم التقلبـات فيهـا. فالمضـاربة في ازدياد، والآلات الجديدة لاتزال تدفع الى الاسواق بكمية ونوعية جديدة ومتطورة.

ليس من المستبعـد ان يسمى القـرن الحـادي والعشـرون بقرن تكنولوجيا الثورة المعلومـاتية الحديثة. فبالارتباط مع اتساع استخدام الكمبيوتر في كل مجالات الحياة وتطور شبكات نقل ومعالجة المعطيات المعلوماتية الوطنية وما بين الدول، والنمو السريع للمخزونات المعلوماتية، المنتشرة في كل العالم، وسهولة منالها لكل انواع الكمبيوتر. . . كل ذلك شكّل وكوّن شبكة مناسبة تهيء امكانيات الانتقال الى التكنولوجيا غير الورقية في معالجة المعلومات. وهو يغيّر اسلوب محاكاة الكمبيوتر وعلاقته مع الانسان في مختلف نماذج العلائق المتبادلة العملية والخدماتية.

لقـد صاغت الثمـانينـات، وعلى أسـاس البحـوث المستمـرة في مجـال الذكاء الاصطناعي، فروعاً صناعية جديدة هي انتاج «الانظمة الذكية». وتجري على الكمبيوتر وبواسطته حل مسائل معقدة تدعى بالذكية اذ لا ينفّذها سوى الانسان. والشكل السائد للانظمة الذكية الآن يعتبر اطاراً «للانظمة الخبيرة». ومن امثلة المسائل الذكية فهم وتحليل واعـداد المواضيع والنصـوص باللغـة الـطبيعية، ومحاكاة الكمبيوتر التخاطبية، وتحليل ومعالجة واعداد المخططات والرسوم البيانية والتصويرية، والترجمة من لغة طبيعية الى لغة طبيعية اخرى، والحصول على الحلول المثلى مع تغير الظروف البيئية. . . الخ.

الترجمة الآلية

يسـاهم شيوع الكمبيوتـر في الكشف الامثـل عن الصفـات الانسـانية، وانعتاق المواهب وتذليل عزلة الافراد في عالمهم المنغلق. وهذه خطوة تحررية صاعدة. وليس من اختصاص هذا الموضوع ان يظهر فسيفساء الحقائق المعقدة الجديدة في نهاية هذا القرن والتي تعكس تناقض عالمنا الفسيح، وسببت التغيرات الفجائية الانثروبولوجية التي ولّدها ظهور العقل الصناعي أو الروبوت.

تعتبر الترجمة الآلية ميداناً متطوراً في البحث العلمي والاعداد التطبيقي والانظمة

الوظيفية على اساس عملية الترجمة من احدى اللغات الطبيعية الى لغة اخرى باستخدام الكمبيوتر. وقد حققت الترجمة الآلية الاقتراب السريع والمثابر من المعلوماتية المتوفرة في اللغة الاجنبية مع ضمان الفاعلية والدقة في ترجمة سيل كبير من النصوص، خاصة العلمية والتقنية. ان الترجمة الآلية الحديثة هي ترجمة وفق قاعدة المعطيات (Data Base) في الموضوع المعني، ويدخل ذلك كله اساساً في صنف انظمة الذكاء الاصطناعي.

الذكاء الاصطناعي والانظمة الخبيرة

ذهب تفكير الناس منذ ظهور الكمبيوتر الى انه سوف يتمكن ذات يوم من امتلاك «قدرات عقلية» تساوي قدرات الانسان أو تتفوق عليها. لقد سمي الكمبيوتر الاول بـ «الدماغ الالكتروني». وفي غضون العشرين سنة الاخيرة ترسّخ مفهوم «الذكاء الاصطناعي».

ان هدف الذكاء الاصطناعي هو تحليل السلوك الانساني في ميادين الادراك الحسي والفهم واتخاذ القرار بغية تقليدها، وبالتالي نمذجتها على الكمبيوتر. وموضوع دراسة الذكاء الاصطناعي يشمل كامل النشاط الانساني الذي لم يكن بالمستطاع قياسه. ولا يُعتمد فيه المعيار الخوارزمي* لبساطته في معالجة المعلومات، وهو يختلف عن دور النظام الخبير. لقد استعيض عن الخوارزم بقواعد «الاختيار» و«اتخاذ القرار»، وهي تأخذ بالحسبان المواصفات الدقيقة للمسألة المعينة خلال معالجتها.

اذن الذكاء الاصطناعي تسمية مجازية لجملة التوجهات العلمية التي توحّد اختصاصيي الرياضيات، واللغات، وعلم النفس، والمهندسين؛ وتستهدف تكوين الادوات البرامجياتية الكمبيوترية، التي تذلل المحاكاة الابداعية من خلال العناصر المكوِّنة للكمبيوتر، واتمتة سلوك الروبوتات وتوجيهها الى الهدف المعني، وتأمين الالفة في التحاور مع الكمبيوتر باستخدام لغة النص أو الموضوع تحت البحث. من البديهي ان تستخدم لغات اصطناعية رفيعة في الذكاء الاصطناعي تفوق تركيبية اللغات الخوارزمية، ولغة الصيغ الكيمياوية البسيطة، وتعتمد المنطق اساساً. ومن هذه اللغات المعروفة لغة ليسب (Lisp) ولغة برولوغ (Prolog).

ان عالم اليوم والتقدم العلمي التكنولوجي سيكون بلا معنى لولا النتائج التي اكتسبتها البشرية ويتوقع رفدها في المستقبل ببحوث الذكاء الاصطناعي.

يمكن تعريف النظام الخبير بانه برنامج لحل المشاكل يحقق اداء جيداً في مجال محدد يتطلب معرفة ومهارة متخصصة تماثل عمل الانسان الخبير، ويوظف النظام معرفة

الخبير، ويحـاول محاكاة تفكيره ومهارته ودوافعه. وتستطيع معظم الانظمة الخبيرة شرح مسببات الـوصـول الى نتيجة معينة. وعلى عكس البرامج التقليدية، تستطيع الانظمة الخبيرة توظيف البيانات الكمية والوصفية، ويمكنها الوصول الى نتائج من بيانات غير كاملة أو غير مؤكدة.

استخدِم الذكاء الاصطناعي والانظمة الخبيرة في الترجمة الآلية وتطوير برامج تحقق هذا الهـدف وتقديم المشورة والنصح، والحلول محل الافراد. وذللت الانظمة الخبيرة امكانية «تطقيم» معارف الكمبيوتر بحاجات الترجمة ومستلزماتها. لقد استخدمت اول مرة في ميدان الترجمة الآلية في كمبيوتر الجيل الرابع. واكتسب استخدامها انتشاراً واسعاً في آلية عمل كمبيوتر الجيل الخامس.

فهم اللغة والسيمانتيكا

من اصعب مجـالات بحث الـذكاء الصناعي هو فهم وتحليل اللغات، وكان من اهـدافه المبكرة الترجمة الآلية. لقد تُرجمت بنجاح أواخر الخمسينات لغات الكمبيوتر الخوارزمية، من لغة الى اخرى، باستخدام مكونات عتاد الكمبيوتر (Hardware). وعلى هذا النحو تجري كتابة البرامج لترجمة اللغات الطبيعية ولو بمستوى اكثر رقياً وتعقيداً. تستغرق ترجمة نص من شكسبير الى اللغة العربية بعض الوقت، ولكن ترجمة اوراق علمية من لغة طبيعية الى اخرى تكون سهلة ومباشرة. ان الترجمة الآلية هي اكثر مجالات الذكاء الاصطناعي تعقيداً.

في بدايات التجربة توصل العلماء الى نتائج عجيبة وغير منطقية في الترجمة الآلية بسبب ضرورات مرحلة التشفير أو الوسائط اللغوية. ولم نحصل على ترجمة معقولة ومقبولة رغم استخدام القواميس والقواعد اللغوية البسيطة في «تطقيم» معارف الكمبيوتر. وبسبب العقبات التي واجهت مشاريع الترجمة الآلية فقد توجه البحث نحو فهم افضل وادق للغة، تمهيداً للنجاح لاحقاً في الترجمة.

يتطلب تعـامل برنامج الكمبيوتر مع اللغة الطبيعية مقداراً كبيراً من المعرفة في تركيب الجمل، ومعنى الكلمات، ومورفولوجيا (صرف) الكلمات، وقواعد المحادثة.. وغير ذلـك. ومن تطبيقات معالجة اللغة الطبيعية فهم الخطاب، وفهم رواية القصص، ونظم السؤال ـ الجواب، والترجمة الآلية، وفهم النصوص والوثائق، واعادة الصياغة الآلية اللفظية للجمـل، والتعـامـل مع البـرامج الذكية، والتحكم بالمكائن والآلات المعقدة المساعدة في تدقيق النحو، وبناء النصوص وكتابة الوثائق.. وغير ذلك.

يحتاج فهم اسلوب تعامل الكمبيوتر مع اللغة الطبيعية جهداً مضنياً في قواعد النحو والصرف. ويقول كل من بار وفيجنباوم في كتابهما «فهم اللغة الطبيعية» الصادر في ١٩٨١: قواعد نحو وصرف لغة ما، هي مخطط اختيار وتكوين الجمل في هذه اللغة، وتعيين قواعد الاعراب لربط الكلمات في عبارات وتراكيب واضحة ومفهومة.

وقد دخلت مفاهيم عديدة في مجال فهم اللغة الطبيعية، منها مفهوم حديث هو (السيمانتيكا) أي قواعد دلالة اللغة.

تعطى المعالجة السيمانتيكية معنى الكلمات في مختلف الجمل. ويميز التحليل السيمانتيكي بين استخدام الكلمات كفعل أو مصدر. . . الخ، ومن ثم يساعد على فهم معنى الكلمة المستخدمة. وتدخل في تذليل التحليل السيمانتيكي الضمائر والصيغ اللغوية البديلة، وكذلك الانتقال المعقول من صيغة لغوية الى اخرى دون وجود رابطة منطقية لغوية (مفهوم ـ Ellipsis).

ومن المفاهيم المساعدة في فهم اللغة الطبيعية قواعد الاعراب التي تميز بين التراكيب والجمل اللغوية. ان دور الاعراب في النحو هو بناء شجرة اعرابية أو تركيب مماثل للجملة، وتبيان الاستعمال القواعدي للكلمات وعلاقاتها المتداخلة. ويتركز دور المعالجة السيمانتيكية في تأكيد معنى الجملة.

مراحل تطور الترجمة الآلية

اول من استخدم الكمبيوتر في الترجمة بوضوح هما بوت وأويفر عام ١٩٤٦. ومنذ عام ١٩٤٩ سارت بحوث الترجمة الآلية في الولايات المتحدة قدماً في جامعات كاليفورنيا ولوس انجيلوس وتكساس وغيرها. وفي جورج تاون أجريت بنجاح أول ترجمة من اللغة الروسية الى الانكليزية عام ١٩٥٤. وفي عام ١٩٥٥ اجريت في الاتحاد السوفييتي اول تجربة في الترجمة الآلية من الانكليزية الى الروسية في الرياضيات (على اساس قاموس يحوي ٢٣٠٠ كلمة). واليوم تأتي الولايات المتحدة واليابان والاتحاد السوفييتي والصين في طليعة البلدان التي توظف الترجمة الآلية لخدمة متطلباتها الاجتما ـ اقتصادية، والعلمية ـ التقنية.

تستعمل اليوم الترجمة الآلية في ميادين كثيرة منها: ١ ـ المعلومات الخدماتية لتوفر معلومات واسعة وكثيفة وسيل ثابت من المصادر اللغوية الاجنبية. ٢ ـ المنظمات العالمية التي يتطلب عملها عدداً كبيراً من الوثائق متعددة اللغات. ٣ ـ الخدمات المرتبطة بترجمة الوثائق التقنية التي تصاحب عادة اقتصاديات التصدير. ٤ ـ الترجمة التوافقية الفورية التي

تتطلب عدداً كبيراً من البلاغات والتعابير المتماثلة.

يمكن تصنيف انظمة الترجمة الآلية على اسس متنوعة منها: تطور الستراتيجية اللغوية. وعلى هذا الاساس يصنف تطور الانظمة المذكورة الى اربع مراحل. الاولى وتمتد من نهاية الاربعينات حتى اواسط الستينات، وتتسم بتطور مضطرب وعاصف في الانظمة المذكورة. ويشبه عملها ترجمة النصوص كلمة كلمة، وتسمى بأنظمة الجيل الاول. المرحلة الثانية تمتد حتى اواسط السبعينات، وتتميز بتطور النظريات اللغوية حيث استند عليها تطور كمبيوترات الترجمة. أما انظمة الجيل الثالث فتمتد حتى اواسط الثمانينات وخلالها انتشرت صناعة الترجمة الآلية اوسع انتشار وتطورت تقنية التحليل النحوي والصرفي والسيمانتيكي. إلا ان هذه الانظمة لم تشهد عصر النماذج التقنية السيمانتيكية رغم دخولها لاول مرة في التاريخ عهد المحاكاة والتخاطب الكمبيوتري وتفاعل الانسان مع الآلة. ظهرت الانظمة الخبيرة والمعارف النصّية والمصطلحاتية في الجيل الرابع من الانظمة منذ اواسط الثمانينات.

يستند المشروع الياباني في بناء انظمة الجيل الخامس على اساس مختلف تماماً فتدمج الترجمة الآلية مع كمبيوترات الجيل الخامس. وهذا بحد ذاته تطور هائل يؤدي الى تطور الانظمة المتعددة اللغات القائمة على اساس تقنية الترجمة المعلوماتية الذاتية. وفيها تكشف الامكانيات اللغوية عن توسع اسس المدخلات والمخرجات (Inputs) (Outputs) التخاطبية الكمبيوترية.

كما تصنف كمبيوترات الترجمة على اسس اخرى اهمها نطاق الاستخدام ودقة صناعة الكمبيوتر، وتقسم عادة الى ثلاثة انواع: الصناعية والمتطورة والتطبيقية (أو المختبرية).

آفاق تطور الترجمة الآلية

ان قضية الترجمة بما فيها الترجمة الآلية هي قبل كل شيء، قضية ومشكلة اللغة. ومن الضروري ان تفسّر النظرية السيمانتيكية قواعد وقوانين تطور محاكاة النصوص ارتباطاً بالتطور البرامجياتي للنص. في هذا الاتجاه تتطور الترجمة الآلية كميدان علمي بحد ذاته. ويتبع ذلك اهتمام متنام بمختلف انواع من الادوات الوسيطة (Mediators) في اللغة: مثل تلك القائمة على لغة الاسبرانتو العالمية. ومن الادوات اللغوية للوسيط اللغوي الرئيسي قواعد فيلمور وهي من اشهر النماذج السيمانتيكية رغم انها لا توضّح كامل العمليات السيمانتيكية.

في هذا المضمار لا بد من حضور قوي للقسم النظري والتطبيقي لعلم تصنيف المعاجم والقواميس (ليكسيكوغرافيا) ونظرية النصوص، ونظرية دالة عملية الترجمة وغيرها.

يحدد خاجيتز المشاكل الاساسية التي تواجه الترجمة الآلية، بدقة تعدد مستويات تقديم النص من حيث المحتوى والتراكيب، ووسيلة تكامل المستويات المختلفة ـ لعملية (الفهم)، وتطور طرق التحليل البسيطة والشاملة، ومعالجة النقص، والاستعمال المجازي للنقص السيمانتيكي، وتطور صياغات السيمانتيكا النصية، ومعالجة الشبكات السيمانتيكية الكبيرة والمعقدة، وتأمين مبادىء متطورة لعملية التشفير وخاصة ما يتعلق بالقواميس الكبيرة . وعند سلوكوم افق هام للتطور المنشود لانظمة الترجمة الآلية الكبيرة ـ وهو ضرورة اتمتة نفس عملية البحث. ويرى انه لم تعد الطرق اليدوية في بناء وتشكيل النماذج السيمانتيكية مقبولة في الاستخدام بالانظمة الكبيرة.

تتشكل انظمة الترجمة الآلية المعاصرة من انظمة مجمعاتية تعمل على مختلف النظريات اللغوية، وتمتلك المخرجات لمختلف المشكلات المعلوماتية.

ومن المشاكل الاساسية اللغوية التي تواجه تطور الترجمة الآلية تشكيل أو صياغة سيمانتيكا النص وادخال المعارف في التراكيب والنماذج السيمانتيكية. وتحل جميع هذه الاشكالات البحوث الجارية في تطوير الذكاء الاصطناعي التي تفصح عن آفاق بحث علمية لغوية واسعة.

انظمة ترجمة نموذجية

نظام سيلود: يؤمن هذا النظام في الاتحاد السوفييتي الترجمة المعلوماتية والوسيط النصي للترجمة وكذلك الترجمة النصية التقنية. ويحتوي على مترجم جامع برامجياتي ومترجم جامع قاموسي آلي. ويستخدم هذا النظام عادة في الصناعة.

لقواميس هذا النظام عام ١٩٨٧: الانكليزي ـ ١٨ ألف كلمة و١٢ ألف مصطلح (idiom)، الفرنسي ـ ١٠ آلاف كلمة و٤ آلاف مصطلح، والروسي ـ (٤٥٠٠) كلمة وألف مصطلح، وكذلك توجد قواميس لغات اخرى. هذا فيما يخص مدخلات الكمبيوتر ـ النظام. أما قواميس المخرجات فهي: الروسي ويحوي ٥٠ ألف كلمة، والانكليزي ويحوي (٣٥٠٠) كلمة. وتوجد قواميس مخرجات اخرى.

يشمل النظام تراكيب سيمانتيكية. واعدت القواميس الآلية على اسس التقنية الكمبيوترية وشيوع استخدام آداب المخاطبة. ويتسع المترجم الجامع البرامجياتي لذاكرة

فعالة بقدرة ١٢٠ كيلو بايت بينما يتسع قاموس المدخلات الذي يحوي ١٥٠ ألف وحدة لثلاثة ميكابايت. أما قاموس المخرجات الروسي فيتسع لاربعة ميكابايت.
ويستخدم هنا النظام لغة PL - 1 ولغة التجميع.

من انظمة الترجمة الآلية الصناعية المشهورة الاخرى نظام تيتران الياباني، ونظام آنراب السوفييتي، ونظام ميتال الاميركي. وفي صنف انظمة الترجمة المتطورة يحتل نظام روسلان الجيكي موقفاً متميزاً. وتصاحبه انظمة مثل نظام ترانسوفت الاميركي ـ الالماني المشترك، ونظام ياراب السوفييتي.

خاتمة

لو حصرنا تطور العلم والتكنولوجيا طيلة تاريخ البشرية كله بمقياس عام واحد لاتضح ان الفترة الممتدة منذ اكتشاف النار حتى ظهور اول اداة حجرية قد استغرقت ٩ اشهر، أما احدث اكتشافات اسرار الطاقة النووية والالكترونيات الحديثة الصغيرة والليزر فقد استغرقت الفترات المارة بينها ثوان فحسب!

في مثل هذه الفترات المحسوبة بالثواني ستظهر في المستقبل مصانع الميتالوروجيا والمختبرات البيونكية والبيوتكنولوجية على متن الاقمار الصناعية، والبيوت مع ساكنيها في قاع المحيطات، وستشمل الانظمة المعلوماتية كل نواحي حياة الانسان والمجتمع.

تتحول البشرية أكثر فأكثر الى اسرة عالمية واحدة ويزداد تكاملها في ظل التقدم الهائل العلمي ـ التقني والتبادل المعلوماتي. بينما يعتبر قلب الثورة العلمية ـ التكنولوجية الآن تولي الوسائل التقنية انجاز مهام الانسان الوظيفية. لقد اصبح العلم والتكنيك اليوم اساس الانتاج المادي.

هذا هو العالم الذي نعيش فيه على اعتاب الالف الثالث ـ وهو عالم مفعم بالآمال، فالناس لم يكن في متناولهم بهذا المقدار ما يلزم لتطوير الحضارة. وهو في الوقت نفسه عالم مثقل بالمخاطر والتناقضات ويمد بأكثر فترات التأريخ قلقاً.

* الخوارزميات: جمع كلمة خوارزم. وتعني تعاقباً محدداً من التعليمات الموصوفة جيداً مع توفر الخصائص التالية: ١ ـ لا يوجد غموض في أية تعليمة. ٢ ـ بعد تنفيذ تعليمة معينة، لا يوجد غموض في تحديد التعليمة التالية. ٣ ـ يجري بلوغ تعليمة انتهت (Stop)، دائماً بعد تنفيذ عدد محدد من التعليمات.

** البايت (Bute) ـ وحدة قياس الذاكرة في الكمبيوتر. وهي مجموعة ارقام ثنائية متجاورة وتكون عادة اقصر من كلمة.

*** لغة التجميع (Assembler) ولغة PI - 1 من اللغات الخوارزمية .

المصادر :

(١) المكائن الذكية: مقدمة لآفاق الذكاء الاصطناعي والروبوتيكا.
وليم. ف. جيفارتر ـ ١٩٨٥ /نيوجرسي/ الولايات المتحدة.
(٢) الذكاء الاصطناعي ـ مرجع من ثلاثة اجزاء.
تحت اشراف البرفيسور بوبوف أي. ف ـ ١٩٩٠ /موسكو.
(٣) الأدمغة والسلوك والروبوتيكا.
جيمس ساسرا البوس ـ ١٩٨١ /كوينسي الشمالية/ الولايات المتحدة.
(٤) قاموس التقدم العلمي التقني.
١٩٨٧/ موسكو.
(٥) الرياضيات والخوارزميات.
البرستون م. د.، وهيتجسمون جي. بي ـ ١٩٨٨ / الولايات المتحدة.
(٦) معجم مصطلحات علوم الكمبيوتر.
د. عبد الحسن الحسيني /١٩٨٧.
(٧) الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته.
جين ـ باسكال اوفوت وريجارد سكومبرغ. ترجمة: طارق الذهني ١٩٨٩/ سوريا.
(٨) الثقافة الجديدة ـ مجلة الحزب الشيوعي العراقي.
(٩) المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفيتي. وثائق.


أدب وفن

المعلقات العراقية (١)

أكراد رحل

أنور الغساني

فِراشٌ سَهلٌ
جبالٌ تحاذي الرعب
بالزرقة مُعتَفرة
بين القمة والهاوية
بين الشوك
والسهل المرقط بالخراف
بين السهل والسهل.
لن يناموا في طَفَل العشيِّ
سيغادرون ولن يلمسوا
كِسَرَ الكلس الوفير.
يمضون فرحين بصلادة الأرض
وبالصخور النواتي.

والصخور. بثقت الماء،
والماء، قبلهم، هنا، كان.
الأفواه تستطعم الحليب
الأقدام تأرق
الارض تستهلك دماء السيقان
لكنهم يئدون الصراخ
منتظرين التلامس في الليل.
الصباح ينزع الخمور عن السماء
يُملِّد الارض بضوء غازيّ
فيتوقون الى الطريق
المتسامية عليهم
المستنيمة للاقدام.
يخلفون الارض المكتشفة
فتضمحل المسافة ويظل المجهول.
خرشفة في حناجرهم
وكلما تهم تتصادم كالاخشاب
بأصواتهم يُفَصِّحون الاحجار
وبالبصاق يرجمون العوائق
ثم يفلتون بأجسادهم
ليظهروا من وراء الجلا يد
وقد نقّاهم العشب من الاوضار.
يصلون بعد تجمد السيول
فيجدون الهواء المُرقق للماء يسيل.
يصلون وقد هشموا كريستال الماء
فيمسدون جباه البغال ويبنون البراذع
وينسجون النُطُقَ والارسان محلاة بالشراريب.

من أجل هذا أنفقوا السنين
حتى نسيت وجوههم زُرقة الشَعْر
وابيّض تقرن الجلود.

يحلون حيث الربيع،
فتتابع شفاههم الاحاديث،
تأخذ لفظاً مُطوّفاً هنا
ولفظاً من هناك.
وبينما هم في هذا الشأن أو ذاك
يدركون أن الوفرة والدسم
سيكونان في الاشياء
وأن غيابهم بالتتابع أكيد
فيحنون الى الارض الصغيرة
حيث يقفون ويسقطون.
ثم تصيح امرأة: «خُدا، خُدا»
فيتلقون بدناً
يحمونه بالزفير
وبأكفهم التي متنت الخيام
أكف كالطيور، متوثة بالتراب.
وإذ يفهمون أنها قد تذكت بالاحداث
وأن نسج الاكسية كان راحتها
يتنازلون عن بعض طاقتهم للجبال
لملكوت التوت والجوز والبلوط.
هم أنقياء من الصدى الفائض
وهم الظل الابقى والالعاب،
والحصى والنوى،

صيغ اذهانهم المُستنطقة للارض.
يتقون بعض الخضرة،
تاركين الفضاء الازرق يبزغ
يُثبتون زمناً إختاروه
ليعرضوا تلاقيهم تحت نجمة الشمس
وهم سيظلون هنا
الى أن تشب النيران على القمم
فينتمرون مع العشب
مضيفين الى أعمارهم عاماً جديداً.

٢٣ ـ ٢٦ كانون الثاني ١٩٩٢

أسلاف المكيدة

صالح دياب

أغلب الظن
أنهم جاؤوا من الحنين
ولم ننتبه
كيف أشرقوا من كلماتنا.

بكَّائي وردةٍ
جئنا إلى بصيصِ ماء
- في مشارف أعمارهم -
أطفأه ركضنا الشاهق.

هم الذاهبون
حيث تقودهم خطاهم
الفائضةُ أصابعهم
وهم لا يعلمون.

إلى البيوت
تسبقهم أرواحهم
وأعمارهم تشلح نهارا
زائدا عن اللزوم.

بشرائط
زرق
وحمر
وحده الألم
كنار حياتهم.

رائحتهم
تهب من شمال الذكرى
وبقع أصواتهم
لما تجف في البيت.
ونذكر
أيديهم ميناء أيدينا
التائهة
وعيونهم لا تكف
عن النهار.
في النسيان
كانوا ينفترون.

عادوا بحسرات شاسعة
كأحلامهم
وبنتيجة:
أن الأشجار ان أمطرت

إنما تمطر
على الأسفلت.

أسلاف المكيدة
الذين صاروا في ذمة الحيرة
أنجزوا خيبتهم
وانحدروا باتجاه الكلام.

بيروت ١٩٩١

الى الاعزاء المشتركين والمتبرعين

حصل خطأ في رقم الحساب المصرفي المنشور في العدد الماضي. فنرجو استخدام الرقم الصحيح عند التحويل وهو 466184/12.
ولكم جزيل الشكر لدعم مطبوعاتنا لكي نستطيع ايصالها بأقل من ثلث كلفتها الى المواطنين المنكوبين بالدكتاتورية والتضخم الرهيب.

ثلاث قصائد

أحمد ديبو

نقرات

أحبك
هذا يعني
أنني سوف أركض كثيراً
حتى نهاية هذا المطر.

* * *

سيجيء العالم
مثقلاً إليك بقلبه
وتمضين أنت
بلا قلب.

* * *

صالح دياب
على طول النهر
ستفتقدك الأشجار والعصافير
ستحمل في يدك المفتاح
ولكن السماء مقفلة مثل كرة.

* * *

وأخيراً
دعينا من كل ذاك
الهراء
أنت لي
وكفى.

كلام

بالأزرق بحار العالم تتكلم
بالليلكي، الليلك يتكلم
بالبنفسجي البنفسج يتكلم
بالأصفر الخرنوب البري يتكلم
بالبرتقالي البرتقال الحزين يتكلم
بالأحمر الشفق والورد الجوري يتكلم
بالأخضر نباتات العالم تتكلم
وأنا بكل الألوان معك سأتكلم

رؤيا

من يسرق من قنبلة الصحو
شرارات الحلم؟

من ينسل عن سجادة المحبة
سلك البراءة؟
من ينزع عن قلب الحجر
صمت الكلام
وهأنذا . .
أبحث بين أشلائي
عن خلية واحدة
أبني عليها أيامي

تراكم رمادي
وغطاني

قصتان قصيرتان

ابراهيم احمد

اللجوء عند الاسكيمو

الى الصديق عبد الغني الخليلي

من كوة الكوخ الثلجي عند حافة العالم، احدق بالهاوية الكونية التي انفتحت امامي.. وقد تراقص القمر والنجوم بجانبي.. ولولا اني ارتجف منتظراً قرار ملك الاسكيمو لرأيت الله، هل سيقبلوني لاجئاً عندهم أم سيلقون بي من هذه الحافة الجليدية الشاهقة المطلة على العالم الآخر؟ تقاذفتني الدول كما كنا نتقاذف كرة الخرق في زقاقنا الموحل وكان عزائي دائماً انهم لم يسلموني الى السلطات في العراق.

نزلت مطار ستوكهولم. حقق البوليسي معي ساعات. رفضوا قبولي لاجئاً اذ اخبرتهم انني قادم من ليبيا بعد ان انهوا عملي، قالوا ان ليبيا موقعة على معاهدة جنيف ١٩٥١ للاجئين وكان علي ان اقدم طلباً للجوء هناك. خجلت ان اقول انني حاولت عبثاً مع الاشقاء للبقاء في ارضهم الواسعة الدافئة مذكراً بالدم الذي هو كما يقولون اهم عندهم من حبر المعاهدات وهكذا لاحقني صدقي وسذاجتي وبلاهتي.. طردوني على الحدود

الالمانية لاني قادم من السويد الموقع على معاهدة جنيف ١٩٥١ للاجئين. طردني الدانمارك لاني قادم من المانيا الموقعة على المعاهدة. رفضتني النرويج لاني قادم من الدانمارك الموقعة معهم على المعاهدة. ولم احتر لشيء قدر حيرتي ان كانت معاهدة جنيف مكتوبة بالحبر أم بالزئبق.. وعلى ورق في مكاتبهم الفخمة أم على شاهدة قبر جدتي؟

كنت ارسل البصر تائهاً متحيراً بين طريق هائل ترجه الشاحنات المحملة بألواح البيوت الجاهزة.. التي بدت لي كقطع من السماء، وبحر منجمد شاسع جعلني اكتشف اخطر نقص في تكويننا: لا نستطيع العيش تحت الماء. اذن الحيتان والكوسج لا يساوي صفعة أو كلمة مهينة من انسان. وقف بجانبي رجل عجوز يقود زحافة تجرها ثمانية كلاب.. سألني والثلج يتساقط من لحيته «هذا هو طريقي؟» قلت: «ماذا تقصد؟» قال: «ألا تعرف الاسكيمو؟ ألا تعرفني؟» اعتراني فرح غامر. فكرت. اذا كان هذا الرجل يعتقد انني اعرف طريقه فلا بد انني اعرف طريقي ايضاً. استيقظت فيَّ قدراتي على التنبؤ والتي قتلها الجميع منذ سنوات. قلت باعتداد «هو ذا» وعندما وجدت يدي تؤشر باتجاه البحر خجلت ولكن يبدو ان الهامي هو الذي كان يعمل. فقد قال العجوز فرحاً لقد انقذتني من نفسي، منذ ساعة وانا اقول لها، من هذا الطريق أتيت «سار قليلاً ثم زجر كلابه وتوقف، التفت اليَّ بحنو افتقدته منذ ان فارقت اهل قريتي قبل اكثر من ثلاثين عاماً»: اتريد ان تأتي معي؟ وجدت انني سأواصل غبائي وبلادتي اذا رفضت، قلت لنذهب الى الاسكيمو فهذا كل ما بقي لنا من العالم قبل مثلث برمودا. اجلسني الشيخ على جانب من مقعده الذي كان قد دفأه بجسده، وانطلقنا. لا أدري لماذا ذكرتني رائحة عرق الكلاب الراكضة على الجليد برائحتنا في احدى المظاهرات القديمة. اخرج الشيخ ثلاث قناني من الكحول قال انه استبدلها في «اوسلو» بصيد عام كامل من جلود الثعالب والفقمة والدببة القطبية. قلت: «حسناً فعلت».. «ولو عدت الى العراق لاستبدلت صيد ثلاثة اعوام من الدببة القطبية والفقمة والبطريق والطواويس والديكة والارانب.. بقنينة عرق واحدة». «قال الشيخ حسناً تفعل». فتح قنينة وقال «لنمزج اسمينا بالكحول»، نطقت اسمي فتجمد امامي في الهواء. ونطق هو اسمه فلم يتجمد ولكن لم يدخل رأسي المتجمد. اخذ يناديني «كي» ويبدو ان هذا هو ما علق في ذاكرته من «Iraki» ابتسم الرجل وقال «كي» في لغتنا تعني «قفل».. واعتقد انها في لغة الانكليز تعني مفتاح.. ماذا تعني في لغتكم؟

قلت: قفل.. ومفتاح.. ورقصة هز البطن.

قال الشيخ: لقد توقعت ذلك تماماً.

وفتح قنينة اخرى واخذنا نشرب من فوهتها. اخذت اغني للكلاب كي تسرع في

المسير، اوقفني الشيخ. قال: «كي» غناؤك حزين وسيء ويجعل الكلاب ترفع سيقانها لتبول، ظللنا نكرع الكحول ونلتهم شرائح نيئة من كبد ذئب البحر، ولم اشعر بما تبذله الكلاب من جهد واهتمام وهي تقطع بنا البحر المنجمد وتزوغ عن التيارات الدافئة المنحدرة جنوباً.

قال الشيخ: «كي» اتسمح لي ان ابقي نصف هذه القنينة لزوجتي... اريد ان احذف بها ستين عاماً من عمرها.. هذه الليلة.. ثم اغمض عينيه ونام. اعترتني رهبة. كيف امسك زمام الزحافة؟ أي الطرق سأسلك في القطب؟ كانت هالة القمر تلامس الثلج وبدا ان الزحافة تصعد بنا شبكة الضوء الى السماء. قلت لاترك الامر للكلاب والقمر وانفاس الشيخ التي احسست بالكلاب تمشي على هديها. وانصرف للتفكير بمعاهدة جنيف لعام ١٩٥١ للاجئين. لقد نمت، أحسست بالشيخ يهز كتفي ويصيح «كي - كي» لقد وصلت الاسكيمو، «رأيت رجالاً ونساءً بوجوه حمراء مستديرة ورؤوس بيضاء، يداعبون ذقني وانفي بذيول وزعانف السمك». افضل تحية عندنا.. قال الشيخ. طلبني ملكهم على الفور قالوا انه يريد ان يعرف نفسه بي. عجبت لهذا التواضع. ولكن خساسيتي من الحكام جعلتني اكتئب واتوجس خوفاً. وضع الملك سمكة صغيرة بيدي واجلسني على جلد الفقمة وظل يتبسم مرتبكاً... حتى زال ارتباكي. كانت حاشيته حوله وكان واضحاً انه يريد ان يحقق معي. ولكن حكام الاسكيمو على ما يبدو يستحون.

سألني بحماسة مباغتة. كيف تعاملون الكلاب في بلدكم؟ كنت اتوقع اسئلة عن معاهدة جنيف ١٩٥١ للاجئين. وقد اعددت اجوبة محكمة استناداً لبنودها.. وكما اوحت لي بها مسيرتي على الثلج.. وكنت قد قررت ان اكذب. وأكذب - ولكن سؤال الملك، اشعرني بحاجتي الى النوم..

قلت دون تفكير: «باحترام شديد. نضعها بمناصب رفيعة.. ومواقع عليا.. تنهش لحمنا.. ونعبدها.. سيدي» دهش الملك الكهل وقال:

- ومن يجر الزحافات عندكم؟

تثاءبت. وصرت اول رجل في العالم يتثاءب في حضرة ملك ولا يقطع رأسه. قلت بعد هنيهة طمأنينة:

- لدينا سيارات وبترول. سنهبكم شيئاً منه يا سيدي.

ابتسم الملك بحياء.. كعذراء تصد اول قبلة. وقال:

- لا. شكراً. نحن في برد وسلام.

والتهم حفنة من الثلج.. وقال:

- والاسماك؟ كيف تعاملون الاسماك؟

سؤال آخر غير متوقع. لا تسعفه أكاذيبي المعدة. ولم يبق سوى قول الحقيقة:
- بمنتهى الكرم سيدي.. حتى اننا نطعمها لحم جنود اعدائنا، ولحم جنودنا ايضاً.
ظهر على الملك الاشمئزاز، فأسقط قطعة من السمك النيء من فمه. واخذت حاشيته تتململ.
ظل الملك مغتماً، مهتاجاً. اتكأ الى الخلف كمن اصيب بخيبة امل.. وانقلبت وجوه الجميع. داهمني خوف وهم واخذت ألوم نفسي على تمسكي بسذاجتي وبلاهتي. وجلبي لنحسي وبلائي الى هنا. اقتادوني الى هذا الكوخ، ولكن ليس بالقسوة التي كانوا يقتادوني بها في المطارات.
ها هو الثلج يهسهس تحت اقدام متراكضة. ثلاثة رجال. بأيديهم فانوس تفوح من زيته رائحة السمك. ويضيء وجه فتاة جميلة.
فتحوا جلد ذئب جاف. وقالوا انه قرار الملك واخذوا يقرأون بخشوع: «لا تطلبوا منه العودة ألا حين تسمعون.. ان الكلاب في بلاده قد عادت لجر الزحافات. والناس لم تعد تأكل لحم ابنائها المختبيء في بطون السمك». ودفعوا الفتاة الجميلة الى الكوخ، قالوا انها احبتك منذ رأتك تهبط من الزحافة وقد بارك الملك حبكما. كانت في السادسة عشرة، بضة، شقراء، فاتنة. دخلت الكوخ وشرعت توقظ اعوامي الخمسين الميتة في جسدي الهزيل. هذه الليلة لن اتحسر على شيء في العراق.. سوى على تمره الذهبي.

تمثيل

كان جليل الواسطي بغرفته المؤجرة في بيت قرب محطة «النيوكتي» في بودابست عندما رآهم في التلفزيون يحتفلون بيوم المسرح العالمي. تذكر انه التمثيل، شاغل عمره يقول انه امضى سنوات في المنفى وربما سيمضي سنوات اخرى من اجل ان يمثل بنقاء كالحلم، كان عضو الفرقة الوطنية. احس بنشوة حزينة وهو يستعيد ادواره ووجوه زملائه وادوارهم المتألقة. بعضهم معه الآن في المنفى، بعضهم قتل أو شرد، وآخرون بقوا هناك يمثلون ويعانون، يقارعون بصمت أو يساومون.. ولكي لا يخزن توقه للتمثيل في صدره ويتكلس ويتحول الى ورم قاتل... كما يقول.. فقد اخذ يسربه الى الحياة ويخلطه بتصرفاته ومواقفه بين الناس، وجعل الشوارع والبيوت.. والساحات امتداداً لمسرحه. حتى صار من الصعب فصل تمثيله عن سلوكه الحقيقي معللاً ذلك «لا يجري الممثل على

المسرح عفوياً سلساً ما لم تطحن الايام عظامه» احتسى كأساً من البالينكا، ثم لاح له من النافذة كشك الهاتف العمومي القريب من البيت، كان قد لاحظ ان هذا الهاتف منذ يومين قد اعترته نوبة كرم مفاجئة. . وصار شيوعياً قبل دولته، اذ يعطي خطوطاً ومكالمات الى أي بلد في العالم دون ان يأخذ نقوداً. نزل اليه الواسطي وقد قرر ان يمثل. أدار رقم هاتف المسرح الوطني في بغداد وجاءه صوت عرفه فوراً «صوت جبوري»، أما زال هناك؟ يجلس في غرفة الاستعلامات أو عند شباك التذاكر يشرب «العرق» وينتظر ان يؤدي دوراً صغيراً يتلقى عليه حفنة من التصفيق أو الصفير ونقوداً تمكنه ان يكمل شربه كل ليلة في احد البارات أو النوادي ـ كان الصوت يصيح باسترخاء «هلو». وجد الواسطي انه الآن فقط مرتبك ومتلجلج. ولعن لحظة الحنين التي وجدها تُفقِد، حتى الممثلين قدرتهم على النطق ـ لكنه تمالك نفسه وقال:

ـ هل جليل الواسطي. . يشترك في تمثيل مسرحيتكم هذه الليلة؟ قال جبوري وقد اعتراه حماس مفاجيء:

ـ نعم وبدور رائع.

ذهل الواسطي. كل ما كان ليتوقعه ان يقولوا «لا» وقد قرر ان يمثل دور احد المعجبين ويمتدحه ويطلب اليهم دعوته للتمثيل ويحرجهم. لكنه وجد ان قنينة العرق التي يضعها عادة جبوري تحت كرسيه، وكرشه المندُلق. . تفعل الاعاجيب هذا اليوم.

قال: امتأكد؟ جليل الواسطي نفسه. .؟

رد جبوري: نعم. . وهل صنعنا واسطي آخر.؟

تذكر صوره وصور الممثلين اصحابه المعلقة عند صدر مدخل المسرح. . اراد ان يعرف هل ما زالت هناك. وهل هو يقصده حقاً!

ـ قل لي توجد صور تجمع الممثلين عند باب. . .

وقبل ان يكمل. . بدا ان جبوري وقنينة عرقه تفهمان كل شيء:

ـ نعم ما زالت هناك كل الصور، وقد اضفنا لها صوراً بأدوارهم الجديدة. . ماذا. . هل سمعت ان زلزالاً. . . ضرب المسرح الوطني؟.

تصور الواسطي انه يستطيع ان يهشم قنينة عرق جبوري. . بهذا الطلب:

ـ هل استطيع ان اتحدث مع جليل الواسطي؟.

رد جبوري باعتداده المعهود:

ـ بكل تأكيد، إنما هو الآن على المسرح. . انتظر سأرى فيما اذا انتهى من دوره. .

وألقى السماعة. فأحدثت صوتاً، كأنها اصطدمت بمنفضة سجائره الثقيلة. عجب. كيف لم يعرف جبوري صوته. وكان يسمعه كل يوم في صحوهما وسكرهما. هل غيرت

صوته الغربة. والانقطاع الى هذا الحد؟ أم ان قنينة عرق جبوري تلعب بمرح عظيم؟

وجاءه صوت آخر. . وبقدر ما يميز الانسان صوته، أحس الواسطي انه صوته تماماً، ولهجته ذاتها عندما كان يتحدث مع المعجبين والمعجبات اللواتي يطلبنه.

فقد قال، نعم. . تفضلوا. . يا مرحبا.

قال الواسطي كالغاضب:

- من يتكلم؟

رد الصوت:

- جليل الواسطي. . .

- أمتأكد؟

- نعم أنا جليل الواسطي. . وهل هناك واسطي آخر. . وجد جليل ان لعبته قد انقلبت عليه. وان كشك الهاتف اخذ يهتز ليس من الريح فقط، وانه فقد ليس قدرته على التمثيل، وإنما قدرته على مخالطة الممثلين ايضاً. . ولكنه قرر ان يواصل التمثيل فقال:

- ولكن يقولون ان الواسطي قد غادر العراق.

- هناك شخص مجنون أو مصاب بالفصام. . . كان يحلو له ان ينتحل شخصيتي. . وربما هو الذي غادر العراق. .

اخذت الريح تصفع كشك الهاتف. . ولكن الواسطي قرر ان يسدد ضربته الاخيرة فقال:

- عفواً لم افهم من الذي غادر العراق. . المجنون أم حضرتكم؟

جاءه الصوت من هناك. وقد خالطته نبرة هلع وفزع ظاهرين:

- سأغلق الهاتف. انهم يدخلون اسوداً ونموراً. . وكما سترى ان مسرحيتنا تقتضي وجود حيوانات مفترسة. . .

جهاز الدوران

سلام صادق

في كل مرّة يجد (س) نفسه فجأة في محطة القطار، التي تبعد مسافة لا يستهان بها عن مسكنه، ويجد مسافراً ما يتعين عليه ان يودعه أو آخر يستقبله، وفي احدى الليالي القارصة وجد نفسه هناك، ليس كالعادة فقد كان الوقت متأخراً، ومن دون ما احد لكي يقوم بتوديعه أو استقباله، فالمحطة كجثة هامدة لا حراك فيها، وصفوف الكراسي الممتدة على مدى البصر شاهدة على ذلك، فقد كانت فارغة تماماً إلا من بعض اكياس فارغة وصحف نفد مفعولها فأخذت تعبث بها الريح المندفعة من البوابة الحديدية العملاقة. رشف رشفات عميقة متتالية من سيكارته التي اشعلها للتو، وراح يجر خطاه المثقلة ببقايا الثلج على حذائه الجلدي الطويل باتجاه بار المحطة. اقتعد كرسياً ما بمواجهة البوابة الحديدية الواسعة التي تفضي الى مرآب الافاعي التي تنفث الدخان كما اعتاد ان يصفها، ثم استدار الى نادلة البار الغارقة في النظر الى اعلان تجاري عن سيارات الفولفو عُلق في ساعة مبكرة حينما كانت منهمكة في عملها اليومي.

طلب قهوة مُرة، بدأ يرتشفها ببطء وكأنه يريد البقاء حيث هو فترة اضافية يمنح خلالها جسده المرتعد توازنه وثباته باختزان اكثر ما يمكن من الدفء الذي يغمر المكان، تناول صحيفة ما دون ان يأبه الى تاريخ صدورها، فوجدها كالعادة تغصُّ بمانشيتات عريضة تفوح منها رائحة القتل والكوارث والمجاعات، قطع قراءته مراتٍ عديدة فعيناه تهفوان بدون ارادةٍ

منه الى لقاء غير موعود، ربما عند بوابة المحطة الحديدية الواسعة، لعل شخصاً ما يعرفه يأتي ولو بالمصادفة فيدور بينهما حوار طويل عن الكثير الذي جرى، ذلك لان هذا الشخص ليس على سفر بالتأكيد فالمحطة فارغة ولا قطارات صاعدة أو نازلة في هذه الساعة المتأخرة، ولا شيء يوحي بالحياة سوى الاضواء المعلقة على مفاصل السكك التي تتقاطع امام ناظريه كالصلبان على القبور الصخرية.

وبعد ان ملأ رئتيه من الدفء الذي سيحينه ـ كما يرى ـ على مواصلة طريقه الخائبة الى مسكنه، همَّ بالمغادرة متناولاً معطفه وقفازاته الصوف من الكرسي المجاور، في تلك اللحظة تناهى الى سمعه صفير آخر القطارات العائدة، من اين؟ لا يدري فقد دهمه قلق ما، مبعثه يصعب عليه تشخيصه، بأن شخصاً ما يعرفه قادم على هذا القطار، فقفل عائداً الى الرصيف بدلاً من ان يجتاز البوابة الحديدية الى الخارج، وحاول التطلع في وجوه جميع المترجلين قدر ما تسعفه في ذلك عيونه التي غشيها النعاس. ولم ينج من فضول بصره الضروري آنذاك سوى اولئك الذين هم على عجلة من أمرهم حيث الهدف الاخير للرحلة واضح لديهم، أو الحريصين على الوقت من الذين لا يستسيغون خسارة اقرب سيارة اجرة الى بوابة المحطة، أو الذين يهرعون لارتشاف قبلة مشتهاة من شفاه حبيباتهم اللائي هنَّ بانتظارهم بعد غياب، ليس كغياب (س) على احسن الاحوال.

لاح له ضمن الرهط الاخير الذي ترجّل من القطار، رجل مسنٌّ ونحيف بنظارتين عريضتين تلوح عليه علائم الارهاق، يترنح في مشيته مائلاً الى الجهة اليسرى، تحت وطأة حمل ثقيل هو الحقيبة التي أر ادها رفيقة سفره. تقدم نحو (س) وسأل بوجل:

ـ رجاء الاخ عربي؟

لم يجب (س) على تساؤله برهة، ربما استهجاناً لكلمة (أخ) وطوى الاجابة في سره.

ـ الاخ.. ها.. مو انت أكبر من ابوي!

واستدرك فجأة لصياغة اجابته المعلنة والتقليدية فالرجل بانتظار هذا:

ـ نعم، تفضل.

انحشرت يد الرجل العجوز في جيبه وتناول قصاصة ورق صغيرة دفع بها لـ (س) وقال:

ـ هذا عنوان جماعة اعرفهم بهذي المدينة، ارجوك تشرح لي الطريق.

وفيما انهمك (س) في قراءة القصاصة، قفزت ذاكرته المذعورة عشرين سنة ونيف الى الوراء وقال لنفسه ـ هذا الصوت الاجش اعرفه تماماً قبل الآن.. لكن.. من هو الرجل.. يصحُّ ان لا اعرفه، فالاصوات تتشابه احياناً بقدر كبير. بادر (س) بايضاح الطريق، فبدأ

الـرجـل مربكـا وضـائعاً بين اليمين واليسار وتقاطعات الطرق والانفاق واسماء الشوارع والساحات، فتدارك (س) الموقف وقال له:

ـ يظهر هذي زيارتك الاولى لهذي المدينة.

ـ نعم.

ـ اذن من الافضل ان تأخذ سيارة اجرة، فالطريق معقدة والمسافة طويلة.

وكم تظاهر الرجل بالاصغاء، فقد كان (س) واثقاً من انه كان يهيم في وادٍ آخر، وكأنما هو افاق للتو من شبه غيبوبة، وكشف عن دهشة مفاجأة وارتبك قائلاً:

ـ عظيم يظهر الاخ عراقي، وهذا من حسن الصدف!

ـ وشلون عرفت؟

ـ من لهجتك..

ـ نعم عراقي.

ـ ومنين من العراق؟

ـ من العراق.

ـ ادري ومنين، العراق كبير، شمال وجنوب ووسط!

تأفّف (س) في داخله وقال:

ـ يابه، من بغداد.

ـ ومن يا مكان ببغداد؟

ـ من الكاظمية، وأجاب بشكل مسبق على السؤال الذي سيطرحه الرجل بالتأكيد، وبيتنا بالنواب.

ـ داعيك من اهل الكاظمية، وتناول الرجل يد (س) ضاغطاً عليها بكل ما تملكه قواه وبكلتا يديه المرتجفتين، وكأنما هو يريد لـ (س) ان يتحسس ثورة الدم والانتماء في عروق الجسد النحيل، وبضحكة فاترة مصطنعة كان باعثها الخجل ربما من التمادي في الفضول قال الرجل:

ـ والآن، انت ابن من، قل لي؟

تدارك (س) الموقف الذي بات يقترب شيئاً فشيئاً من حدود الجد وقال:

ـ طيب، يبين الحديث راح يطول، وانت يبين عليك تعبان، شنو رأيك نستريح شوية ببار المحطة، وكان (س) مدفوعاً لذلك بفضول له ما يبرره، تملكه اخيراً، يفوق في شدته الفضول غير الموجّه الذي مارسه الرجل طيلة فترة لقائهما، من اجل استجلاء حقيقة هذا الصوت الذي يعرفه تماماً قبل الآن. فوافق الرجل على ذلك.

عاد (س) الى بار المحطة ومعه ضيف ليس بالحسبان، أو هو غير الذي كان في

خاطره على اقل تقدير، وفي الطريق الى البار بدأ (س) يوطّن نفسه على قبول هذا الواقع الجديد، في اعتبار نفسه احد مستقبلي الرجل.

جلسا وقد تملك كل منهما فضول عارم لمعرفة المزيد عن الآخر، وبينما كان الرجل يرتشف فنجان قهوته الذي يوشك على السقوط من بين اصابعه مرات عدة، فيتقي ذلك باعادته الى الطاولة، بعد ان يفقد قدراً من القهوة يفيض في كل مرّة على جوانب الفنجان وعلى الطاولة ذات السطح الزجاجي، فينشغل بغمس اصبعه كأحد الاطفال في بقع القهوة معطياً لها اشكالاً وامتداداتٍ حسبها (س) الذي كان يراقبه عن كثب، خارطة لبلادٍ ما غير واضحة المعالم والحدود.

تنبه الرجل لما يفعل وابتسم مستأنفاً الحديث ومعولاً على ضرورة النفاذ الى قلب (س) اولاً:

ـ تعرف عندي قدرة على قراءة الفنجان.

ـ صحيح . . . وشيكول الفنجان؟

نظر في فنجانه الفارغ للتو، وأطال النظر بعمق فيما تخلف على الجدران وفي القعر من آثار القهوة الداكنة وقال:

ـ يكول راح التقي بشخص مفاركة من زمان، وبشكل مباغت، وربما يكون هذا الشخص أنت وابتسم ثانية.

ـ لا . . يجوز الجماعة اللي راح تزورهم.

ـ لا عزيزي . . الجماعة ما مفاركهم من فترة طويلة، العام الماضي تركوا سوريا، لكن ما انقطعت بيناتنا المراسلات ونعرف كل شيء عن بعضنا . . خير وشر . . ورغم طول المسافة، كأنما آني عايش وياهم.

عاد الرجل من جديد الى سلسلة اسئلته التقليدية التي انقطعت نظراً للاستغراق في تفاصيل اخرى، كانت ضرورية لاعطاء الجلسة بُعداً اكثر حميمية وانفتاحاً في لقاء غير مخطط كهذا اللقاء وقال:

ـ الآن ارجوك ما گلت لي انت ابن من؟

ـ بمساعدة الفنجان ربما تكدر تعرف الاجابة.

ـ لا يا عزيزي . . الفنجان لا يصدق دائماً وخاصة في المسائل الجدية والخطرة، وبعدين ما يعطيك تفاصيل محددة كالاسماء والارقام والتواريخ، والامر يعتمد على قدرتك في استثمار المعلومات الاولية الموجودة في الفنجان واللي هي غير قاطعة أو صحيحة تماماً وبناء جملة استنتاجات على اساسها باستخدام الخيال بشكل يقربك خطوة قصيرة من الواقع.

ـ طيب. . يجوز ما تعرفنا، آني ابن حجي حسن.

ـ بس لا تكول حجي حسن أبو الچوادرا!

ـ نعم.

ـ هذا يعني انت ابن اخوي. . شلون ما اعرفك.

فألقى الرجل رأس الخيط الضائع، وبطبيعة الحال سيجره هذا الى طرح المزيد من الاسئلة بدون حرج أو خجل هذه المرّة، يشفع له في هذا انه يعرف الآن عن (س) ما لا يستهان به كأساس لجلاء الامر برمته.

ـ بس انته يا هو منهم، ولد حجي حسن هواية الله يخليهم!

ـ آني اصغرهم.

ـ واخوتك البقية وين. . هنا بالخارج؟

ـ بدا (س) اكثر دبلوماسية في اجابته، لان السؤال المطروح عليه كان قد طرحه على نفسه طويلاً دونما اجابة شافية، فآثر تناسيه بعد عناء طويل، عازماً على ان يهجر تلك الدّوامة من الاسئلة الكبرى واجاباتها المفقودة التي ما برحت تعذبه وتثقل ذاكرته فقال:

ـ لا. . ما موجودين لا بالداخل. . ولا بالخارج.

ـ يعني ماتوا كلهم. . استشهدوا!؟

قالها الرجل وقد شحبت عيناه الصغيرتان اللتان تبدوان اكبر بكثير من حجمهما من خلل زجاج نظارته السميكة، وراح يبلع ريقه مرات عدّة في وقت قصير، وبدا وكأن ليس لديه طاقة على طرح المزيد من الاسئلة، ومات فيه ذلك الفضول العارم فجأة. ولم يمتلك الجرأة ولو للسؤال عن الطريقة التي استشهدوا بها، أو ربما لان هذا السؤال هو الوحيد الذي لا يستحق الطرح في هذه الايام، حيث الاجابة عليه معروفة مسبقاً لدى الكثيرين. وساد بينهما صمت استغرق وقتاً لا بأس به، لم يكن دقائق حداد متفقاً عليها على أية حال، بقدر ما هو ضروري لكي تستغرقه دمعتان ثقيلتان من عيني الرجل في طريقهما لسقي وجنتيه الذابلتين، وقال كلمة واحدة جشّاء لا أكثر:

ـ اوف. . .

انتابته بعدها موجة من السعال، بدا خلالها متهالكاً في كل عضو من اعضاء جسده، لكنه ما لبث ان تماسك قليلاً مُصراً على استئناف الحديث، غير ان الاسئلة التي اعتاد طرحها سابقاً اتخذت الآن شكل اجابات جاهزة بدون ما اسئلة مطروحة من قبل احد.

ـ أوف. . واحد منهم كان تلميذي بالثانوية، آني حجي مجيد مُدرس الصحة.

وكان المدرس مجيد كأنما يتحدث لنفسه لاغياً تماماً وجود طرف آخر في الجانب الآخر من الطاولة، أو كأنما هو يمارس هذيانه مع نفسه مصحوباً بأنفاس ثقيلة تخرج اجباراً

من رئتيه، يصحبها صوتٌ اقرب ما يكون الى اللهاث، ليس من جراء سفرته المتعبة الى هذه الاصقاع وانما السفر الطويل الى وراء داخل الزمن.

خفف من وطأة الصمت الذي ران على المكان صوت (س) قائلاً:

ـ هو آني سعيد.

لم تبدو على المدرس مجيد أية ردود فعل حادة كانت متوقعة من قبل سعيد، فقد اتضحت امام المدرس مجيد تفاصيل الصورة تماماً وبدا مشغولاً في ترتيب هذه الاوصال المبعثرة للصورة داخل اطار يزيدها وضوحاً، ويقربه من البرهان الذي كان متلاشياً الى وقت قصير، والذي يمثل الآن امامه مُجسداً بكل تفاصيله البشعة.

في الوقت نفسه قفز الى ذهن سعيد السؤال الكبير الذي تكمن فيه جميع الاسئلة التي يطرحها استاذه مجيد وسواه، والماثل للآن بدون اجابة.

التاريخ ؟/؟/١٩٦٨.

الدروس: مبادىء الصحة العامة.

الموضوع: جهاز الدوران.

السؤال الاول: تتبع قطرة الدم من الاذين الايسر حتى الشريان الابهر وبالعكس؟

وهل لقطرة الدم ان تطوي المسافات؟ واذا سلّمنا بهذا فهل لها القدرة على العودة الى المنبع، قالها سعيد في نفسه بينما هو يهمُّ بالوقوف ايذاناً بالمغادرة فعل المدرس مجيد ذلك ايضاً. تعانقا وكانا آخر من غادر المحطة الى الخارج حيث موقف سيارات الاجرة التي عاد اغلبها للتو، استقل المدرس مجيد احدها مودعاً باشارة من يده التي مازالت ترتجف، مغادراً الى عنوانٍ جديد على قصاصةٍ من الورق، بينما التفت سعيد الى الخلف حيث المحطة التي غطّت في نومها من جديد، ملقياً نظرة اخيرة على خطوط السكك التي تتقاطع امام ناظريه كأفاعٍ من الحديد التي تمتد الى ما لا نهاية في ارض الله الواسعة.

السويد ١٩٩١

الطريق الزراعي الطويل

نجم والي

[الى وليد هناك في الكارثة]

كان يجران خطواتهما بتعب، وكأنهما يسيران منذ زمن طويل، عندما توقف فجأة احدهما. كان في عينيه يلتمع ما يشبه الالم. في عينيه بالذات، اللتين كانتا سوداوين، ومحجريهما اللذين كانا اسودين ايضاً. استرد انفاسه لبرهة، ثم بدأ في الكلام بصوت جاف ومرتجف.

ـ هه. لا استطيع التحمل بعد. ان يكون الفلاحون بهذه الجلافة! هل كنت تتصورهم على هذه الشاكلة؟

كان يسعل، وكان وجهه عريضاً، مليئاً بالتجاعيد، رغم انه لم يتعد الثلاثين، فيما كانت عيناه مازالان تدوران في محجريهما الاسودين. أما الوجه، الفم، الانف وحتى العيون فقد بدوا وسخين، دهنيين. ولكن بالرغم من كل ذلك فان لون وجهه ظل محافظاً على بياضه الاصلي. كجبن. لقد بدا هكذا.

ـ آخ هؤلاء الفلاحون.. الكلاب، ولكن رغم ذلك بعض من البطاطا. قال الآخر.
ثم ضحك بمرارة ولبرهة قصيرة. كان صوته جافاً، مراً. لقد كان هو الآخر بنفس السن. يحمل كيساً صغيراً على ظهره. ظهرت عند عينه اليسرى ندبة عريضة وبالذات فوق الجبهة التي كانت وسخة جداً، قذرة، دهينة. كما هو جسده كله، أو كما هو الآخر

بالذات. وعندما كان يضحك كانت خصلات شعره الدبقة تقع على ذقنه. لقد كانت شقراء في الحقيقة، لكن لا يستطيع المرء رؤية لونها لوساختها. كان يزيحها بيديه، بعد كل ضحكة.

ـ ربما سنحصل على شيء!

قال الاول. أما الذي كان عنده ندبة فقد اخذ يهز رأسه. ثم ليواصلا السير بعدها.

كانا يرتديان ملابس عسكرية متهرئة وكان منظرهما يبدو بائساً جداً، بلا لون، بلا طعم، رمادياً، قذراً، دهيناً. وغالباً ما كانا يذهبان الى البيوت يميناً ويساراً. للبيوت التي يعتقدون انها غنية أو للبيوت التي يعتقدون انها فقيرة، أو هكذا ما كان يتضح من خلال حديثهما. ولكن كلما خرجا من هناك، كانا بلا حماس، يائسين مرة اخرى. أو بالاحرى دائماً. دائماً يائسين من جديد وبلا حماس مرة اخرى. لقد كان الجوع يلتمع في الوجهين، منطفئاً، بلا لون.

ـ آخ. النوم. يا عيني على النوم. اريد ان انام. دائماً، انام ولا اصحو مرة اخرى، ابداً.

قال احدهما.

تدحرج الاثنان. كانا يسيران ببطء كبير. أكياسهما على الظهر. وكانا تحت الاكياس نحيفين وجائعين.

ـ ها. آخ. ليست عندي رغبة بعد. لا استطيع التحمل اكثر. وانت؟

هتف ذو الوجه الجبني.

ـ كلا.

قال الآخر. ثم أكمل:

ـ ولكن ما العمل. اريد النوم. فقط النوم بعدها لا يلاحظ المرء أي شيء. لا يشعر بالجوع على الاقل. هل تعرف كم هو جميل النوم. النوم فقط. ولكن يجب ان نكمل السير.

ـ نعم.

أجاب ذو الوجه الجبني، ثم اردف:

ـ يجب ان نكمل السير.

لقد كان يبدو ضعيفاً جداً، هزيلاً، مريضاً بعينين سوداوين يستقران بتعب في محجرين هما الآخران أسودان، في وجه بلون الجبن.

كانا يواصلان السير، فيما كانت الشمس تتلألأ في برك مياه طين القرية، القرية ذات البيوت القليلة والمتباعدة الواحد عن الآخر.

ـ وانا اريد ان انام.

قال الآخر وتثاءب عالياً:

ـ الموت أو النوم. هكذا النوم طويلاً. الى حين يتحسن الوضع. أو سيان عندي. النوم طويلاً حتى يوقظني احد ويقول لي: الآن الوضع احسن. الى حين حدوث ذلك اريد ان انام. هل تعرف كم يكون ذلك جميلاً. الى حين انبعاث حياة اخرى. النوم فقط.

كان وجهه يحمر لانفعاله. ثم يصبح بعد ان يهدأ قليلاً ابيض، رمادي، كالمرمر، كالورق، كالجبن. هكذا ابيض. كان يقترب من ان يكون وجهاً بلون الجبن الواضح. ولكن وجه الآخر كان سلفاً اكثر بياضاً.

ـ انظر.

هتف ذو الوجه الجبني فجأة. كان يؤشر بأصبعه على حقل لم يتبينا ملامحه بدقة. لقد كان من الممكن ان يظناه كما يرغبا.

ـ لا ادري أي حقل. ولكنه حقل خضرة كما اعتقد.

قال ذو الوجه الجبني. اراد ان يستمر في سيره، ولكنه لاحظ توقف الآخر فأردف:

ـ ولكنك قلت قبلها، اننا يجب. . .

توقف قليلاً، ولم تترك عيناه الحقل فتابع:

ـ أليس كذلك، انت قلت ذلك، أليس كذلك، هناك عند الجهة الاخرى يجب ان نكون هذه الليلة، وإلا ستأتي الدوريات، الطائرات، لا ادري هذه الليلة عند الجهة الاخرى يجب ان نكون، أليس كذلك؟!

عندها كان على ذي الندبة ان يضحك عالياً. كان الضحك يضعه اكثر شباباً، ثم اخذ يربت على كتف زميله. فأخذ ذو الوجه الجبني يضحك هو الآخر، وبصوت عال. هكذا راحا يضحكان لبرهة.

وببطء اخذ الليل يُلَيِّل عليهما، على الحقل، وبدفء، فيما كان القمر يضحك بمحياه العريض. في البداية لم يتحدثا بشيء. ولكن عندما اصبحا قريبين من الحقل، بدءا يسعلان.

فسأل ذو الوجه الجبني.

ـ ماذا تعتقد. حقل بطاطا. أم خس. أم لهانة. أو بصل؟ يا عيني بصل! فأجاب ذو الندبة:

ـ سيان. اخرج الرفش الصغيرة من الكيس ولنحفر سنشم ما سيصل الى ايدينا.

فأجابه الاول بصوت ضاحك، ولكن مرتجف، متسائلاً، متشككاً.

ـ غريب. تقول انك خبير بالخضروات.

وجد ذو الندبة نفسه مرة اخرى مجبراً على الضحك. ثم ليفتح فمه :

ـ الخبراء تحت التراب. احفر يا صديقي.

كانا يحفران. ولم يعتقدا انه عمل جنوني. أو انه بدون امل. بل كانا يفعلان ذلك وكأنهما لا يريدان ان يعرفا.

ـ عرق، من اجل امنا الارض. .

قال احدهما بصوت تعب.

كان ذو الوجه الجبني يجفف وجهه من العرق. ثم بصق في يديه. ثم بدأ يهيل التراب.

كان ذو الندبة يحفر ايضاً، وكانت ندبته الحمراء العريضة، فوق العين اليسرى تعرق ايضاً فتضيف لزوجة الى الجبهة القذرة، الدهينة التي استقرت فوقها.

ـ استطيع تصور اجمل من ذلك!!

قال ذو الوجه الجبني. ثم انَّ، انَّ بصفير عميق طويل، رئوي. لم يكن يئن فقط. كان يسعل ايضاً.

ـ هه. أخ.

قال بخفوت:

ـ لا استطيع التحمل اكثر.

ـ استمر.

قال ذو الندبة.

كانا يحفران باستمرار. وعندما حاولا ان يجمعا ما حفراه. سمعا اصواتاً تأتيهما.

ـ أخ. انهم الفلاحون. هؤلاء الحمقى الاغبياء. الآن وبالذات، بمثل هذه الساعة!

هتف ذو الندبة، وحاول وضع ما جمعاه في الكيس. ثم جاءت الاصوات تقترب. كانت تتعالى اكثر، وتصبح اكثر وضوحاً. كانا خائفين. لا يدريان فيما اذا كانت تلك الاصوات، اصوات دورية ما أو اصوات الفلاحين. ولكن سيان، لقد كانت اصواتاً شبعة، وخاصة صوت ذلك الذي صاح بهم «توقفوا في مكانكم ايها اللصوص» كان صوتاً شبعان، صوتاً مدهوناً بالزبدة، والبيض والجبن واللبن. صوتاً شبعان وكفى. ثم نبح كلب بعدها. كان صوته هو الآخر شبعان. كان يجب ان يكون حيواناً قوياً.

ـ ها. ما العمل؟

قال ذو الوجه الجبني. كان يرتجف وكانت عيناه تتسعان من الرعب:

ـ انه كلب كبير من هذه الكلاب السلوقية العضاضة. اعرفها، لنهرب.

كانا يركضان. كان ذو الندبة اكثر هدوءاً من الآخر. كانا قد اخذا الرفشين معهما.

ـ الحمد لله.

فتح ذو الوجه الجبني فمه، ودخل الى احدى البرك. ولكنه لم يأبه لذلك: ـ لدينا القليل من البطاطا والبيض. عندنا ما يكفي، ثم هذان الرفشان، ربما سنجد شيئاً في الطريق.

وعندما انتهى من جملته ضرب بيده على الرفش الصغير المستقر في كيسه.

اضافة للرفشين اللذين حملاهما في الكيسين، فقد حملا في احد الاكياس بعضاً من البطاطا. بعض الازواج. نصف كيلو ربما. أما الكيس الآخر فقد احتوى على القليل من البيض. ثلاث أربع أو ربما خمس.

ضحك ذو الوجه الجبني ايضاً بعد ان انهى جملته. كان يشعر بان عليه ان يضحك عالياً. ولكن صوته كان يُسمع كما لو كان رنيناً لصفيح، بدون جرس، تعباً، بلا رنين، مضغوطاً كصفيح. سعل. أما الآخر ذو الندبة فكان كما لو انه يعض على تفاحة، اخرج صوتاً متكسراً:

ـ عندك الحق. عندنا البعض من البطاطا والبيض.

ثم فجأة اخرج صوتاً حزيناً، هو الآخر بلا جرس رغم انه حاول مزجه مع ضحكة بدت مفتعلة جداً.

ـ بيضة شْلَهّاني يايمه، ما رحت ويه هواي.

ولكن بالرغم من ذلك اخذ يجبر نفسه على الضحك. الضحك عالياً، وعندما كان يضحك كان يُسقط دائماً خصلاته الشقراء فوق اذنيه، ثم ليزيحها بيديه، دونما غنج، ليعيدها الى مكانها الاول فقط. ثم اخذ الاثنان بعد ذلك يعلسان بطاطا نيئة. لقد كانت البطاطا وسخة. ولكن هذا كان امراً ثانوياً. لقد كان لها مذاق. في الحقيقة لم يكن لها مذاق وهي نيئة. ولكنهما كانا يتذوقانها، هكذا لانهما لا بد ان يعلسا شيئاً.

ـ لذيذات جداً. أليس كذلك؟

سأل ذو الندبة، بينما كان يلوك البطاطا بشكل مضطرب، سريع.

ـ نعم.

قال الآخر وأكمل:

ـ عندما لا يملك المرء شيئاً.

توقف ذو الندبة عن المضغ وسأل:

ـ وماذا عن البيض.

مد ذو الوجه الجبني يده الى داخل الكيس ليخرج البيض. وعندما فتح يده كانت البيضات متكسرة. لقد امتلأ كفه الوسخ، الدهني بسائل لزج.

ـ اترك البيض لك.

قال ذو الندبة. ودون ان ينهي الآخر جملته دفع الآخر ما استقر فوق كفه الى فمه وهتف.

ـ ليس سيئاً.

فأجاب ذو الندبة، وهو يمضغ ما تبقى في فمه:

ـ يقولون يحوي البيض على فيتامين ب. ود. انهما ضروريان للصحة. ولكن البطاطا بروتينات.

فلم يجد الآخر غضاضة من الضحك، وان كان صوته كعادته، منطفئاً، منكسراً، بلا حماس:

ـ ليس بالبروتينات وحدها يحيا الانسان.

لبرهة كانا قد تركا القرية خلفهما. كانا قد استدارا الى طريق زراعي طويل. كانا يفعلان ذلك بلا هدف. وبلا هدف كانا يسيران، بلا رغبة، بلا إرادة. هكذا ببساطة، كما لو كان الامر يجري لوحده. بالصدفة.

كانت الشمس تتلألأ في البرك. وتنعكس في الداخل. لم يستطيعا ان يأكلا الكثير من البطاطا. كانا جائعين. ولكن البطاطا كانت نيئة. هكذا. ببساطة.

ـ هل عندك سجائر؟

سأل احدهما:

ـ كلا.

قال الآخر ثم علق: من أين؟

ـ السجائر العراقية حقيرة. لا تصلح. تافهة بلا طعم. جافة. قال الاول وصنع وجهاً غاضباً:

ـ يجب ان يدخن المرء انكليزية، امريكية، أو افرنجية. صمت برهة، ثم علق دون ان يترك غضبه:

ـ وسيان عندي. حتى لو كانت عراقية. وان تكن غير صالحة وتافهة. ولكن بطريقة ما، بطريقة ما يجب ان يدخن المرء شيئاً.

كان ذو الندبة الذي قال يجب تدخين الانكليزية. ثم تدحرجا بعدها، ببطء وببطء كانت الشمس تتجه الى الغرب.

ـ خبز. كم اشتهي رغيفاً من الخبز الآن.

قال ذو الوجه الجبني.

ـ ليس غير الخبز. مملكتي مقابل رغيف أو حناية*.

«لا يعرف الواحد ماذا سيحصل» قال ذو الوجه الجبني. كان يضحك بصوت خافت، ولكن ضحكته كانت مسطحة، ضحكة مصطنعة، مجبورة. ثم جاء الصوت الشبعان مرة اخرى «توقفوا» ليعقبه نباح الكلب المتوحش، النهم.

- الكلب يقترب منا.

قال ذو الوجه الجبني وكان يرتجف، وكان جسده رطباً، لزجاً.

- انه كلب عضاض. سلوقي كما توقعت.

كان خائفاً جداً يرتعش بأكمل جسده.

- ابق عند مكانك.

قال الآخر ذو الندبة.

كان صوته يرن مضغوطاً، جافاً، مطقطقاً.

- عندما يكون عندنا. افضل. مايزال الآخرون بعيدين.

- نعم.

قال الآخر وأكمل:

- الرفش عندك؟

لم يكملا كلاهما حتى كان الكلب السلوقي كما توقعه ذو الوجه الجبني عندهما. كان قوياً، كبيراً، شره الاسنان. «الكلاب السلوقية متوحشة». فكر ذو الوجه الجبني وكان يرتجف بطول جذعه.

وقف الكلب لبرهة بمواجهتهما مستعداً للانقضاض. الآن ادركا ان الامر اصبح جدياً. كان الحيوان يصر اسنانه بزئير متوحش. هكذا يصك على اسنانه، متوحشاً نهماً، نهماً بدموية. وفجأة قفز قفزة كبيرة، ليصرخ حينها ذو الوجه الجبني.

- النجدة، النجدة.

في ذلك الوقت اقترب المطاردون اكثر. لم يكونوا كثيرين، كانوا اثنين، ثلاثة، أو اربعة. كان من الصعب رؤية بدلاتهم في تلك الليلة الدافئة. دوريات؟ أم فلاحون؟ سيان. كانت اصواتهم شبعانة، دهينة، ممتزجة بالزبدة واللحم والتبغ. لم يركضوا. كانوا يسيرون بسرعة، اياديهم مضمومة بتعجرف، مضمومة في جيوبهم كما يسير الضباط. احد الاصوات الشبعانة هتف بالكلب ان يرجع. وعندما هم الحيوان بالرجوع. رأى ذو الندبة ذراع الآخر التي كانت دامية اللون، فيما كان وجهه مليئاً بالالم. كان هناك ما يخنقه عند الرقبة. وفجأة اخرج ذو الندبة الرفش، ليمسكها بيديه الاثنتين ثم ليحركها بالهواء، ولينهال بها كالبرق، فوق رأس الحيوان الذي كان يهم حينها بالرجوع. هكذا، مرة مرتين، ثلاث. ثم ليهدأ كل شيء. في البداية صرخ الحيوان. انّ بصرير وحشرجة، ثم هدأ كل شيء.

«مثل بريك السيارة» فكر ذو الندبة . وقذف بالمسحاة الثقيلة جانباً . حشرج الحيوان حشرجة واحدة مرة اخرى. ثم سكن الى نهايته .

ضحك ذو الندبة عالياً : ـ الوحش .

ثم ركضا سوية حتى تقطعت انفاسهما . واحد . اثنان كانا يركضان ، حتى لم يعد بامكانهما الركض بعدها لاجهادهما . هكذا ركضا ركضاً طويلاً . كان ذو الوجه الجبني يئنّ في الطريق . فيما كانت ذراعه تؤلمه طوال المسافة ، ذراعه التي كانت هشة ، متهرئة ، نازفة ويقوة . حتى انه كان يسعل الآن وبدون انقطاع .

ـ الحمد لله .

قال الآخر عندما اصبحا خارج الخطر . ثم مسح بكمه جبهته القذرة ، الوسخة ، الدهينة :

ـ نعم .

قال ذو الذراع الهشة . كان يحاول الابتسام . ولكن كانت فقط افتراهة :

ـ نعم . ولكن ذراعي والبطاطا وذلك الذي جمعناه .

ثم سعل بعدها . حينها انتفض ذو الندبة وصرخ عالياً :

ـ ماذا؟ البطاطا ، وذلك الذي جمعناه؟!

ـ نعم . بصل على ما اعتقد .

قال ذو الوجه الجبني .

كان يئنّ :

ـ نعم البطاطا وما جمعناه . نعم لم اعد استطّيع بعدها . ببساطة لم اعد استطيع ببساطة . هكذا ببساطة .

آه ذراعي .

عندها صرخ ذو الندبة مرة اخرى عالياً :

ـ آخ . ماذا ايها الغبي .

كانت عيناه تبرقان غضباً . ثم رفع ذراعه مهدداً .

فارتد ذو الوجه الجبني مذعوراً الى الوراء . كانت عيناه متورمتين ، وبيضاوين ، عيناه تلك السوداوان في محجريهما الاسودين .

ـ اسمع . لم اعد استطيع . لا اقدر . وانت؟ انت؟ وانت لماذا لم تفعل شيئاً . لماذا لم ترفع الكيس معك . . .

توقف قليلاً ثم أكمل :

ـ آخ ذراعي .

كان يئنّ مرة اخرى بصوت عال. كان انيناً مجرداً، انيناً غير منقطع.

عندها مسح ذو الندبة بذراعه جبهته الوسخة، القذرة، الدهينة الملتمعة وسط ذلك الليل الدافىء، الموحش، الصارخ بصمت، عند حدود الطريق الزراعي الطويل، الحدود غير المنتهية، أو ربما المؤدية والمتداخلة مع طرق ستكون هناك، عند الجهة الاخرى، حيث كانا يرغبان بنوم طويل ورغيف من الخبز.

- اخ نسيت.

قال ذو الندبة وبجفاف:

- ها. نعم ذراعك.

ثم اقتطع قطعة صغيرة من قميصه. وصلة قماش صغيرة. ركّعة. ركّعة لا اكثر ولا اقل، من مكان ما من قميصه، ركعة وسخة، قذرة، دهنية، حقيرة، لزجة، ثم ليربط بها الذراع اللدنة.

- اخ نحن الاغبياء.

علق.

- البطاطا الجميلة.

صمت لبرهة. وسأل الآخر دون ان ينظر الى وجهه الجبني، فيما كان يلف العقدة الاخيرة من الرباط:

- هل تعتقد ان ما حفرناه بطاطا.

فأجاب ذو الوجه الجبني، بصوت لم يخل من شيء من الانين:

- اعتقد انها بطاطا. أو بصل.

ثم هدأ بعدها:

- نعم البطاطا الجميلة. لولا ذلك الوحش.

أجاب ذو الندبة وقد انتهى من ربط الذراع اللدنة.

كان بالاحرى يريد ان يصرخ بصوت عال. ولكن صوته جاء بلا رنين، بلا جرس، بلا نغمة، تعباً، منطفئاً، منكسراً ليضيع وسط ليل بدأ يحتضن الجسدين المتعبين، عند حدود الطريق الزراعي الطويل، حيث استرخيا دونما حراك، قبل ان يصلا الى الجهة الاخرى، حيث كان يرغبان بنوم طويل و. . . .

هامبورغ

١٢ - ١٩٩١/٩/٢١

* رغيف خبز صغير تعمله الامهات للاطفال.

الحافات :

«هنا البصرة»*

يوسف ابو الفوز

عند الفجر وصلنا اطراف المدينة. الدخان يغطي سماء البصرة. اصوات القصف الايراني من امــاكن مختلفــة. على جانب الشـارع في ساحـة ترابية خلافـاً للاصـول العسكرية، تكدسنا فوق معداتنا، متوترين، لا نعرف مصيرنا.

ـ عريفنا! عريف شلاكه، الى أين؟

ـ الله وحده يعرف الى أين!

ـ وأنت ماذا تعرف؟

ـ حالي مثل حالكم.

ـ «حال السدانه بالماي».

نتذمر، نطلق شتائمنا على بعضنا البعض بصوت عال. لدونما سبب، وبين الحين والآخر يجد احدنا فرصة مناسبة لتبديد توتره فيطلق نكتة داعرة نضحك لها جميعاً وبعضنا يضحك دون معرفة السبب.

من مذياع سيارة التوجيه السياسي تنطلق اغنية مليئة بالصراخ:

* النص من مجموعة قصصية مخطوطة بعنوان (الحافات).

ـ «هنا البصرة

هنا البصرة.

هنا الشاعر

كتب شعره»

تنتهي لتعقبها اخرى:

ـ «لو حشّدوا مليون

على البصرة ما يكدرون»

قال جندي يجلس قبالتي لم اتبين وجهه أذ كانت تغطيه الخوذة:.

ـ المعارك لاتزال حامية عند نهر جاسم[1]، بالتأكيد سيرسلونا الى هناك.

جندي آخر يجلس الى جانبه، رد بصوت كدر:

ـ سيكون دمها للرجاب!

من يساري قال محمود بصوته العميق:

ـ يبدو ان «ابو نصيّف»[2] استطاب دم العراقيين؟

تخيلت نفسي مهشم الاوصال، منتفخاً، مشوهاً، ملقى على ضفة نهر كدر، دمي يسبح، يرسم على الارض خطوطاً متشابكة، والعقبان تعوم لتنهش جثتي، ورأيت زوجتي غارقة في السواد، ارملة صغيرة، حائرة، واجمة، ومض امامي وجهها الصغير حين ودعتني، كان قمراً مبتلاً بالدمع، همست لي من بين نشيجها وارتجاف شفتيها:

ـ مروان، هل ستعود لنا؟

ضممتها بود، وقلت واثقاً:

ـ سأعود يا عزيزتي، لا تنسي ان وحدتنا بعيدة عن مناطق الخطر.

كنت واثقاً، لان وحدتنا بعيدة عن مواقع القتال، وجبهتنا هادئة نسبياً، لم احسب انهم بهذه السرعة سيدفعون بنا للحافات الامامية من الجبهة، الى حافات الجنون أو الموت، واني سأجد نفسي بهذا الحال من التوتر حتى قبل ان اصل خطوط الجبهة، توتر جعلني اتشاجر اكثر من مرة دون ان اعرف لماذا!

كانوا قد اعطوا لفوجنا اسم احد الافواج التي ابيدت خلال معارك الايام الاخيرة شرق البصرة، وهذا زاد من احساسنا باننا سنحل محلهم، وزاد من نقاشات الجنود وهمسهم المشحون بالجد حيناً، وبالسباب حيناً آخر، ولا احد يملك الجواب الصحيح لكل التساؤلات التي كانت تفرقع هنا وهناك كحقل ألغام يتفجر، وفي داخلي كانت كلمات زوجتي تدوي كانفجار القذائف:

ـ هل ستعود لنا؟

ومعها اضيع في دوامة الاسئلة التي تدفعني نحو الاضطراب اكثر، وزاد من حنقي رفضي لعرض تقدم به والد زوجتي:

- يا بني، ان لنا معارف في اهوار الناصرية باستطاعتهم مساعدتك للاختفاء هناك، أما زوجتك فستظل في الحفظ والصون!

سيصونها والدها بالتأكيد، لكنني سافتقدها كثيراً، وقد تطول فترة الهروب، فمن يدري متى تنتهي الحرب؟ كيف ساطيق الحياة بعيداً عن حبيبتي المدللة؟ وهل ساطيق حياة الاهوار؟ وهل. . .

- هل ستعود لنا؟

فكرت مراراً بما رواه جندي التقينا‌ه، كانوا قد سحبوا فوجهم لاعادة تشكيله:

- طوال اربعة ايام بلياليها، انقطعت عنا المواد الغذائية والسلاح والذخيرة، حاول الايرانيون تطويقنا، ودارت معارك شرسة بالسلاح الابيض، اصطبغت الارض خلالها بالدم، كنا نقاتل، وفينا الرغبة للوقوع في الاسر، وفعلها البعض، كنا نقاتل ولا نريد ان نموت، نقاتل ونحن لا نرغب بالايرانيين يحتلون ارضنا، نقاتل ونحن ندرك انها حرب لا معنى لها!

- هل ستعود. . . ؟

استعرضُ وجوه الجنود الكالحة. من منهم لن يعود؟ من منهم سيعود في تابوت ملفوف بالعلم العراقي، أو مكتوب عليه كلمة «جبان»؟ من منهم سيكون «ضيفاً على الجمهورية الاسلامية»؟ من منهم. . . ؟ هل سأكون انا الذي لن يعود؟ انا. . .

- معارف. . . الاهوار!

هل ستحفظ لي الاهوار حياتي؟ انهم يشنون هناك حرباً ثانية. قادسية اخرى. هل ستصان زوجتي؟ انها تنتظر مولودها الاول، وربما سيكون طفلة، لها عينا امها الساحرتان، و. . .

- هل ستعود. . . ؟

حين تكبر ابنة الجندي، هل ستفخر بأبيها القتيل في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل؟

- حرب لا معنى لها!

وسط دوامة الاسئلة وضجيج الجنود، باغتني محمود:

- لا اريد ان أموت!

- وأنا ايضاً.

- سأهرب.

وبسرعة اتخذت قراري:

ـ خذني معك.

ـ حسناً، يا مروان، فكرت بك، ولكن كن حذراً وعلينا ان نجد نقطة البدء.

وجاءت!.

ارسلونا مع مجموعة جنود في مهمة عاجلة. لم نعرف الى اين، وما هي؟ قبل ان نصعد للسيارات، نشط محمود، تهامس مع بعض الجنود، اقلقني:

ـ ماذا في الامر؟

ـ لسنا وحدنا الذين سنهرب.

ـ قد ينكشف امرنا؟

ـ لذلك يجب ان نبعد عنا (الجِرْمس)[3]، سنجعلهم يركبون السيارة الثانية.

كانت سيارتنا المكشوفة تقل عدداً محدوداً نسبة الى السيارة التي تقدمتنا. وقف الجنود على جانبي السيارة، يتطلعون الى المدينة، شبه الميتة. كنا نتوجه نحو قلب مدينة البصرة.

قال جندي يقف الى جانبي:

ـ لا يتمكن اهل البصرة من الحركة، إلا خلال ساعات الصلاة، حيث يوقف الايرانيون القصف المدفعي.

قال آخر:

ـ وأين هم اهل البصرة، حتى يتحركوا؟

قال محمود بخبث:

ـ لكن «امل حسين» في برنامجها التلفزيوني «هنا البصرة» تقول ان «مدينة المدن» تعيش حياة طبيعية و. . .

عفط جاري مقاطعاً محمود:

ـ أيّ حياة؟ أي بصرة؟ هل تصدق التلفزيون والاغاني؟ لقد ربح العراق الحرب مئات المرات بالاغاني!

وبحركة مباغتة، غير متوقعة، ترك مكانه، ووقف وسط السيارة حنى جذعه قليلاً للامام، ورفع ذراعه الايمن فوق رأسه، وراح يزخ، يدبك بقدميه على ارضية السيارة، يدور حول نفسه، ويضرب بكفيه على رأسه وعجيزته بشكل متناظر ويغني:

ـ «هنا البصرة

هنا البصرة

هنا الازواج مِنْخَصْره»[4]

استبد بالجنود شيء من عبث، وراحوا يصفقون ويرددون بعده:

ـ هنا البصرة

هنا البصرة!

لكنه توقف فجأة، تقدم نحو محمود محتقن الوجه وصرخ:

ـ انظر، هذه هي البصرة.

سكت الجنود، لم يرد محمود. راح الجميع ينظرون بامتداد ذراع الجندي التي راحت تشير الى ما حولنا من خراب. من زاوية السيارة قال جندي آخر مخاطباً محمود:

ـ ألم ترَ على الطريق اهل البصرة الهاربين من مدينتهم؟

ربما لغاية في نفسه، وربما لغياب رجال التوجيه السياسي، و«الجِرْمس».

كان محمود يتكلم بجرأة، بأسلوب استفزازي مشاكس وساخر:

ـ لكن، ليس كل اهل البصرة.

صاح جاري بغيظ:

ـ يبدو يا محمود انك تتجاهل ما تعرف، وما ترى؟ «ليس كل اهل البصرة» هذا صحيح، لان الذين رأيناهم على الطريق هم فقراؤها فقط الهاربون الى السماوة والديوانية.

وبنفس الاسلوب، واصل محمود:

ـ واغنياء البصرة؟

ـ السادة الاغنياء هربوا، هربوا الى الكويت والسعودية بسياراتهم مصطحبين اموالهم وبناتهم المؤهلات للزواج.

.كنت طوال الطريق مضطرباً، وزاد من ذلك احاديث الجنود التي يعبرون بها عن سخطهم وقلقهم.

همست لمحمود:

ـ اني خائف.

ناولني نصف صمونة:

ـ خذ، خبرة الجنود تقول: يجب مواجهة الشدائد بمعدة ممتلئة.

لم تكن بي رغبة للطعام، كنت لا اعرف ماذا افعل! وكان محمود يبدو هادئاً، واثقاً من نفسه. محمود مثلي، مثل كل الجنود، شاب لا يريد الموت. هو قالها لي اكثر من مرة. تعارفنا قبل فترة قصيرة، حين ذهبنا في مأمورية مشتركة، وثق احدنا بالآخر، تحدثنا لبعضنا البعض عن حياتنا، حدثني عن عروسه والايام القليلة التي قضاها معها، وعن الذي سيفعله في اجازته القادمة، وعن الذي سيفعله لو توقفت الحرب، و. . .

حين التهبت الجبهة، شرق البصرة، قال لي:

ـ لو سحبوا فوجنا الى الجبهة، سأجن!

لغط الجنود مستمر. اصواتهم تتقاطع. البصرة شبه مهجورة. مررنا ببيوت هدمها القصف وتحولت الى ركام. بيوت محترقة يتصاعد منها الدخان. سيارات الاسعاف تمرق مولولة. قابلنا بعض الناس هاربين، لا يدرون الى اين. قال جاري بغيظ:

ـ الناس تهرب للحفاظ على ارواحها، وتترك بيوتها تحت رحمة الجيش الشعبي.

قال محمود بصوت مسموع:

ـ ولو عادوا فلن يجدوا شيئاً، النهب في كل مكان.

رد جاري بحنق:

ـ عيوني، حاميها حراميها!

كنا كلما تقدمنا، ازداد القصف، وانعدمت حركة الناس. بدأ الجنود يتذمرون، ويصرخون، ويطرقون ببساطيلهم واعقاب البنادق على ارضية السيارة. اوقف الضابط سيارتي «الزيل»:

ـ ترجلوا.

القصف يشتد. يزداد كثافة. سباب الجنود لا ينقطع. صرخ الضابط:

ـ انتشروا، احتموا بالاستفادة من المكان.

سحبني محمود من ذراعي:

ـ فرصتنا الذهبية.

احتمينا خلف جدار متهدم، وبالاستفادة من المهارات التي اكتسبناها كجنود، تسللنا بعيداً عن السيارتين. لم نكن وحدنا، كان معنا آخرون. وفي اول منعطف، وبدون وعي منا، عدونا مبتعدين عن المكان. سقطت قذيفة خلفنا، ليست بعيدة، صحت بذعر:

ـ لنتوقف.

صرخ بي محمود بغضب:

ـ اركض، لنبتعد عن المكان.

وما ان ابتعدنا عدة امتار، حتى صرخت:

ـ انبط...

إلا ان صراخي ضاع وسط دوي هائل، هز الارض امامنا، وعلا عمود دخان ونار وسط الزقاق. كنت قد سمعت «وشيش» القذيفة يجتازني، فرميت نفسي خلف حطام سيارة مقلوبة. تحسست نفسي، لم يكن بي من شيء صغير في احدى اذنيّ. نهضت اترنح كالسكران من الفزع.

ـ محمود!

لم يجبني احد. عند الجدار المقابل كان منكفئاً على وجهه، كأنه يصلي. اقتربت

منه حذراً، وجلاً، متوجساً، وفي بالي وَمَضَت بشكل متتابع كانطلاق صواريخ الكاتيوشا احاديثنا.

ـ محمووووود!

هامد من غير حراك. مغبر الوجه، معوج الفم، وقد مزقت الشظايا نصفه الاسفل.

ـ محمو. . .

كان الدم يسيح، يرسم خطوطاً متشابكة، وثمة خيط من الدم يسيل من مكان عند الركبة، يمتد رفيعاً، قانياً نحو وسط الزقاق.

كردستان
١٩٨٧/٥/٢٤

---

(١) نهر جاسم: من روافد شط العرب.

(٢) ابو نصيف: درج العراقيون على ان كنية كل جاسم هي «أبو نصيِّف»، ومثل ذلك «ابو حسين» وهكذا.

(٣) الحرمس: كنية ابتدعها الجنود لوكلاء وعيون المخابرات، ومثل ذلك «بتزين خانه» و«خردل»، . . .

(٤) في اللهجة العراقية «الزُوِجْ» هو المفقّل، ومنحصرة: بمحاصرة.

الفن المفاهيمي

ماري اني ستانسويسكي

ترجمة : هلال حميد

قد يكون الرأي تعميماً، تبسيطياً، في اعتبار كل الفن ما بعد دوشامب فناً مفاهيمياً، إلا انه لا يخلو من الصواب في العديد من جوانبه. ففن الارض (Earth Art) والفن الفقير (Arte Povera) والفن الاختـزالي (Minimal Art) والى حد ما الفن الشعبي (Pop Art) جميعها مفاهيمية. وكذلك اعمال جاسبر جونس، إيف كلين، بييرو مانزوني، روبرت راوشنبرغ لفترة الخمسينات والستينات، وعدد غير قليل من اعمال الاتجاهات الفنية ما بعد الحرب، ولاسيما تلك الاعمال التي كان لها علاقة نقدية وتهكمية بقانون ممارستها الفنية. فالطليعة التاريخية (الدادائية، السريالية، الفن السوفييتي) قد اعترفت «بالفن» كصنف تأسيسي. ومع الانتشار التاريخي للنزعة الحديثة (Modernismo) بدأ الفنانون يتجاوزون الاطر التقليدية المقيدة للممارسة الفنية. وحينما شرع كل من مارينيتي ودوشامب، الى جانب الائتلافات العديدة للاتجاهات الطليعية بتهشيم العرضية الثقافية للمدلول، تخلى معظم الفنانين عن مسائل البحث المورفولوجي (مثل اعطاء شكل مغاير للوحة أو للتمثال) واخذوا يتساءلون حول انتاج المدلول والقيمة، وحول الشيء الذي يجعل من الموضوع أو الممارسة عملاً فنياً.

ان الفن المفاهيمي ـ الجديد (Neo - Concettvale) ، وهو مصطلح حديث الانضمام للقانون المفاهيمي، قد غزا صالات العرض في المواسم الاخيرة، وحمل معه فناً ما هو ألا اعادة انتاج للفن المفاهيمي السابق. فغالبية الاعمال الجديدة هذه باردة المظهر وفكرياً لا تنتمي للفن المفاهيمي إلا من حيث شكلها العام، بل انها ان امكن القول تكاد تشبه حاجيات الترف. وهذا الفن المفاهيمي ـ الجديد (المصطلح هنا يشمل على: الفن الشعبي الجديد، الفن الاختزالي ـ الجديد، الهندسية ـ الجديدة - «Neo) «Geo ومعه قسم غير قليل من الحركات الفنية التاريخية السابقة له سرعان ما امتص من قبل جهاز فني في غاية التطور، مما ادى الى الغاء تلك العلاقة المعقدة ما بين الانتاج الفني وطرق الاستلام والتوزيع التي كانت على الدوام تواجه الفن المفاهيمي.

في النصف الثاني من الستينات اخذ الكثير من الفنانين بانتاج اشياء فنية ـ كلمات وعرض اعمال نصيّة ونشر تصريحات في الادلة والمجلات والصحف ولوحات الاعلانات ونشر دراسات حول الفن.

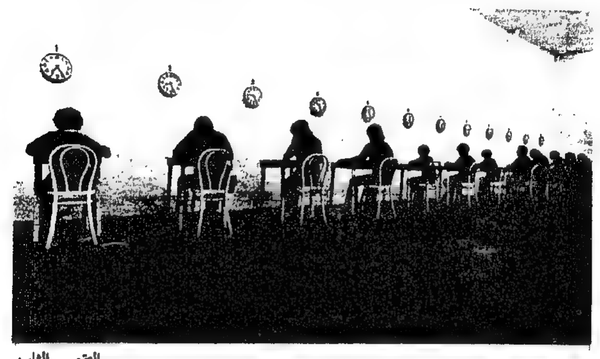
وفي عام ١٩٦٥ انجز اون كاوارا اعمالاً تعيد نفس خط الطول والعرض للمكان الذي نُفذت فيه. وفي عام ١٩٦٦ استخدم تاريخ اليوم وقصاصات الصحف كمقاطع من اللوحة. وعرض داربو فن سلسلة العددية المنسقة على اساس الترتيب الفهرسي، واعتمد على الكتب / الصور للاشارة للزمن. وفي عام ١٩٦٥ قدم جوزيف كوزت اولى اعماله التي تعتمد على التحديدات اللغوية مثل (الكرسي) فهو عبارة عن كرسي حقيقي وصورته الفوتوغرافية والتحديد اللغوي لكلمة كرسي مثلما وردت في القاموس: وفي عام ١٩٦٦ عرض (الفن كفكرة كفكره) وهو عبارة عن صورة مستنسخة للتعريف الوارد في القاموس لكلمة (ماء).

وفي انكلترا، كانت مشاريع آتكنسون وبالدوين مشتركة، مثلها في ذلك مثل سلسلة تصريحاتهم عام ١٩٦٧، التي تضمنت على (معرض الهواء) (Air show) ، وفي هذا المعرض اعلنا ان ميلاً مربعاً من الهواء هو فن. وعن هذه الفكرة نشرت مجلة «فن ولغة» مقالاً يتقصى المنطق الجغرافي للمعرض. وفي النصف الثاني من الستينات بدأ الفنانون بنشر مقاطع نصية في الصحف والمجلات، مثل (مخطط) دان غراهام في مجلة «Aspen» عام ١٩٦٧، واسم يان ولسن المنشور في ملحق «النيويورك تايمز» عام ١٩٦٨، و(التقصّي الثاني) للكوزت عام ١٩٦٨، و(ايضاحات) روبرت باري وهي وصف لحالات لامرئية مجردة، واستخدامات ستانلي للنص لتوثيق نزهاته، وصور دغلاس هبلر المستنسخة، ولورنس وينير في جمله الغامضة وعباراته غير المفهومة، واعمال اخرى اقتصرت على النصوص وعرض الكتب للفنانين: بورجن، بورن، بيير، ميل رامسدن.

تمثل هذه القائمة نموذجاً اصطلاحياً وتمثيلياً للفنانين الذين انحصر نشاطهم الفني باطار اللغة. ولعل من البساطة ان يتحول تحديد هذه اللحظة التاريخية والفلسفية، النوعية جداً، التي مر بها الفن المفاهيمي ما بين النصف الثاني من الستينات وبداية السبعينات الى مجرد عرض لقائمة باسماء الفنانين وذكر من كان البادىء في هذه الممارسة أو تلك[1]، فهذا النوع من المقاربة التاريخية قد يجهل وجود الفن المفاهيمي نفسه ويفضل اعادة التحديد التي مارسها الفنانون المفاهيميون لاسلوب انتاج المدلول. ففي اختزال الممارسة الفنية الى لغة، تكون العملية الابداعية ضمنية. فالتعبير عن الذات لا ينشأ ضمن اطار المحيط المطلق لسيكولوجية منفردة، بقدر ما ينشأ ضمن علاقات تبادل لمجموعة قوانين ثقافية متحققة في ظروف محددة. لذا فان الفن المفاهيمي ليس هو مجرد مجموعة معارض شخصية أو عملية جمع لاعمال منفردة. بل، انه نشأ من خلال مشاريع جماعية وتجمعات فنية اخذ شكله في المجلات، الصحف، الادلة، الكتب والمعارض. وبهذا المعنى فان الآفاق التأسيسية اعطت الحق للفن المفاهيمي بكل مضامينه المعقدة وللاشكاليات التي احدثها ولاهميته بالنسبة للظرف الحالي.

تعتبر جماعة (فن ولغة) كنموذج لنقد المؤسسات التي نشأ في داخلها الفن المفاهيمي. وكانت النقطة الجامعة والمعززة لهذا الفن. ويمكن التعرف عليها من خلال البلاغة النظرية لانتاجاتها والتبدل المستمر «لاعضائها» ورصانة نصوصها التي غالباً ما تمتزج بالتهكم والغموض. ومن خلال مسيرتها تطرقت هذه الجماعة الى الكثير من القضايا المحورية المتعلقة بالفن المفاهيمي، وتابعت نتاجات الفنانين وللمشاريع والمعارض واهتمت بأبرز التجمعات الفنية المهمة بالنسبة للحركة. وفي عام ١٩٦٨ تأسست دار نشر (فن ولغة) على يد (آتكنسون وبالدوين) بالاشتراك مع (دافيد باينبرج وهارولد هوريل)[2].

واول ما بدأت به هو مشاريع (آتكنسون وبالدوين) التي احتوت على: كتب /جمل، معرض الهواء، اعمال ـ اطارات، و٢٢ موعظة: الجيش الفرنسي. وبعد مرور عام صدرت مجلة «فن ولغة»، شارك في تحريرها المؤسسون الاربعة، من حيث اعداد المقالات والنصوص، وبحث مشاريع لاقامة معارض في اماكن محددة سلفاً واستخدام التكنولوجيا. فالعدد الاول (الذي كتب على غلافه (مجلة الفن المفاهيمي) والتي حذفت فيما بعد، يبدأ بمقال كان يلف ويدور حول السؤال: «هل يمكن اعتبار هذا المطبوع عملاً فنياً، ضمن الاطار المفصل للمفاهيم السائدة حول الفن البصري؟». وموضوع مشترك لباينبرج وبالدوين تتسم افكاره بالغرابة. ففي هذا المقال يستطلعان حدود المعايير الجمالية، من خلال تقمص شخصية كائن غريب، قادم من كوكب آخر، ويدعى لاقامة معرض في احدى الكاليريهات. وموضوع لسلويت (عبارات حول المفاهيمي)[3] الذي سبق ان نشره في



القصص الثامن

مجلة «Art Fort» عام ١٩٦٧ . وفي العدد نفسه قدم غراهام (المخطط)، وهو عبارة عن وصف انتولوجي لصفحة احدى المجلات. وسلسلة (ايضاحات) لوينير. وفي عام ١٩٦٨ دُعي كوزت للمشاركة في المجلة بصفة محرر امريكي، وان كوزت حظي بنقد ايجابي من قبل «النيويورك تايمز» اثر نشره لمقال (الفن ما بعد الفلسفة) في مجلة «Studio International». وبصدور العدد الثاني عام ١٩٧٠ احتل كوزت مكانة بارزة في الصفحات الأولى، أما بورن ورامسدن فقد كانا يراسلان المجلة من نيويورك، وفي عام ١٩٧١ انضما الى هيئة التحرير. في حين كان تشارلس هارسون منذ ذلك الوقت رئيساً لهيئة تحرير (فن ولغة) وكان معروفاً بتأييده للفن المفاهيمي اثناء عمله كمحرر في مجلة «Studio International».

لقد واصلت مجلة (فن ولغة) الصدور حتى عام ١٩٨٥ . وكان من بين المساهمين فيها: ميكايل كورس، ميكايل توماس، غراهام هاورد، فيليب بلكنتون، في حين تخلى كل من باينبرج وآتكنسون وهورل، أي الاعضاء المؤسسين، عن العمل فيها قبل منتصف السبعينات، أما بالدوين ورامسدن فقد واصلا العمل. ولغاية منتصف السبعينات تميزت مجلة (فن ولغة) بالطابع المتغير للعاملين فيها وبالتحول المستمر في مظهرها العام. وفي معرض (Docomenta 5) عام ١٩٧٢ شاركت جماعة (فن ولغة) باسم (مؤسسة فن ولغة ١٩٧١ ـ ١٩٧٢) وكان ذلك الاختيار كمحاولة لتأسيس شركة في انكلترا، وفيما بعد سُجلت كشركة اهلية. أما جماعة (فن ولغة) الامريكية فانها اصدرت في نيويورك مجلة

(The Fox) صدر منهـا ثلاثـة اعـداد ما بين ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، ساهم في عملها كوزت، رامسدن، سارا تشارلسورث، ميكايل كورس، برستون هبلر، اندرو مينارد، وبورن حيث كان مستشاراً في النقد الفني. وكان الهدف الذي وضعته المجلة لنفسها هو «انشاء صنف من الممارسة العامة. . . (من اجل) صياغة الايديولوجيا»[٤]. غير ان هذا الهدف لم يتحقق بسبب الخلافات التي حصلت داخل هيئة التحرير. وبهذا احدثت (The Fox) شقاً جغرافياً ما بين جماعة (فن ولغة) في امريكا وجماعة انكلترا. وكان العدد الاول واعداً بموضوعات مثل: «المسؤولية الثقافية للفن ما بعد النزعة الحديثة»، و«فشل الفن المفاهيمي»، والكلام عن فشـل الفن المفـاهيمي الآن قد يبـدو غريبـاً، غير ان المرء عليه ان يعلم ان الفن المفـاهيمي له الآن ما يقـرب من العشـر سنـوات. وفي المقـال الافتتـاحي أكـدت (تشارلسورث) على السمة المؤسساتية للفن، واتخذت موقفاً من تلك التحديدات التي تعتبـر الفن فكـرة. لقد كانت (The Fox) مجلة ذات اتجاه ماركسي. واتسمت مواضيعها بالتنـوع والشمول مثل «ملاحظات حول الفن اليوغسلافي» و«أسعار اللوحات». وما بين ١٩٧١ ـ ١٩٧٢، صدرت مجلة اخرى (Analytical Art)، لم تختلف من حيث مضامينها عن مجلة (فن ولغة)، قام باصدارها طلاب آتكنسون وباينبرج وبالدوين في مدرسة الفنون في كوفنتري. وسرعان ما اندمجت هذه المجلة مع مجلة (فن ولغة) بعد اقالة (باينبرج وبالدوين) عن التدريس.

لقـد كانت جمـاعة (فن ولغة) تكشف باختزال وتهرب من مناظرات المفاهيمية. فمعظم التجمعات والمشاريع الفنية للفترة المفاهيمية لم تعمر طويلاً[٦]. ففي عام ١٩٦٧، أسس كوزت وكريستين جماعة فنية (جماعة الفن العادي) دامت عدة اشهر وكان لها صالة عرض (متحف الفن العـادي)، ونظمت عدة معارض من بينها المعرض الجماعي (١٥ شخص يعـرضـون كتـابهم المفضـل) شارك فيه: سولـويت، روبـرت مورس، روبرت سمشـون. وفي عام ١٩٦٩ تأسست (جمـاعة الفن التأملي والتحليلي) من قبل بورن، رامسدن، روجر كوتفورد. اقامت هذه الجماعة كذلك عدة معارض وعقدت لقاءات فنية ونشرت مداولات. كما ظهرت جماعة (فن ومشروع) ايضاً عام ١٩٦٨، من مؤسسيها ادريان فان رافستين، غريت فان جيرن. وفتحت كاليري للفن التشكيلي والمعماري في امستردام، واصبح هذا الكاليري منتدى للفن المفاهيمي. واصدرت هذه الجماعة نشرة فنية اعتبرت بحد ذاتها معرضاً، شارك مع هذه الجماعة: باري، داريوفن، هبلر، كوزت، وينير.

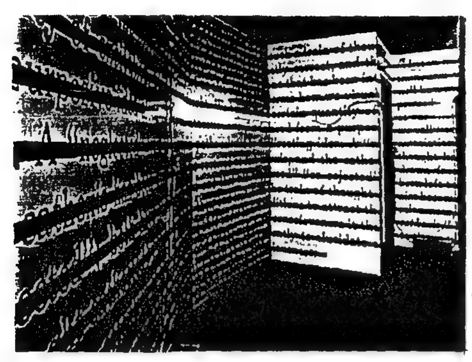
منذ عام ١٩٧١ كانت جماعة (فن ولغة) تتطلع لان تكون مجلة (فن ولغة) شاغلها الوحيد. غير إن ذلك لم يتحقق بسبب كثرة النشاطات والمعارض والوضع الاقتصادي

ومتطلبات السوق. مع هذا استمرت المجلة على نسق عملها وعمل الجماعة نفسها، وكانت مكاناً حراً لا حدود فيه ما بين الانتاج الفني والاستلام والتوزيع. وكل فنان كان يمارس فيه عدة نشاطات وعدة مهام: كالنقد الفني، تحرير المجلة، تنظيم معارض، بيع اللوحات، بتعبير آخر، كانت جماعة (فن ولغة) بحد ذاتها نظاماً مستقلاً. ويمكن اعتبار اسلوب عمل هذه الجماعة كسلسلة تجارب هدفها اماطة اللثام عن الطابع التاريخي المحدد للمؤسسات المبتدعة للقيم الفنية، فرغبة الفنانين المفاهيميين وهدفهم المنصب على كامل الاطار التأسيسي إنما هي رغبة تعبر عن المتطلبات النوعية لما بعد الحرب.

على اختلاف من النزعة الحديثة في مراحلها الاولى، حيث انتج الفنانون فيها اعمالاً أبتدعت واستُمتع بها كعالم مستقل، غير متجانس (مثل لوحات موندريان، على سبيل المثال)، وعلى اختلاف من محاولات الطليعة التاريخية في خلق وسائل الاتصال (الدعايات، قسائم الاعلانات، اعمال هربرت باير)، على اختلاف من كل ذلك، فقد تعين على كبار فناني ما بعد الحرب العالمية الثانية الاذعان لثقافة تكاد تكون بكاملها مؤسساتية، وان مثالية النصف الاول من هذا القرن قد استعيض عنها بعلاقة تهكمية وتأملية ازاء العمل الفني. ويرافق هذا التحول في الموقف الادراك بان العمل الفني مهما يكن مجدداً، فانه سيبقى اسيراً لحدود فن ليس هو إلا شكلاً من اشكال «الثقافة العليا» وما تقدمه هذه الثقافة من مساهمات للوقت الحر. وفي فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية كان العمل الفني المجدد يعتبر بذاته المحرض والفاعل وكان يتعامل مع جهاز فني زائل. وما بعد الحرب، الفترة التي ظهرت فيها تيارات فنية مجددة ـ لشيء ما كطراز الرسم الامريكي، الداداثية ـ الجديدة، الهندسية ـ الجديدة، فان فاعلية العمل الفني الجديد تعزى الى وسائل الاستلام والتوزيع التي يقوم بها جهاز فني متطور.

في الفترة ما بين الستينات ومطلع السبعينات برز هذا الجهاز الفني وصلب عوده بفضل التيارات الفنية التجريبية بفروعها المختلفة. رغم تفضيل الفنانين للعمل المستقل في تنظيمهم للمعارض واداء المهام الادارية. ومن الامثلة على بعض ممارسات الفنانين انهم كانوا يقتفون اثر شخصيات فنية بارزة كايف كلين، من خلال افراد قيمة جمالية لاغلاق صالة العرض. كما فعل روبرت باري مع جماعة (فن ومشروع) عام ١٩٦٩، ويوجينا بتلر في لوس انجلس، وكاليري سبيرونه في تورينو. فقبل افتتاح المعرض تُلصق بوسترات دعائية للاعلان عن وجود معرض ما في احدى الكاليريات، وحين يحضر الجمهور لمشاهدة المعرض يجد صالة العرض مغلقة. وثمة فنانين مارسوا عدة نشاطات في آن واحد من ابرزهم هارسون، لوسي ليبارد، سث سكلاب.

كان سكلاب منظم معارض ومتعهد فني وناشر، وكان يجسد شخصية المنتج كفنان



صفر و لا

في ١٩٦٨ نظم معرضا شخصيا لهبلر وكان المعرض عبارة عن مجرد كاتالوج. وبعد مرور عام نظم معرض (٣١ آذار) وفي هذا المعرض عين لكل فنان يوم واحد وطبع الاعمال الفنية في كاتالوج واعتبر بمثابة المعرض نفسه ولعل معرض (يونيو ـ سبتمبر ١٩٦٩) هو من ابرز نشاطات سكلاب، شارك فيه ١١ فنان من بينهم: باري، كوزنت، لويت، ن. ي. ثنك، سمشون، وينير، ونفذت الاعمال في ١١ مكان مختلف في العالم وطبعت في دليل ولكي يُنشر المعرض في مجلة (Studio International) دعا سكلاب ناشرين ونقاداً لاختيار فنانين ينتجون قطع (اماكن ـ محددة) (Site - specific) لنفس العدد. ان عملية اعادة البناء التي مارسها سكلاب للمعرض كدليل، وللمجلة كمعرض، أو للمعرض كنص لا تقل ابداعاً عن الفنانين، بل في احيان كانت طلعاته وابداعاته تفوق ممارسات الفنانين انفسهم.

لوسي ليبارد كذلك، كانت ناقدة ومُنظمة معارض مثل سكلاب، ويصعب تمييز مشاريعها عن الاعمال الفنية، ففي عام ١٩٧٠ نظمت معرض (معلومات) في (Moma) وعُرض كاتالوج المعرض مع دراسة نقدية وتعقيبات في (كاليري لامبرت) في باريس. وحول معرض (557.087) الذي نظمته ليبارد نشرت مجلة (ArtForm) عام ١٩٦٩ مقالاً يصف ليبارد بانها الفنانة الحقيقية للمعرض نفسه: (ان وسيطها الروحاني هم الفنانون الآخرون، وانه لانتشار مُتوقع في الممارسة الدارجة، كأن يستخدم المتحف احد النقاد لـ «عمل» معرض أو قطعة لمعرض، ومن ثم يطلب الناقد من الفنانين «عمل» قطعة للمعرض»(٧).

ان معرض (557.087) هو واحد من اشهر المعارض الجماعية في العالم. ففي هذا

المعرض خُصّص حيز بارز لنمط من الاعمال تقتضي عملاً جماعياً وخصوصية في المكان ومحورية في اللغة. ومنذ عام ١٩٦٧ أُقيمت سلسلة معارض على صالة (Dwan Gallery) في نيويورك تحت عنوان (لغة للمشاهدة وأشياء للمطالعة)[8]. هذه المعارض عرفت بلغة رقم ١، ٢، ٣، ٤، واستمرت لغاية ١٩٧٠ وكانت تقام على شكل معرض واحد في السنة. وتطرقت الى موضوعات مختلفة. قصائد الطليعة، الفن الاختزالي، اللغة كفن بصري، ولاول مرة جمعت اعمال كوزت، جماعة (فن ولغة) الانكليزية، آراكاوا، اون كاوارا، دان غراهام، وعرضت مع اعمال كارل اندري، لويت، موريس، غاسبر جونس، رينهاردت، ومع اولى النماذج الحديثة لدوشامب، مرينيتي، مغريت وبيكابيا.

وفي عام ١٩٦٩ اخذ الفن المفاهيمي موقعاً الى جانب ابرز الاتجاهات الفنية كالفن الفقير وفن الارض والفن الاختزالي وفن الطريقة، واخذ يعرض في اهم صالات العرض العالمية. وفي ربيع ١٩٦٩ نظم هارد زيمان معرضاً مشتركاً على قاعة (Kunsthalle) في برن تحت عنوان (عندما تصبح المواقف اشكالاً، اعمالاً، مضامينَ، عمليات، وضعيات، معلومات). قدمت فيه اعمال نصية، فضاء رقم واحد، الفن كفكرة كفكرة لكوزت، ست كتب مستنسخة لداريو فن، اماكن - محددة لريتشارد آرتشوجر، علامات جدارية لسولويت، وعملات من الفن الفقير لكونيليس (الاول قطعة كاربون والثاني جلد ماعز وخشب وحبل)، ومشاريع فضائية كعمل ايف (العمل الاثيري) لعام ١٩٦٢. وكان هذا المعرض متزامناً مع معرض (oplosse schroeven) في امستردام على قاعة (Stedelijk)، والذي احتوى على عدد قليل من الاعمال اللغوية والمفاهيمية. وفي دليل المعرض الاخير كتب بيرو جيلارد عن الاشكاليات والمسائل العامة التي تواجه العصر: كالوضع السياسي الراديكالي في باريس، وعن الثورة الثقافية في الصيف، ومشاريع الطليعيين - الجدد في عالم الفن. وبهذا اراد جيلارد ان يلفت انتباهنا نحو عالمنا اليوم وما يشهده من تفكك واسع النطاق في البنى الايديولوجية والمؤسسات التقليدية والفنون البصرية والحياة الاجتماعية.

ورغم مساهمة عالم الفن في النقد الداخلي هذا، إلا انه كان في الوقت نفسه يتعزز ويرتقي الى درجات اعلى. كما تدل على ذلك وفرة المعارض العالمية والاعمال التي تقف ضد فكرة مؤسسة - معرض. ولكن هذا لا يكفي: فيليب موريس الذي دشن بدعمة اسناد الفن من قبل مؤسسات اهلية عام ١٩٦٦ كان ممولاً لمعرض (عندما تصبح المواقف اشكالاً). وذكر في غلاف الدليل «هذا المعرض ممول من قبل مؤسسة فيليب موريس الاوربية» وبمستوى حجم الحرف الطباعي لعنوان المعرض. ذلك شيء محزن حقاً، حتى بمقاييس الثمانينات. ولعل هذا المعرض هو الاول من نوعه من حيث مستواه العالمي، يُسند من قبل مؤسسة متعددة الجنسيات. والشيء الظريف في الامر هو ان تقوم مؤسسة

بدعم اعمال فنية نشأت كرد فعل ضد المؤسسات نفسها.

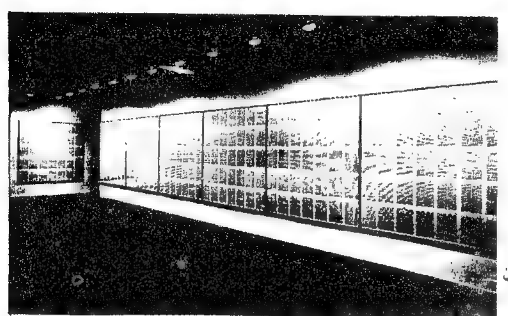
وفي خريف ١٩٦٩ اقيمت عدة معارض مفاهيمية في اوربا، كمعرض (منظور ٦٩) في كونستهول في دوسيلدروف، ومعرض آخر اقتصر على اللغة في متحف (Stadtsche) في ليفركوسن. وفي امريكا نظمت ليبارد معرضاً في (Seattle Art Musem) تحت عنوان (557.087)، وهذا الرقم يمثل عدد سكان ساتل آنذاك. وبانتقال المعرض الى مكان آخر يتغير الرقم، فكان في فانكوفر (955.000)، وبوينس آيرس عام ١٩٧٠ اصبح (2.972.453)، جميع هذه المعارض سميت بـ (اماكن ـ محددة). وفي صيف ١٩٧٠ اقيم في متحف الفن الحديث في نيويورك معرض (معلومات). في حين عرض المركز الثقافي في نيويورك اعمالاً لغوية ـ نصية كان عنوانها (فن مفاهيمي ومفاهيم الاشكال).

ان جميع هذه النشاطات المفاهيمية بلغت اوجها في معرض (Documenta 5) عام ١٩٧٠ والـذي شارك فيه اكثر من ١٥٠ فناناً. قسم المعرض الى عدة اقسام، حسب المـواضيع المتناولة مثل: الخيال العلمي، الواقعية الاشتراكية، فن المجانين، الدعاية السياسية، معلومات، فكرة وفكرة، الانارة، وفي هذا المعرض احتل الفن المفاهيمي موقعاً متميزاً سواء في الاعمال المقتصرة على النص، أو في الاستخدام المتنـوع للغة. شارك فيه: جماعة (فن ولغة) باري، بورجن، داربوفن، وينير. كما قدمت في هذا المعرض مشاريع مهمة كمشروع (متحف الفن الحديث) لمرسيل برو تاريس، و(صورة جانبية لوجه احد المشاهدين) لهانس هاكي، و(غرفة معلومات) لجوزيف بويس. ففي احدى اقسام المعـرض فتح بويس (مكتب معلومـات) لغـرض المنـاقشـة وتوزيع منشورات (منظمة الديمقراطية المباشرة) وكان يُعتقد ان هذا كان له علاقة بجماعة بادر ـماينهوف. ان جماعة (فن ولغـة) حافـظت على نسق عملها ومشاريعها التي تركزت على المدلول في الفن، وبتعبير ادق، طرحت مسألة كيفية توظيف اللغة في العمل الفني. وفي وقت التئام شمل هذه الجماعة عرفت اول اعمالها وهو عبارة عن خزانات لحفظ الوثائق، وصناديق تصنيف الاوراق، وضعت في داخلها جميع المواد والنصوص المهمة، والمنشورة في مجلة (فن ولغة)[٩]. هذا العمل اقترحه بالدوين، ويشتمل على تقسم النصوص الى ٢٥٠ قسم، وكل قسم تمت قراءته بشكل جماعي أو فردي، على ضوء علاقته بالاقسام الاخرى، وبالنتيجة ستتألف 122.500 نسخة من النصوص المقارنة، وبعد عملية التصنيف توضع عليها احدى العـلامـات الثـلاث (للدلالـة على التوافق الايديولوجي أو المنطقي) مثلاً: علامة (=) للتوافق، علامة (-) اللاتوافق أو اللاتطابق، علامة (ت) للتحولات المنطقية. ونتائج كل نص من هذه النصوص المقارنة تم تكبيرها عن طريق التصوير الفوتوغرافي، وعلقت على الجـدران على شكل قوائم يمثل هذا العمل الشائك والمعقد خارطة (الكلمات) التي

يتألف منها العالم النظري والفلسفي لجماعة (فن ولغة). فهذه الغرفة المليئة بالخزانات هي تجسيد لعملية انتقاد مثالية مشاريع الفن الحديث، وتعتبر نموذجاً حقيقياً لنمط من الانتاج الفني له دلالته المبنية على اساس جماعية العمل. ففي هذه العملية الجماعية لا وجود للتعبير المباشر، وللابداع الفردي. كما يقدم هذا المشروع نموذجاً لطابع المنهج الجماعي للفن المفاهيمي بشكل عام ولجماعة (فن ولغة) بشكل خاص. ويوجه نقداً راديكالياً للنزعة الحديثة في استثمارها للنزعة الانسانية الليبرالية، وللايمان باستقامة الرأي في استثماره لارادة الفرد الحرة، التي عليها ان تجد منفذاً لها من خلال الفن وفق النظرة التقليدية. ان اعتراف الفن المفاهيمي بالطابع التاريخي للنزعة الانسانية الليبرالية ظهر بشكل رسمي في الكاتالوج وبعدة لغات، فقد نشر «الاتفاق حول حقوق الفنان المحفوظة بشأن النقل والبيع». والمعروف ان التبادل والملكية الخاصة من الاشياء المشروعة في النظام الرأسمالي، كما هو الحال في النظام الانجلو ـ امريكي الذي يتميز بحق الملكية وحق العقد (الاتفاق)[١٠]. حيث ان العقد يضمن للفنان حقوقه باعتباره طرفاً قانونياً، حسب ايديولوجية النزعة الانسانية الليبرالية والسوق الحرة. ومن هنا اخذ الفنانون يَتَحدَّون منظمي المعارض، حتى دون ان يرجعوا «الاتفاق». وعلى ضوء اعادة التقويم المفاهيمي لمكونات الجهاز الفني اعلن الفنانون مسألة حرية مشاركتهم في المعارض وعدم خضوعها للرقابة، ولا يمكن نصب أو تصنيف الاعمال بلا موافقة الفنان، وان يطلع الفنان على التفاصيل الادارية بشأن البيع[١١]. كل ذلك دُوِّن وظهر على شكل تصريح مُوقف نشرته مجلة (ArtForm) عام ١٩٧٢.

ويمكن القول ان استمرار بعض بقايا النزعة الحديثة غير المنسجمة مع الفن المفاهيمي كان عامل فشله، فرغم انتقادات الفن المفاهيمي للشكلية (Forma Lismo) ولمثالية النزعة الحديثة، إلا انه لم يجد حلًا لمسألة كيفية اكتساب الفن للمدلول، وان مقاربة الفنانين المفاهيميين من بناء المدلول هو نموذج لخلاصة مواقعهم ازاء الفلسفة التحليلية، وبشكل خاص ازاء فلسفة وتغنستن (Wittgenstein)، التي تعتبر اللغة، وبالتالي الفن، هما نسقان مستقلان. فقرار الفنانين المفاهيميين في العمل باستخدام النصوص عوضاً عن الصور، هو محاولة لابراز واقع ان التمثيل ناتج عن القناعات السائدة، كما يثبت ذلك قول ويتغنستن الشهير «المعنى هو الممارسة».

نحو منتصف السبعينات، أي بعد ما يقارب عشر سنوات من التجارب المفاهيمية، بدأ العديد من الفنانين يطرحون على انفسهم مسألة آفاق وحدود صياغاتهم. وبهذا الشكل بدأوا في الاخذ بعين الاعتبار تاريخية اللغة، قياساًبنوعية النسيج الاجتماعي، وفي طرح مسألة «القارىء في النص». وفي العدد الثاني، الجزء الثاني من مجلة (فن ولغة) صيف



بلا عنوان

١٩٧٢، اتخذ (بورجن) موقفاً ازاء ابهامية (الفلسفة التحليلية) عند جماعة (فن ولغة) وانتقد ممارساتهم المائلة نحو الفن للفن[١٢]. ان (بورجن) من خلال طرحه لنماذج مستمدة من علم اللغة، وبشكل خاص من علم اللغة السوسورية (نسبة الى فرديناند دوسوسور مؤسس علم اللغة) قد حول المحيط الاشكالي، وكان يؤكد على ان الواقع هو نتاج قوانين ثقافية. «لقد اثبت علم اللغة ان المعارف التقليدية لـ «الواقع» والمنتشرة في الوسط الاجتماعي، لا تنتقل ببساطة من لغة المجتمع، بل انها، والى حد ما، «ناتجة» عن تلك اللغة... فالفن ليس إلا في جزء منه مستقل.. (ووظيفته) هي تصحيح تلك القوالب التي اصبحت تأسيسية في توجهها للعالم، وبهذا سيخدم الفن كأداة، كوسيلة لتطبيع وانسنة العلاقات الاجتماعية»[١٣]. وفي عام ١٩٧٣ بدأ (بورجن) يحول انتباهه عن القطع الفنية التي يغلب عليها الطابع النصي الى اعمال تجمع ما بين النصوص والصور، حسب الاتجاه العام في الستينات ومطلع السبعينات، ولكن مع الاختلاف في ان (بورجن) كان يستخدم الملاحق الدعائية كوسيلة لمواجهة بناء الذاتية الطبقية داخل تمثيلات وسائل الاتصال. وفي هذا السياق يمكن اعتبار مجلة (The Fox) كمحاولة لـ (اعادة الاستحواذ على الفن باعتباره وسيلة تحول اجتماعي وثقافي) كما يرد ذلك في التصريح المنشور في افتتاحية العدد الثاني.

وعندما اخذ كوزت يكتب في (The Fox) عام ١٩٧٥، اعاد صياغة مواقفه السابقة بخصوص فشل واحتضار الفن المفاهيمي. واصطف الى جانب «فن انثروبولوجي.. يلغي الايديولوجيات الفنية التي تدعي استقلالية الفن.. ان ذلك الذي بدأ في الستينات كتحليل مضمون الاشياء (أو الجمل) المحددة، والسؤال حول الوظيفة، كل ذلك قد ارغمنا بعد

عشرة اعوام على توجيه انتباهنا نحو المجتمع، ونحو الثقافة التي يعمل في داخلها ذلك الشيء المحدد»[11]. فمن التحديدات اللغوية المستنسخة والمؤطرة لفترة الستينات، انتقل (كوزت) في مطلع السبعينات الى صالة المطالعة - كما في عمله (التقصي الثامن) - الذي يتحول المشاهد فيه الى قارىء يجمع مقاطع نصية. وفي اواخر الستينات انتقل الى النصوص المنصوبة في المعارض أو المكتوبة على ألواح الاعلانات تخاطب الجمهور مثل عمله (نص /مضمون). ونحو النصف الثاني من السبعينات استخدمت جماعة (فن ولغة) في انكلترا الصور والنصوص معاً، وانتجت لوحات كبيرة الحجم تسخر من السياسة الراديكالية لتلك الفترة، والتي كانوا يطلقون عليها تسمية «الدعاية السوداء». ونحو منتصف السبعينات اخذ القانون التنظيري المفاهيمي يتحول من الفلسفة التحليلية الى البحث الاجتماعي ذو الطابع الماركسي، كبحوث مؤلفي مدرسة فراكفورت (فالتر بنيامين) و(هربرت ماركوز) وتحليلات (دوسوسور) اللغوية و(رولان بارت). ان هذا الاهتمام بالبناء الاجتماعي والطبقي للمدلول قد فتح آفاقاً رحبة امام الحركة النسائية، وامام نظرية التحليل النفساني لجاكس لاكان، ولدراسات حول الفيلم، ولاوسع تماثل لفترة ما بعد البنيوية. وفي انكلترا كانت مجلة (Screen) قد خدمت، كواسطة نقل، لتوطيد هذه الموضوعات ولاتزال تعتبر وثيقة لهذا النوع من التحول في الاهتمامات، فهذا التحول في النبرات والتوكيدات داخل الممارسة النظرية، كان ينسجم واتساع الاهتمامات المفاهيمية في المضي الى ما وراء اطار الفن، باتجاه الميدان اللامتناهي لعملية التمثيل (Rappresentazione).

يشكل عمل ماري كيللي نموذجا لاعادة تحديد ستراتيجيات المفاهيمية وتوجيهها نحو مسائل التمثيل، وبشكل اكثر تحديداً، نحو بناء ذاتية المرأة. ففي الستينات ومطلع السبعينات كان الفن المفاهيمي يتقبل اللغة البطريركية (الابوية) للغرب الابيض كمقياس طبيعي. وان (كيللي) في عملها وضعت هذه اللغة موضع نقاش، وأكدت على واقع اننا نعرف انفسنا ونعرف العالم عبر تمثيلات لانواع واشياء، محددة تاريخياً، ففي رأيها ان العديد من معارض الفن المفاهيمي المقامة في لندن، ما بين الستينات والسبعينات كانت مساهمة في صياغة (Postpartum Document) (ما بعد ولادة الوثيقة - ١٩٧٣ - ١٩٧٩)، تلك الوثيقة التي اعتبرت كاستمرار للنقاش ضد مفاهيمية اواخر الستينات ومطلع السبعينات[15]. فكيللي باستحواذها على الحجم المتسلسل والمناهض - للتعبير المفاهيمي، كما يظهر على سبيل المثال في عمل (داربوفن)، قد عرضت عملها (ذكريات - فتشيه)* عن مرحلة الطفولة المشحونة بالعواطف، واستخدمت اجزاء من لحاف، بصمات طفل، مناديل وسخة: ذكريات تتوقف على القرينة (وهي الى حد ما مفاصل تكميلية)

شبيهة بعناصر التحليل النفساني عند (لاكان). فالوثيقة هي عبارة عن دفتر يوميات حول آلام فترة الفطام التي يبتعد الطفل فيها عن الأم ليدخل في النظام الابوي. ان هذا المشروع سلط الضوء على الانثوية ووفر مكاناً تتمفصل فيه الذاتية، كما يعتبر عمل (كيللي) جزء من اعادة صياغة الحركة النسائية** للذاتية (Soggettività) في اعلى مراحل الرأسمالية، وخدم كمحفز للانتقال الى ما وراء المسائل الطبقية، والنوع والجنس، نحو قضايا كالعنصر، والاصل العرقي والعلاقات ما بين العالم الاول والامم المتخلفة. وكان بعض الفنانين يصوغون ستراتيجيات الفن المفاهيمي، ويستخدمون عالم الفن كقرينة لتقصي هذه المعارف مثل: لوثر بامغرتن، جار، كولبويسكي، كروجر. وهناك آخرون واصلوا البحث المفاهيمي وطريقة عمل الجهاز الفني، دون اعتبار عالم الفن مستقلاً مثل: هاكي، لاولر، مونتاوز.

ثمة عبارة استخدمها (هاكي) في عمله الاخير (مجموعة ساتكي ـ اكاذيب) ١٩٨٧، تقول: «كل شيء متصل بالاشياء الاخرى». هذا القول يعود الى لينين، وكان (هاكي) قد اقتبسه من التقرير السنوي لوكالة ساتكي للدعاية والاعلان، فلقد بات معروفاً في الوسط الفني ان الاخوين ساتكي (تشارلس وموريس) يديران احدى اضخم وكالات الدعاية في العالم، وان تشارلس وزوجته دورس يملكان اكبر مجموعة من لوحات الفن الحديث. ان ما اورده هاكي في عمله هذا هو ان يعرض على الملأ مسألة ان وكالة ساتكي العالمية ترتبط بعلاقات مشبوهة مع جنوب افريقيا، وانها كانت مساهمة في اقامة حملة دعائية لصالح الابارتهايد، فهذا العمل لا بد له من ان يحطم ذلك الايمان المعاصر باستقلالية الفن، فما على الفن المفاهيمي، على أية حال، ان يكون بالضرورة «سياسياً»، بالمعنى الاصطلاحي للكلمة، اذ ان الممارسة المفاهيمية انتقادية، تنازعية، حيوية في تعاملها مع المؤسسات الجمالية للانتاج الفني وللتوزيع وللاستلام. وان عطاء هذه الممارسة إنما هو اكبر من مجرد تداول لحاجيات فنية جمالية، فما عاد النص هو المجال العملي الوحيد للفن المفاهيمي والمجسد لاغراءات وسائل الاتصال. في هذا السياق تصف جماعة (الفكرة العامة) (General Idea) صلتها بوسائل الاتصال على النحو التالي: «نريد اضافة شيء ما لكم، نريد مدّكم الى ان يأخذ شكلكم بالتراخي، نريد ارخاء ذلك النسيج الاجتماعي»[16] فالبرهنة على مسألة اننا نعرف انفسنا، ونعرف الواقع من خلال تمثيلنا (Rappresentazione) هي مسألة مضمرة في الممارسة المفاهيمية. فنحن نبتدع هذا التمثيل. ونحن نستطيع تحويله.

* (Memorie - Feticci)

** (Femminismo)

المصادر:

(١) من الامثلة عن هذا النوع من التاريخ هو كتاب اوروسولا ماير Conceptual Art. New York, 1972 الذي يحتوي على جدول حسب التسلسل الابجدي بمساهمات الفنانين.

(٢) بشأن التفاصيل التاريخية لجماعة فن ولغة اعتمدت بالدرجة الاولى على هذه النصوص:

Charles Harrison e Fred Orton. (A provisional History of Art and Language). Paris 1982 - Charles Harrison e John Roberts, (art and language), Socité des Expositions du palais des Beaux - Arts, Bruxelles 1987, - (Art and language): Terry Atminson, David Bainbridge. Michael Baldwin— Harold Hurrell. Josep Kosuth, a. c.

من تأليف Paul Maemz e Gard de vries. Colonia 1972, مع مقابلات منشورة وغير منشورة لـBaldwin, Hurril, Kosuth, Ramsden.

(٣) تؤكد آخر عبارات سولويت: «هذه الجمل هي تعقيب حول الفن، وليست فن» وهذا الفصل ما بين اللغة والفن البصري يميز ممارسة سولويت عن تلك الايضاحات التي كانت جماعة فن ولغة تفرضها كأساس في عملها.

(٤) تصريح تمهيدي في مجلة «The Fox», Vol, 1, No 1, New York 1975.

(٥) مقابلة مع Ramsden. cfr. Harrison and Orton, pp, 26 - 27.

(٦) لمزيد من المعلومات حول التسلسل الزمني لمنشورات ومعارض ونشاطات الفن المفاهيمي للفترة من ١٩٦٦ الى ١٩٧١ انظر:

Lucy Lippard. Six Years: The dematerialization of the art object from 1966 to 1972. Londra 1973.

(٧) نفس المصدر السابق. Op. Crt. P. 111.

(٨) لا تتوفر ادلة المعارض المقامة في Dwan Gallery، بل فقط جداول بالاعمال. وفي عام ١٩٦٥ اقيم في Institute of contemorary Art في لندن معرضاً مهماً آخر هو (ما بين الشعر والرسم)، الذي ركز على نمط من الاعمال تختلف عن اعمال الفن المفاهيمي لتلك الفترة، لانها اقتصرت على الشعر والغرافيك.

(٩) في عام ١٩٧٢ عرضت على قاعة Hayward Gallery في لندن نماذج آخرين من خزانات حفظ الورق، وفي عام ١٩٧٣ كذلك على قاعة Lisson Gallery في لندن، وفي نيويورك ايضاً على قاعة John Weber، وفي روما على قاعة Contemporanea. وفي عام ١٩٧٤ عرضت في معرضين في كولونيا:

Project 74 e Konst uber Kunst. Cfr. Harrison and Orton. P. 34.

(١٠) Duncan Kennedy, The Role of Law in Economic Thought: Eddays on the Fetishism of Commodities, IN «The American University Law Review», Vol 34, no 4, 1985, PP. 939 - 1001.

(١١) حول معرض Documenta 5 انظر مجلة «ArtForom» الجزء ١١، العدد ٢، الصادر في اكتوبر

١٩٧٢، وبشكل خاص انظر:

Lawrence Alloway, Reality: Ideology at D5, PP. 30 - 36.

(١٢) Victor Burgin, In Reply, IN «Art and Language», Vol. 2. N. 2. PP. 33 - 34,

وانظر كذلك Terry Atkinson e Michael Baldwin, Unnataral Rules and Excuses, IN «Art and Language». Vol. 2. No. 1. PP. 1 - 17.

(١٣) Victor Burgin, Op. Cit. PP. 33 - 34.

(١٤) Joseph Kosuth, 1975, IN «The Fox», No. 2. PP. 90 - 91.

(١٥) مقابلات منشورة وغير منشورة مع Mary Kelly.

(١٦) كاتالوج معرض General Idea 1968 - 1984. Kunsthall. Basel. Saggi di Jean - Christophe Ammann. Tim Guest e General Ided. P. 39.

ضراوة الذهب

حول حرية الكاتب

هاشم شفيق

■ يجري الحديث الآن بحرارة ساطعة، لا لبس فيها عن حرية الكاتب العربي، بشتى نوازعه المعرفية وميوله الجمالية والفنية، ان كان شاعراً أو روائياً أو قصاصاً أو مؤلفاً مسرحياً أو فناناً.. إن هذه الاقلام التي انبرت للدفاع عن حرية المبدع العربي وتحريرها من ربقة التسلط مهما كان نوعه وهدفه واتجاهه، لهي دلالة عافية على التآزر والتضامن والتلاحم بين هذه الاقلام مع نظيرها القلم الاسير الذي وقع تحت عنت السلطة وعسفها، وانى كان موقع هذه السلطة من الجغرافيا العربية... انه شيء جميل ان يتنادى الكتاب للدفاع عن شرف الكلمة وعن شرعية اتجاهها وعن حرية كاتبها، وشاهدنا في الحديث هنا هو الشاعر المصري محمد عفيفي مطر، وهو صديق قديم، تربطني به وشيجة ادبية وصلة توثقت ابان اقامته في بغداد.

ذات يوم صدرت مجموعتي الشعرية الاولى، «قصائد اليفة» عن وزارة الثقافة والاعلام في بغداد.. قصدت ذلك المكان الذي لم يسبق لي الدخول الى ابهائه المضيئة.. مرة واحدة ذهبت الى هناك وكانت الاخيرة.. ولن انسى ذلك اليوم، حينما هبطت فجأة يد ناعمة ورقيقة على كتفي، وعندما تبينت الصوت الذي وراءها فاذا به محمد

عفيفي مطر يقبلني دون سابق معرفة، غير اني اعرفه بالطبع، آنئذ سألني : أأنت هاشم شفيق؟ لكم تمنيت ان التقيك غير انك لا تتردد على هذه الاماكن!

كانت تلك الايام تغلي بالمفاجآت، انها ايام ١٩٧٨، الظهيرة قائظة، والصيف يلفح الوجوه، والطرقات والنواصي والمواقع والمقاهي واتحاد الادباء والحانات معززة برجال المخابرات بحثاً عن المثقفين الذين لا يمالئون سياسة الحكم القائم في العراق، واولاء المثقفون ليس لديهم سوى سلاح وحيد هو القلم، أي ليسوا من حملة السلاح والمناشير والقنابل لكيما يقوموا بواسطتها بدك مواضع النظام، إنما هم فقراء الارض لا غير، سيماؤهم على وجوههم من اثر العوز والفاقة والحرمان. الحرمان المادي والمعنوي، والعوز الى منبر ثقافي لا يحرمهم من النشر، والفاقة التي تدلل عليهم وهم البعيدون عن مواقع الرفاه والهناءة، بعيدون عن اضواء وزارة الثقافة وحقولها الاخرى من قنوات مرئية ومسموعة ومن الصحف والمجلات.. فقط تلك الاضواء كانت تضيء جباه من استخذى ووقع ضحية للزلفى، يرصّع كلماته في قصائد ومقالات وقصص تتوسل ذا الرأس وذاك، ذا الكتف أو تلك اليد.. وفي النهاية يصبّ غبار المديح في قناة واحدة، في شخص واحد وحيد، انه المديح الاسود المدجج بفصاحة الذل، تلك المدائح التي سرعان ما صنعت ونفخت بروح جلاد صغير، حتى كبرت هذه الروح العطشى للاضاحي، وزهت لتمسي هي الاول والآخر، هي البدء والمنتهي، والآخرون الذين يحفّون به ويخلعون عليه الصفات ليسوا سوى سقط المتاع..

اذن انها ايام ١٩٧٨، الظهيرة قائظة، والصيف يلفح الوجوه، عندما قررت ترك وطني قسراً مثل المثقفين العراقيين الى هذه المنافي اللعينة، الى هذه المنافي القاسية التي تتناظر وقسوة الوطن.. عهدئذ اخبرت صديقي محمد عفيفي مطر بأني راحل، وبقائي يعني تعرضي للسجن والاعتقال.. كنا آنذاك على موعد في مقهى البرلمان، ولقد جاء ليودعني ويسهر الليلة الاخيرة معي في بيت الشاعر سعدي يوسف، وقد جمعت تلك الليلة فضلاً عن محمد مطر الشاعرين العراقيين عبد الرحمن طهمازي وفوزي كريم الذي كنت معه على نفس الطائرة حينما غادرنا العراق، آه ما أحزن ساعات تلك الليلة وأنت تحصيها على يدك، لكيما تغادر وطنك دون ان تعرف متى ستعود اليه.. آه ما اجمل النسيان ما اجمل الذاكرة المبطنة بالضباب والمعرضة للتلف! ساعتها نحّى محمد غليونه جانباً واستلقى على الارض وهو مثقل بالنشوة الخمرية واحاديث تلك الليلة.

اين محمد عفيفي مطر الآن؟ انه يخرج للتو من زنزانة وطنية، ليس في وسعي راهناً، إلا ان ارفع صوتي عالياً عالياً لابارك حريته، فعداوة الشاعر لا تجني سوى الخسارات، بمعنى آخر عداوة الشاعر غير مستحبة كما يقولون مهما كانت الاسباب والدواعي، سواء

كان صدورهـا عـن شخص أو عن دولة فهي في المآل مس بحرية الكاتب ومس بكرامة الكلمة.

اذن هاجسنا الاوحد نحن الكتاب والمبدعين العرب هو الرفع من شأن الكلمة وعدم انحطاطها وبالتالي عدم افساح المجال للنيل من كاتبها، هذه مسلمات وبدهيات وعناصر جوهرية تقبع في وعي كل كاتب شريف، ولكن ألا يجدر بنا ان نكون مع الحق دائماً، مادام هذا هو هدفنا وديدننا وزمام اخيلتنا، أي ان يكون المبدعون العرب سواسية كأسنان المشط امام مثل هذه اللحظات، ليتمتعوا حقاً بشروط هذه المساواتية، أليس هذا هو عين الحق؟ اني اتساءل هنا فقط لمجرد التذكير، فقط لاستدعاء الذاكرات المحمومة التي تنادي بثقافة القومية العربية ووحدتها، لماذا هؤلاء الكتّاب استفاقوا فجأة على هول الواقعة؟ واقعة اعتقال محمد عفيفي مطر، كلنا نقف ذاهلين، نحن الشرفاء من الكتّاب ضد هكذا تصرف، وكما أشرت آنفاً، أكرر مجدداً، أما كان على هؤلاء الكتاب بمن فيهم صديقي الشاعر محمد عفيفي مطر ان يرفعوا اصواتهم اعلاء لحرية الكلمة، تضامناً مع الادباء العراقيين الذين اعتقلوا وعُذّبوا واستشهدوا تحت التعذيب . . .

وهنا اشير بلوعة وحزن عميقين الى بعض من هؤلاء الشعراء الضحايا، ابرزهم الشاعر الشاب خليل المعاضيدي وهو شاعر مات تحت التعذيب في زنازن الوطن . . كان خليل مثقفاً وشاعراً متميزاً وكان شعره يتسم بخاصية نادرة تكشف عن مكونات الواقع وخباياه، وبطريقة فيها نوع من الفنتازيا والتفاصيل الشيقة والجارحة لجوهر الواقع، فضلاً عن ثقافته وشغفه اللامحدود بالشاعرين ويتمان ولوركا اللذين نقلهما آنئذ الى العربية . . الثاني هو الشاعر عبد الحسن الشذر وهو شاعر متشرد ومطرود من مواقع الثقافة السلطوية مثل الكثيرين، كان شاعراً مذهلاً وكان مثاله في الحياة والشعر الشاعر الفرنسي رامبو . ان هذا الشاعر الماثل في ذاكرة من عرفوه وجايلوه من الشعراء دهسته سيارة تابعة لمديرية الامن العام في بغداد ذات ليل دامس، الشاعر الثالث هو صاحب الشاهر الذي مات كمداً وقهراً بسبب انضمامه قسراً لثقافة الحزب الحاكم في العراق، وهو شاعر شفاف ومجيد في شعره، مات وهو في ربيعه السادس والعشرين. الرابع هو القاص حميد ناصر الجلاّوي الذي نشر من القصص التي تمتاز بمسحة ريفية تبحث في شؤون الارض وزارعيها، مات تحت التعذيب، في سجون العراق، الخامس هو الفنان شمس الدين فارس . . استشهد تحت التعذيب في السجن . . ان هؤلاء الشهداء من الشعراء والكتّاب الذين ذكرتهم هم ضمن من اعرفهم وتربطني بهم صلة الصداقة والكتابة . . أما اذا تحجج الكتّاب الذين يدافعون عن حرية الرأي والمعتقد والفكر بانهم لم يسمعوا بهؤلاء النخبة من الاضاحي الثقافية، وبانهم لم يكونوا مشهورين، فاني اود ان اذكرهم بشخصية ثقافية وسياسية بارزة وهي شفيق

الكمالي، وهو شاعر ورسام ووزير ثقافة وعضو قيادة قومية، مات بجرعة ثاليوم في اقبية الامن لدى النظام الحاكم.. هذا الشاعر لكم اسدى لهؤلاء الكتّاب من خدمات، لكم اعطاهم من مال، لكم دلّلهم، لكم ساهم في نشر كتبهم.. لماذا تناسوا الهدايا وتذاكر السفر والمعاشات ورنين الاقداح في فندق ميليليا المنصور وغيره؟ أقول واتساءل لماذا لم يكتب هؤلاء الادنياء من الكتّاب ولو اشارة، تلميحاً، تصريحاً ما، بحق هذا الغياب التراجيدي لشفيق الكمالي منذ غيابه حتى الآن، انها ضراوة الذهب التي حولت رؤاهم بسرعة مذهلة الى خَلَفه في الموقع الاعلامي ذاته، وهكذا دواليك. هذه هي الحقيقة لا غير، انه الصمت الذهبي المدفوع الاجر على شكل ساعات ذهبية، وإلا بمَ نفسر دوام شعراء عكاظ بالتسارع الى كرنفال المهانة في المربد، حيث غبار المديح الاسود يتطاير سخامه من شدة فصاحة اللغة البائتة في تمجيد الطاغية، وفتل المزيد من خيوط التغزل في عينيه وشاربيه ويديه، انه الغزل الذكوري الذي كان يتجلى في كرنفال البذخ هذا!

يا للعار يا لسخام هذه الباصرات التي لم تلتفت لاولئك الضحايا من الشعراء، الذين ذكرتهم، ذكرتهم فقط لوشيجة ما تربطني واياهم، ولا اعرف كم من المغيبين ذهبوا على هذا النحو، انني مررت في هذا الحيز على الشهداءَ لا غير، اما المعتقلون والسجناء من الكتّاب في العراق فهم لا يحصون وتجاربهم السجنية متنوعة وعديدة كتعدد ادوات القمع. وهم الآن يعيشون بين ظهرانينا في المنافي التي اتسعت في العديد من الدول. ولا بأس من ذكر شاهد واحد على ذلك هو الشاعر برهان شاوي الذي اعتقل في عام ١٩٧٨ في اقبية الامن، حيث اعتدي عليه جنسياً ومثّل بجسمه سبعة اشخاص من رجال الامن، طعنوه في كرامته، والسابع منهم انحنى على شيئه واخذه بفمه، يا لهول تلك البشاعة.. كنا نصرخ ونقول ونكتب في صحف المعارضة القليلة الحظ في التلقي ابان تلك الايام وهي ترغي وتغلي وتتفصد ألماً، عن المدى الذي بلغته هذه الوحشية وسطوة مثالها الفاشي، ولكن يبدو ان ذلك الصراخ كان عياطاً في البرية.. لان ضراوة الذهب كانت تغشي البصائر جمعاء.. أقول جميعاً واني بانتظار من يمدني بدليل واحد دان بشاعة هذه المأساة الثقافية.

(عن الناقد ـ نيسان ١٩٩٢)



سنة رامبراندت العالمية / امستردام ـ لندن، برلين

رامبراندت والشرق: جماليات التباين

اسماعيل زاير

في سياق الاحتفاء الواسع بالرسام الهولندي الشهـ [illegible] رامبراندت (١٦٠٦ ـ ١٦٦٩) تقـام خلال عام كامل ابتداء من اوائل سبتمبر ١٩٩١. معارض عديدة في هولندا، ومعرضين شاملين لاعماله في برلين ولندن.

من المزايا الخاصة لاعمال (رامبراندت) قدرته على جعل الظل والضوء قيمة جوهرية في العملية التشكيلية. ورغم ان هذه الميزة لم تقتصر على الرسام الهمولندي وحده، إلا انها اصبحت على يديه شأناً تقنياً ذا طبيعة شمولية لايزال له اثره الكبير في رؤية الفنان المعاصر.

وتتميز تقنية الظل لدى (رامبراندت) بروح شرقية خفية، غالباً ما بعثت على التساؤل عن مصدرها لديه. في السطور التالية محاولة لاقتفاء الاثر الشرقي في حياة وعمل هذا الفنان.

تنطوي علاقة (رامبراندت) بالشرق على مفارقة فريدة، فالفنان رسم ما لا يقل عن ثمانين عملاً متضمناً ملامح مشرقية، سواء من الطبيعة أم من الازياء أم من الاشخاص والمخلوقات.

كما زاد على ذلك انه استغرق بأعادة انتاج العديد من منمنمات الهند على نحو يَشي بعمق اعجابه بها، ولكن الوجه الآخر لعلاقة (رامبراندت) بالشرق هو ان قدمه لم تطأ ارض

أي بلاد من بلدان الشرق، واكثر من ذلك انه لم يغادر (هولندا) قط، ولم يكن حتى وفاته قد تعرف على غير مدينتي (ليدن) ـ وهي مرتع طفولته ـ و (اوتريخت)، وهما لا تبعدان عن (امستردام)، حيث عاش، سوى ٢٠ ميلاً فقط.

وتعود الصلات الواقعية الوحيدة لبرامبراندت مع الشرق الى المحيط الذي عاش فيه وسط مدينة (امستردام)، وكانت هذه المدينة عندما سكنها في النصف الاول من القرن السابع عشر ذات طابع عالمي، تعيش فيها اجناس وامم مختلفة من البشر، حتى ان ثلث سكانها كان، ذلك الوقت، من الاجانب. خاصة اولئك الذين جاءوا من اصول متوسطية وافريقية وعربية، فالمدينة كانت تعج بالبرتغاليين والمغاربة والزنوج والاتراك، اسياداً وعبيداً وقراصنة وقادة اساطيل وتجاراً من يهود المتوسط وشمال افريقيا.

وقد اتفق ان عاش (رامبراندت) في بيت يقع في الحي اليهودي من المدينة، حيث غطى مشهده اليومي نقوش وأزياء ورسوم وأقمشة كان اليهود يعملون في تجارتها أو يرتدونها. وكان (رامبراندت) عندما انتقل مطلع شبابه من (ليدن) الى (امستردام) قد اتقن تقاليد مدرسة (ليدن) في الرسوم الشخصية التي تميزت بحساسية العمل على الظل والضوء، محاولاً، من جهة اخرى، الاندماج في تقاليد (امستردام) التي كانت مركز البلاد المنخفضة (هولندا، بلجيكا، لوكسمبورغ).

واخذت هذه المدينة دورها الرئيسي على اثر انحدار ارستقراطية (هولندا) التي لم تقم بدورها في معركة الاستقلال عن (اسبانيا)، وادى ذلك الى بروز سلطة البرجوازية الهولندية كقوة قائدة، مع ما يجسدها من قيم وتقاليد فنية ذات نزعة استقلالية وتحررية.

وحيث ان «الشرق» كمعطى فني في اوربا والعالم ارتكز بالاساس على المشهد التوراتي والانجيلي. فقد ارتبطت الصياغات الموضوعية لاشكال الشرق بمواضيع الدين والكنيسة واستعارات التراتيل المألوفة:

ولكن هذه الاستعارات تحولت نحو رموز ارضية، على يد الهولنديين خاصة، ولم تعد تركز على موضوعة الضلال والخطيئة البشرية فقط، بل جنحت الى استعارات ذات مدلول اخلاقي رمزي عبر واقعية «التفاصيل اليومية»، غير ان الذي جعل الواقعية الهولندية هذه، ذات سمات خاصة، كما يقول (رودي فوخس) هو استخدامها استعارات مأخوذة من خبرة الفنان الشخصية بالمشهد المحيط به. والى هذا العامل يعود الاستخدام المفرط للرموز الشرقية وغواية العمائم الغريبة والاردية الشرقية الخرافية الى حد ما.

وبنفس الاتجاه يورد (فوخس) ان الاعتبار كان قد اعيد على نحو واسع، في زمن (رامبراندت) للّوحة التي تحكي مشهداً ليس توراتياً، بل ما بعد توراتي، تدخل في عمق تركيبه نزعة الانشاء المسرحي بهندسيته وتركيبيته. الامر الذي جعل من الشرق، تفصيلاً

تشكيلياً ملازماً للعمل.

وارتبط ذلك، من جهة اخرى، بالنزوع الاستقلالي للفن الهولندي عن مدرسة روما وفلورنسا، وتوجه الفنان نحو جمهور ذي متطلبات مختلفة عما لدى الاستقراطية التي رسم لها (دافنشي) و(مايكل انجلو).

ويفسر الناقد الفرنسي «مارك لي بوت» في كتابه (رامبراندت والشرق) تميُّز الشكل الشرقي في لوحته بمحاولته ايجاد شكل من اشكال الطعن بالقيمة الشكلية التي كانت مألوفة، ذلك الوقت، عن الشرق. وبهذا يحاول (رامبراندت) ان يحافظ على الثيمات الشرقية، دون ان يقع في التزيين المظهري.

ويمضي (بوت) في قوله «بان رامبراندت ينطلق من ذلك للوصول الى شكل من اشكال المقارنة والقياس بين ذاته وذات الآخرين (أي الشرق)، وهو امر احتل حيزاً هاماً من انشغالاته الفنية»، وكما ان «استعادة الماضي لدي (رامبراندت) تشتمل على التساؤل حول تبادل الازمنة، وحول الاندماج المنجز بين امكنة وعصور مختلفة في سياق واحد متميز، يغدو فيه «الآخرون» وسيلة لامتحان الذات ومواجهتها».

وفي مقابل الفكرة التي كانت سائدة لدى الغرب، آنذاك، عن ان تكامل الحقيقة المرئية هو الطريق الوحيد لجعل العالم مفهوماً، جرى التشديد على الربط بين الرؤية الناجزة والمغزى الذي تذهب اليه، أو سر الاشياء الخاص. وكانت وسائل هذا الربط قائمة، حسب (مارك لي بوت) على التقنيات بالدرجة الاولى، أي شكل استخدام علاقات المنظور، وتكنيك الخط ومعالجة الضوء وتوأمه الآخر، الظل.

ويتميز مسعى (رامبراندت) عن جيله الهولندي، سواء (فيرمير) أو (فرانز هالس) أو (يان ستين)، انه ركز على وحدة النقائض على المستوى البصري. هذه النقائض التي تنضوي في سياق حقيقتين متوازيتين، الاولى وهي تركيب وتعقيد الحقيقة البصرية، والثانية كونها غير قابلة للاختزال أو الانتقاص.

ولكن اكثر استنتاجات (بوت) اهمية في كتابه هي تلك التي يرى فيها ان نجاح رامبراندت اساساً في التمايز عن اقرانه، إنما يكمن في افتراقه عن مسعى توحيد ثقافات البلدان الخاضعة للاستعمار الاوربي واستيعابها ودمجها في بوتقة واحدة هي (المركزية الاوربية).

واذا كان (رامبراندت) قد نجح في التوقف عند الحدود والتخوم الاولى لهذا المسعى، الذي مضى فيما بعد، بعيداً في سياقه التعسفي والقسري، فانه إنما اعتمد على دفع قناعاته وأفكاره الخاصة قدماً باتجاه علاقة استثمار ذات مضمون مخالف للثقافات الاخرى، يبرز جماليات التباين اكثر مما يسعى الى جمالية احادية موحدة، لذا فان رسومه



تختلف اختـلافـاً بينـاً عمـا اعتدنا رؤيته في الرسوم الاستشراقية، على ما فيها من مسعى موضوعي، فلم يسهم (رامبراندت)، كما نرى في جهود الرسامين الآخرين، في تكريس السلبية التي ميزت ملامح الشخصية الشرقية في لوحته. أو تلك التي تحمل دلالات جنسية غير سوية، بل على العكس من ذلك، نجد ان الشخصيات الشرقية في الكثير من اعماله تحمل ملامح الشخصية الاوروبية التي ترتدي زيها الشرقي تعبيراً عن التمايز.

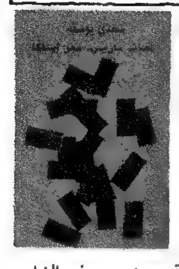
وابقت لوحـة (رامبراندت)، فيما ابقت من القيم الفنية التي تميزت بها، أساليب الـرسم الاوروبي، تلك النـزعـة الانسـانية العميقة التي تبرز تعاطفاً بيناً مع الشخصيات والاحداث، وتركز على المغزى الانساني العميق الذي تنطوي عليه.

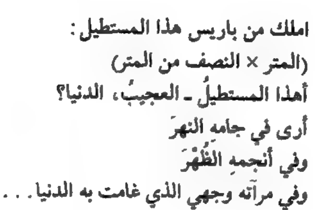
ان (رامبراندت) لم يتعرف على الشرق، ولم يمتحن الحياة الشرقية عن قرب من خلال المعايشة المادية، ولكنه بالتأكيد لمس ملامح «روح الشرق» مستعيناً بخبرته البصرية والرموز القليلة التي وقعت تحت يديه. ورغبته الملحة في الاقتراب من الحقيقة المجردة كفنان محايد.

امستردام ·

سعدي يوسف

قصائد باريس
شجر ايثاكا





املك من باريس هذا المستطيل:
(المتر × النصف من المتر)
أهذا المستطيلُ ـ العجيبُ، الدنيا؟
أرى في جامه النهرَ
وفي أنجمهِ الظُّهرَ
وفي مرآته وجهي الذي غامت به الدنيا. . .

هذا المطلع. . مطلع قصيدة (صباح الجزيرة) لسعدي يوسف في مجموعته الشعرية الجديدة (قصائد باريس، شجر ايثاكا). . هذا المطلع إنما هو بعبارة أخرى «طلعة» سعدي يوسف الشاعر، سعدي المنفي الشاعر، الذي يقول روحه ومنفاه على نحو من التمازج المنفرد في عالمه الشعري الغني بالألفة والغرابة!

هل قلتُ: إني رجلٌ أخطو الى الستين لكني بلا بيتٍ؟
وهل قلتُ: بلادي لم تعد لي؟
أم تراني قلتُ: إن الموتَ في الغربة داري؟

وهذا مقطع آخر، هو ملمح آخر من ملامح سعدي التي لا تفتأ تتجمع له ويجمّعها، منذ أربعين عاماً من الشعر. . من الوطن. . ومن المنفى، وهو في مجموعته الشعرية الجديدة يهزُّ شجرة شعره منذ «القرصان» حتى «شجر ايثاكا» هزّاً يعيد الى الاذهان مجدداً، ويؤكد جوهر تجربة الشاعر ومساراته واسراره. . انه يحصد الاشعار مثلما يحصد المنافي، وليس له بيت ولا وطن، سوى القصيدة يأوي اليها وتأوي اليه:

لي المنظر السرّي
لي ما تتركُ الشفتانِ
لي العظم الذي علكته أنياب الكلاب
ولي الخرافةُ:
أن ألامسَ ما تناءى
أن يكونَ اللصُّ جاري

أن تكون سجارتي عيداً
وأن أرثَ المياه طليقةً من ألف جسرٍ
لي الاصابعُ
والمنابع في لهاث الجذر

لي البيت العجيب...

تضم المجموعة الجديدة أربعا وأربعين قصيدة، كتب معظمها في (باريس)، وهي صادرة عن (منشورات الجمل) ضمن سلسلة (مطبوعات عراقية).

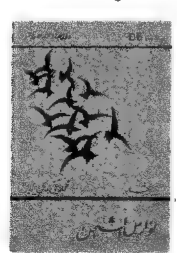
محمد تقي جمال الدين

نوارس الشجن

(نوارس الشجن) هي المجموعة الشعرية الاولى للشاعر العراقي (محمد تقي جمال الدين) صدرت اواخر عام ١٩٩١ عن (دار بغداد للطباعة والنشر) في كوبنهاغن في الدانمارك، وصمم غلافها عامر مطر.

قدم المجموعة الدكتور مصطفى جمال الدين، وهي تضم قصائد من الشعر الحر الى جانب طائفة من قصائد الشطرين، تنتظمها هموم الوطن والمنفى.

من قصائد المجموعة نختار:



.كتبتُ الشعر عن أمي و (فائزةٍ) وأطفالي
وعن سجن بحجم الكونِ صحبي فيه أغلالي
وعن وطني
وما زارت بحارَ القلب حتى اليوم غيرُ نوارسِ الشجنِ

كتبتُ الشعر عن وطني، وخوصُ نخيله حَسْره
وصهرتُ أحسّني سَعَفاً، وبين عذوقه تمره
واهتف خلفَ مشحوفٍ

ترنّح في الاصيل بـ (خورة البصرة)

هيّ هيّ يابلام
احنه حيارى منام
دور البلم من صوبي
وخذني لهلي ومحبوبي»

تموز
العدد صفر

صدر في آذار الماضي العدد (صفر) من نشرة (تموز) التي تصدرها (الجمعية الثقافية العراقية) في مالمو في السويد.

يحمل العدد دعوة الى «جميع العراقيين المخلصين» للكتابة لها «باعتبارها منبراً ديمقراطياً حراً، يعبر عن آراء الجميع».

والنشرة ثقافية أدبية عامة ذات هم سياسي عراقي، وقد تضمن العدد مواد منوعة منها «النفايات في الفضاء الخارجي أخطار على الاقمار الصناعية» للمهندس عبد العظيم الحجاج، مترجمة عن مجلة (البحث والتقدم)، وهناك قصة للكاتب ابراهيم احمد وقصائد للشعراء (هاتف الجنابي ومؤيد عبد الستار وأبو سفر العراقي).

واشار العدد الى نشاطات الجمعية الثقافية العراقية التي تضمنت:

* أمسية شعر شعبي للشاعر رياض النعماني.
* محاضرة بعنوان الشعراء الصعاليك للشاعر شاكر السماوي.
* محاضرة بعنوان شخصية الفنان للاستاذ بطرس حلبي.
* حديث عن الشعر والاغنية العراقية للدكتور مؤيد عبد الستار.
* امسية غنائية للفنان سامي كمال.
* ندوات متسلسلة عن تاريخ العراق القديم بعنوان الحضارات القديمة في وادي الرافيدن. اعدها أبو فرات - ماجستير آثار.
* محاضرة عن مرض فقدان المناعة (الايدز) للدكتور ابو لانا.
* افتتاح دورة لتعليم استعمال الحاسوب (الكومبيوتر)، باشراف المهندس عبد العظيم الحجاج.
* قدمت مجموعة فرقة الاطفال امسية فنية باشراف حنان سامي كمال وايمان سميع.

فائق محمد حسين

الايام العشرة

صدرت اواخر عام ١٩٩١ رواية (الايام العشرة) للكاتب العراقي (فائق محمد حسين)، بعد مجموعته القصصية



التي حملت عنوان (ساعات القلق) والتي صدرت في شباط ١٩٩١.

ومثل غيره من الادباء والفنانين العراقيين الذين يعيشون حياة المنفى، يحمل فائق محمد حسين تجربة لها خصوصيتها، انطلاقاً من خصوصية كل ظرف وكل كاتب.

تحكي رواية (الايام العشرة) تجربة التهجير التي اجتاحت جمهرة من العراقيين اتسعت الى نصف مليون مواطن، عبر منظومة الطغيان التي ارساها دكتاتور العراق.

من سطور الغلاف الاخير للرواية نقتطع ما يلي:

«.. يا للخزي والعار! بين لحظة واخرى تتبدل احوالنا! بالامس فقط كنا عراقيين منهم، اخواناً لهم، نبني ونعمر هذا الوطن الحبيب، واليوم صرنا غرباء، اعداء، فاستوجب طردنا من الوطن!».

راجي عبدالله

ليس هناك سوى صداي

هذا هو عنوان المسرحية التي كتبها وأخرجها (راجي عبدالله) المولود في بغداد والمتخرج في معهد الفنون الجميلة. لراجي عبدالله عدة اعمال منها (ريبورتاجا تقصيرة حولحياة طويلة)، (آخر العالم)، (الصغار والكبار) وأخيراً (ليس هناك سوى صداي).

تقوم بتمثيل هذا العمل (فرقة المسرح الحديث) وهو يدور حول بائع للنفط ترك بلاده هرباً من الحرب والاضطهاد ليحتمي بعالم كان يعتقد انه يمنحه الحرية في العيش وبأمن وسلام، إلا ان هذا الانسان يفاجىء بحياة منعزلة وممارسات لا تليق ببلد يتبجح بالديمقراطية، ويبكي على حقوق الانسان، ففي هذا البلد يبحث بائع النفط سابقاً عن لقمة العيش، يبحث عن عمل ويهتدي صدفة الى امرأة كان كلبها قد غادر الحياة تواً فيعزيها بوفاة الكلب. فتعرض عليه عملاً يخفف عنها احزانها واحساسها بالفقدان ان يكون هذا الشرقي بائع النفط بديلاً عن الكلب وبين الحاجة الى البقاء من ناحية، والكبرياء من ناحية ثانية، يهرب بكبريائه صارخاً ورافضاً لهذا العمل.

في المسرحية حوار كثير استنجد فيه المخرج بقانون الاخلاق للبحث عن مخرج من ازمته، إلا انه لم يجد سوى صداه. لقد عبرت عن ذلك اغلب مشاهد المسرحية التي كانت من الناحية التقنية موفقة.

في العرض الاول لهذه المسرحية اتيحت الفرصة للمشاهد الالماني للمناقشة حول محتوى واسلوب التمثيل، والجدير بالذكر ان هذا العمل هو اول عمل للمخرج في المانيا واول تجربة مع فرقة مسرحية المانية.

في العدد القادم

ملف شعري
من رفحاء الصحراء

وردنا من معسكر اللاجئين العراقيين في رفحاء ملف شعري اعده وساهم فيه الشعراء: واصف الشنون، شعلان شريف، فلاح الصوفي، عقيل منقوش، صلاح الحيثاني، احلام الموسى، كما تضمن الملف تخطيطات للفنان جعفر حنون طاعون. سيظهر الملف في عدد تموز القادم.

(أدب وفن)



حوار مفتوح حول قضايا البديل في العراق . . !

هيئة تحرير الغد الديمقراطي

يلاحظ المراقبون السياسيون ان تطور الاحداث في العراق وحوله وتسارعها يتطلب من قوى المعارضة السياسية العراقية الاتفاق المبدئي على القضايا الاساس للبديل من الحكم القائم، ويرتفع بهذه المسألة الى مصف مسألة من الدرجة الاولى إذ إن بقاء الهوة واسعة في مفاهيم القوى والاحزاب التي تتصدى، كل من موقعه، للحكم الاستبدادي الهمجي في بلادنا، يشكل بداية حلقة مفرغة جديدة تُدخل فيها القوى والاحزاب انفسها، ومعها الشعب العراقي بكامله، فور الانتصار على نظام صدام حسين. ويمكننا ان نقول بثقة ان النتائج الوخيمة لهذا الصراع العقيم معروفة سلفاً. فاسقاط الشكل القائم في العراق من نظام الحكم الاستبدادي الدموي ليس هدفاً في ذاته، اذا لم يكن هذا الهدف قائماً على اقرار الجميع بضرورة تأسيس نظام حكم ديمقراطي يحترم ارادة اغلبية الشعب ولا يتجاهل رأي الاقلية ويقدره، بل ويُفسح في المجال للاقلية للدفاع المتواصل عن رأيها ومحاولتها لاقناع الآخرين به، شرط ان تحترم الاقلية رأي الاغلبية ولا تحاول الالتفاف عليه بطرق تآمرية وانقلابية.

ان المفهوم القديم «الحاقد» الذي قال به البعض علناً ويقول به البعض الاخر سراً اليوم، والمتمثل في «اننا انتصرنا وصار من حقنا ان نقتلهم جميعاً . .» أو حتى الصورة الملطفة من هذا المفهوم، أي انتصرنا وصار من حقنا فرض الحلول التي نرتئيها على الجميع، على المجتمع بكامله، بالقوة الوحشية والدموية المصحوبة بالدجل والتضليل والادعاءات الدينية أو القومية أو التقدمية، هو مفهوم خطر لا يغلق باباً واحداً من ابواب النزاع إلا ليفتح عشرات الابواب له . . وتتكرر الصورة من حيث الجوهر، وتبقى المسألة عصية على الحل. ولذا فان الوصول الى محصلة عامة من المبادىء الاساسية المتفق عليها في التعامل مع القضايا الشاخصة الآن، والتي سوف تشخص مستقبلاً ليس ترفاً فكرياً يمكن تجاوزه، بل هو مسألة غاية في الاهمية. وتتوقف على حلها الصحيح كل بداية ناجحة لمعالجة

معضلات الحكم في العراق مستقبلاً. اننا نرى، مع كثيرين آخرين، ان الحل يكمن في الديمقراطية اسلوباً للحكم، بما تعنيه هذه من تمكين الشعب من اختيار ممثليه في مؤسسات الدولة الديمقراطية بحرية مطلقة وبطريقة مباشرة وسرية تامة عبر صناديق الاقتراع العام لكل العراقيين البالغين رجالاً ونساءً. واذا كان العراق في عهده الجمهوري لم يعرف هذه التجربة، فان ذلك ليس مبرراً لتأخير الشروع فيها، بل العكس هو الصحيح، وسوف يفرضها الشعب عاجلاً أم آجلاً.

ولكي تكون هذه العملية ايجابية ومثمرة الى الحد الاقصى، علينا ان نحيط الشعب، وانفسنا كذلك، علماً بتفاصيل المسائل المراد حلها على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية، مهما كانت عليه هذه المسائل من التضخم والتعقد. وهنا يأتي دور المختصين في اشباع كل جانب من جوانب هذه المسائل بحثاً وتمحيصاً. لا يفترض في الساسة عادة ان يكونوا رجال اختصاص معين، وقد يجهل بعضهم ابعاد هذه المسائل، مفضلاً الركض وراء الحلول الديماغوجية التي توفر له - في ظروف معينة - قدراً كبيراً من المناورة وكسب الجماهير الشعبية بالسعي لتكوين ستار كثيف من الشعارات البليغة والاحاديث الطنانة التي تتملق عواطف الجماهير الشعبية القومية أو الدينية وتصرفها عن المشكلات الحقيقية لتعود بعد فترة - تطول أو تقصر - لادراك الحقيقة، ولكن بعد فوات الاوان. ان تجنيب شعبنا خيبات جديدة ينبغي ان يكون هدف كل الاحزاب والقوى السياسية المعارضة، وان كل من يتصور انه قادر على خداع الناس، كل الناس، استناداً الى تأييد قسم معين منهم له، ليس هو نفسه، سوى ضحية وهم قاتل.

ونرى ان اهم المشكلات التي تتحدانا كمعارضة للحكم الاستبدادي القائم ان نثبت للجميع - عراقيين وغير عراقيين - اننا متفقون فيما بيننا على التباري الحر لخدمة بلدنا، واننا بديل متقدم من نظام حكم صدام حسين وزمرته، بديل أهم عناصره هي:

١ - الديمقراطية كأسلوب في الحكم، بما في ذلك الاقرار الواضح والصريح بتداول الحكم سلمياً وفق ارادة الشعب المعلن عنها في انتخابات عامة حرة ومباشرة وسرية، والنص الحريص على احترام حقوق الانسان والعزم الاكيد على تطبيقها دون أي تحفظ والمراعاة الدقيقة للمواثيق الدولية في هذا المجال، واعتبارها جزءاً ملزماً من النظام القانوني العراقي، تكون الحكومات المتعاقبة مسؤولة امام الشعب العراقي والمجتمع الدولي عن أي انتهاك مهما كان، لهذه المواثيق. والمقصود من هذا كله اقامة دولة القانون الديمقراطية.

٢ - حل المسألة القومية الكردية في العراق بالاساليب الديمقراطية على اساس الاقرار بحق الشعب الكردي في تقرير مصيره بنفسه، والتداول مع ممثلي الشعب الكردي

المنتخبين ديمقـراطياً لاقرار شكل الاتحاد الاختياري بين الشعبين العربي والكردي في العراق مع صيانة حقوق الاقليات القومية الادارية والثقافية في نصوص دستورية واضحة.

٣ ـ حل المسألة الدينية والطائفية من منطلق يعترف بحق كل اصحاب دين أو طائفة في ان يعيشوا وفق منطق الدين والطائفة التي ينتمون اليها، بما لا يضر أو يخل بالمصلحة الاجتماعية العامة، وفي الوقت نفسه ليس من حق أية طائفة ان تفرض سمتها الخاصة على الدولة، أو تتخذ من جهاز الدولة اداة لترويج مفاهيمها الطائفية وقسر الآخرين على الالتزام بها، أو اعتبارهم مارقين يحق لها اضطهادهم وعزلهم سياسياً واجتماعياً.

٤ ـ تحديد أسس النظام الاقتصادي الذي يضع في الاعتبار اسس العدل الاجتماعي وانصاف الفئات الفقيرة ورفع مستواها المعاشي والثقافي والحضاري، في الوقت الذي لا يهمل فيه اصحاب «المبادرة الخاصة» ويمنحهم الفرص الكاملة في المساهمة في اعمار البلاد، وتعيين دور الدولة الاقتصادي في المرحلة الراهنة كمستثمر للموارد الطبيعية في مصالح المجتمع كله، ومساهمة رأس المال العربي والاجنبي في تأهيل الاقتصاد الوطني المدمر. ومما هو جدير بالذكر ان ندوة فيينا المنعقدة في ١٥ ايلول ١٩٩١ تحت عنوان «حـوارات عراقية، اللقـاء الاقتصـادي» قدمت فهماً معيناً لبعض الخطوط العامة للنظام الاقتصـادي الـذي ارتـآه المشـاركـون في الحـوار، وطرحت اوراقه في كراسة «الكارثة الاقتصادية في العراق ـ الديون ـ التعويضات ـ الاعمار ـ النموذج الاقتصادي». وهو اجتهاد يجدر بالجميع مناقشته ليس من وجهة نظر حزبية ضيقة، بل من وجهة نظر وطنية عامة تضع في الاعتبار الخراب المطلق في العراق، وذلك بغية التوصل الى حلول وسطية اكثر ملاءمة للظروف الـراهنـة. وينبغي ان لا يكـون رائد الجهات الليبرالية في نظرتها الى الخراب الاقتصادي الذي حل ببلادنا، نتيجة سياسة الدكتاتورية الهوجاء، هو الاستفادة القصوى من فرص الاثراء التي تهيؤها اعادة الاعمار. فالشعب العراقي المظلوم ينتظر منا المساهمة الجـادة في رسم خطط المستقبـل على اسـاس ضمـان المصلحة العامة اولاً، ومن ثم المصالح الاقتصادية للافراد والفئات والتجمعات الاقتصادية المحلية والعربية والعالمية عبر صيغ تحقق افضل الانسجام بين المصلحتين العامة والخاصة.

٥ ـ وضع الحلول المستقبلية للمشكلات الاجتماعية الناجمة عن حربين مدمرتين، وكذلك النهج العام لنظام الحكم الدكتاتوري الدموي. هذا مع افتراض تصفية تامة وحازمة لكـل مخلفـات النظام العـراقي السـابق في جميع المجالات، ولاسيما ميادين القمع والتعذيب وكبت الحريات العامة والشخصية.

٦ ـ رسم سياسـة عربية وخارجية تأخذ في الاعتبار كل المتغيرات في الميادين: العربي والاقليمي والدولي. واذا كان العراق عضواً مؤسساً في الجامعة العربية، فان صدام

حسين قد خرق ميثاق الجامعة العربية بفظاظة ولم يصغ إلا الى الاصوات التي غذت في نفسه النزعة العدوانية والغطرسة، فأصبح لزاماً على العراق أن يؤكد عملياً بعد زوال الحكم الصدامي انتماءه الى المحيط العربي ومراعاته للقوانين وقواعد السلوك الدولية بين الدول العربية. وما حدث لميثاق الجامعة العربية طال وثائق المؤتمر الاسلامي وميثاق الامم المتحدة. وصار من واجب الدولة العراقية ان تضع قواعد صارمة لسياستها الخارجية تتسم بكونها عضواً فاعلاً ـ بالاتجاه الايجابي في الوسطين العربي والاسلامي، وان تراعي بدقة سياسة حسن الجوار والتعاون المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للاطراف الاخرى، وتعمل على صيانة السلم في المنطقة والعالم، وتعلن التزامها بكل المواثيق الدولية وأولها ميثاق الامم المتحدة بما لا يدع مجالاً للتفسيرات المراوغة.

٧ ـ تحقيق السيادة الوطنية. لقد وضعنا هذه المهمة الاولى من بين مهمات الحركة السياسية في النهاية لاننا ندرك الملابسات التي تحيط بنا جميعاً، وكذلك الظروف التي خلفتها الزمرة الحاكمة في العراق بالتجائها الى القوة في حل خلافاتها مع الجيران والاشقاء، ولاننا نعرف ان هذه المسألة على غاية من التعقيد ولا يمكن انجازها بضربة واحدة بدون خلق اجواء من الثقة بين الدولة العراقية في طورها الجديد والمحيطين الاقليمي والدولي. وهذه عملية طويلة نسبياً بغض النظر عن العواطف والمشاعر الوطنية الملتهبة.

وان ما تطمح اليه المعارضة العراقية هو ان تأخذ دول الجوار وكذلك المجتمع الدولي بصفة عامة في الاعتبار مطلب الشعب العراقي الاساسي في السيادة الوطنية والوحدة السياسية والاقليمية للعراق، وان تبذل مساعيها في التوصل الى تسوية عادلة لا يتكرر في ظلها اللجوء الى القوة أو التهديد باستعمالها من أي طرف كان كوسيلة لحسم المسائل المختلف بشأنها. ومن المعروف ان اللجوء الى الانتقام فيما يتعلق، برسم حدود اقليم الدولة دون الرجوع الى الحقائق التاريخية الثابتة يمكن ان يكون التربة الصالحة لتأجيج النعرات الانتقامية لدى الطرف المهزوم، خالقاً بذلك موقداً لنزاعات جديدة. فالمطلوب ليس فرض هدنة، مهما طال امدها، بل ارساء أسس ثابتة لنظام أمني عادل في المنطقة كلها. ولنا في نظام فرساي الذي تمخض عن الحرب العالمية الاولى، وجسد ارادة المنتصر، عبرة ومثلاً مرشداً، فقد كان العامل الاول وراء تأجيج النزعة القومية الالمانية وفكرة الانتقام التي قادت العالم الى جحيم الحرب العالمية الثانية.

هذه بعض القضايا الرئيسة المطروحة على المعارضة العراقية والتي يتوجب علينا جميعاً التوصل الى اتفاق راسخ بشأنها. وتشير المعلومات المتوفرة الى ان الوثائق التي اقرتها اللجنة التحضيرية لمؤتمر المعارضة العراقية الثاني تقترب كثيراً من هذا الفهم، مما

يفتح الطريق الى نوع من الوحدة في اطار التنوع يخدم تطور الحركة السياسية العراقية لاحقاً، ويجعلها تتجنب المزالق التي تحاول بعض القوى الاقليمية والدولية دفعها اليها. ونحن واثقون ان الحركة السياسية العراقية قد بلغت من النضوج بحيث اصبحت قادرة على التمييز بين مصالح الشعب العراقي والمناورات السياسية الرامية الى استثمار الظروف المحيطة بالعراق حالياً لغير مصلحة الشعب والبلاد.

عن (الغد الديمقراطي) نيسان ٩٢
التجمع الديمقراطي العراقي

حركة المهجرين العراقيين

باعتبارها الناطق الرسمي باسم (حركة المهجرين العراقيين)، نشرت صحيفة (الموقف الاسلامي) في عددها (٦٤) الصادر في ٢/آذار/١٩٩٢ عرضاً لاهداف وتطلعات هذه الحركة. ومما جاء في العرض:

١ ـ انها حركة سياسية، يجري عليها ما يجري على التنظيمات السياسية الاسلامية من حيث التنظيم الداخلي والثقافة الخاصة واسلوب العمل السياسي والفكري والاجتماعي ونمط التعاطي الايجابي مع الحركات والتيارات والفصائل الاسلامية العراقية.

٢ ـ الحركة لديها برنامج سياسي متكامل ورؤية حضارية في مجال الدعوة الى الاسلام كمحور رباني في قيادة الحياة، وتؤمن بالخصوصية الفكرية التي تعطي للحركة مجالاً حيوياً في ممارسة نشاطها واسلوبها في التعاطي مع الطروحات والمشاريع والمبادرات السياسية.

٣ ـ تعتمد الحركة في عملها السياسي والفكري على نظرية اللاعنف وإقامة العلاقات الطيبة مع المجال الاسلامي العام، وترفض استخدام الاساليب التي تتنافى مع اخلاقية الاسلام وعقائديته في تنفيذ برامجها وإهدافها.

٤ ـ تحاول الحركة بشتى السبل الواقعية والمقرة، نقل قضية المهجرين من اعتبارها قضية انسانية تستأهل العطف من المجتمع الدولي ومراكزه ومؤسساته الانسانية الى قضية سياسية ينبغي ايلائها اقصى قدر من الاهمية.

٥ ـ تؤمن الحركة بالدور الذي تلعبه البلدان الصديقة والحليفة من اجل انقاذ شعبنا العراقي ودعمه للتخلص من شبح الدكتاتورية والقمع السلطوي، وتعتقد ان دعم هذا الدور، انما هو دعم لقضية الخلاص الشعبي.

٦ ـ تعتقد الحركة ان التعاون والتنسيق واحترام حرية الرأي والرأي المضاد وممارسة العملية النقـدية بأصولهـا وضوابطها وشروطها الاخلاقية هو الاساس في بناء العلاقات السليمة والتحالفات الايجابية والاستراتيجية وان أي تجاوز على هذه القيمة الاساسية هو تجاوز على الحالة الحضارية التي ينبغي ان تسود حركة المعارضة العراقية.

٧ ـ العمل على ايصال مظلومية ابناء الامة في العراق الى كل المؤسسات والمراكز السياسية والانسانية والحقوقية وعدم التهاون في أمرها، لان مشاطرة جمهور الامة والبقاء في خندق طموحاته وآماله في الحياة الحرة الكريمة، إنما ينبثق من مسألة الدفاع عنه وتبني قضاياه.

٨ ـ السعي الى بلورة موقف اسلامي عراقي موحد، وتشكيل جبهة اسلامية عراقية لأن الاسلاميين العراقيين بما قدموه من تضحيات غالية، على امتداد عمر المواجهة مع طواغيت بغداد، هم الرقم الصعب في معادلة القوة، بدون أي تجاوز أو رفض للتشكيلات السياسية القومية والوطنية العراقية، التي تنظر الحركة لها ولمسيرتها وتاريخها باعتبارها جزء فاعلاً لحركة الثورة والتمرد ضد النظام، سعياً الى تحقيق الاهداف المقدسة في الحرية والاستقلال والكرامة.

كما جاء في العرض:

ان التنوع الذي يحكم حركة المعارضة العراقية في نظرنا، حالة حضارية تقرها سنن العمل السياسي والاجتماعي واساليب التجارب والمنحنيات الفكرية والسياسية التي مرت في تاريخ الشعوب، ولئن هذا التنوع اصبح حالة حقيقية وبدأت المعارضة العراقية تتعايش معها كمبدأ ثابت في تعاطيها بعضها البعض الآخر، فاننا نعتقد ان الحركة وان كانت تدافع عن قضية المهجرين وتناضل من اجل نقلها من اطارها الخاص الى العام، فانها لا تجد أي حرج أو ممـانعة من الكيانات والتجمعات التي تدافع عن المهجرين العراقيين، بل تعتقد ان التعاون والتنسيق والتفاهم هو الذي ينبغي ان يسود في حركة العمل المشترك. لقد كنا في الحقيقة وهذا ما تشهد به وقائع التاريخ القريب، السباقين في الدعوة الى تبني قضية المهجرين العراقيين ومادام التنوع يفرض على الجميع اليوم التنسيق والتفاهم فينبغي ان يتعمق الاحساس بالمسؤولية والارتفاع الى مستوى الدفاع عن شرعية الامة في تصديها لطواغيت بغداد وخوضها لغمار المواجهة العنيدة.

بقيت هناك جملة اثارات كان لا بد من ذكرها ونحن نستعرض بشيء من الايجاز اهم الخطوط الاساسية للحركة وفلسفة وجودها وشرعية عملها، ومن بين هذه الاثارات ان الحركة تؤمن بالعمل الشوروي المبني على ابداء اقصى درجات الاخلاقية العالية في ترتيب بيت الحركة، وترفض بشكل قاطع، أي شكل من اشكال الدكتاتورية والقمع

الفكري والسياسي.

كما وتؤمن الحركة بالتعددية الفكرية والسياسية، وتعتقد ان هذا الأمر ينبغي ان يتحرك بحرية من دون ممارسة الضغوط أو اساليب الابتزاز لتشويهه وتجاوزه، فبالتعددية الحزبية والسياسية والفكرية يمكن لاية تجربة أو معارضة أو دولة، ان تستوعب كل السلبيات والتناقضات ومن خلالها يمكن الارتفاع بالامة الى التأكيد على خصوصياتها المشتركة، حتى يبدأ جميع المنضوين في اطار التعددية من ارساء دعائم الفعل الحضاري وتشييد اسس النهضة.

يغتالون الوطن ويتباكون عليه

اين هي مصلحة الوطن، وكم تشغل من اهتمام واهداف التحركات التي تشهدها ساحة المعارضة العريضة الطويلة.

للاسف، لا نغالي اذا قلنا ان ساحة المعارضة اتسعت لكل المصالح والمطامح والمغانم، إلا مصلحة الوطن..

وحدها مصلحة الوطن هي الغائبة، بينما المشاريع والطروحات التي تعج بها ساحة المعارضة العراقية تحركها المصالح الشخصية والفئوية والاقليمية والدولية وكل طرف يتحمس ويشارك «ويضحي» من اجلها، بقدر ما يكسب أو يأمل ان يكسب منها.

اين هي مصلحة الوطن من كل ما يجري، اين الوطن، شعباً، وثروات وحاضراً ومستقبلاً؟

ليت ظاهرة الانقسامات والولادات والتشتت والضعف هي وحدها التي تعكس غياب مصلحة الوطن وهيمنة المصالح الاخرى. بل حتى مظاهر «الوحدة» و«الائتلافات» و«الوفاق» والعمل المشترك تعكس ذلك، وهي لا تبدأ إلا لتنتهي اكثر ضعفاً وهزالاً، واكثر بعداً عن مصلحة الوطن التي لم تخط باتجاهها خطوة واحدة.

كم تريد «معارضات» الخارج من الزمن اكثر مما مضى؟ وكم تطلب من الفرص اكثر مما حصل؟ وكم من التضحيات التي يقدمها الشعب على يد اعتى جلاد، اكثر مما قدمه شعبنا؟

كم تريد اكثر من هذا حتى تتقدم هي خطوة واحدة باتجاه مصلحة هذا الوطن المحترق بأيدي أهله قبل اعدائه؟

سمعنا، ومازلنا نسمع ـ فصائل المعارضة، العراقية وشخصياتها يطالبون بمؤتمر

وطني لكافة القوى، كضرورة وطنية تكون مدخلاً اساسياً للاطاحة بصدام حسين وزمرته . .
حتى اصبح عقد المؤتمر، هدفاً مشتركاً يطالب به كل عراقي، داخل الوطن وخارجه .

لكن نظرة فاحصة للاسباب التي تحول دون عقد المؤتمر تكشف لنا الزوايا المظلمة التي يغتال فيها الوطن، والمصالح العديدة الحاضرة على حساب مصلحة الوطن.

انهم يغتالون الوطن ويتباكون عليه . .

عن «البديل الاسلامي» ١٦ نيسان
سياسية اسلامية مستقلة

المعارضة العراقية مدعوة لوحدة الصف واليقظة ووضوح الرؤية

المخاطر تتفاقم كما توضح وتؤكد ذلك جملة من المؤشرات والوقائع والمعطيات. فنظام صدام حسين اخذ «وضع الانبطاح» الكامل امام ضغوط القوى الكبرى وفي مقدمتها الولايات المتحدة، ففي محاولات عدة لفك العزلة والحصار، ولو جزئياً، واطلاق يدهم العابثة للمضي في اللعب بالنار داخل البلاد، قدم الحاكمون في بغداد تنازلات توجت اخيراً بالموافقة على تدمير ترسانة العراق، اسلحة ومنشآت، وبأموال عراقية هي ملك الشعب العراقي الذي راكمها بعرق جبينه وكدحه وتضحياته الجسام ليُحرم من رغيف الخبز ومن الدواء ومن العيش بحرية وكرامة. وتتوجت ايضاً بارتهان نفطه وذلك بالموافقة على تصديره بشروط وضعت حكومة بغداد في وضع الذليل الذي فقد الغيرة وداس على كل القواعد والضوابط والمعايير الوطنية والاخلاقية.

ومنذ وقت غير قصير والحاكمون في بغداد يحشدون عسكرهم واسلحتهم الفتاكة في كردستان العراق، لا لمقارعة عدوان خارجي والدفاع عن حياض الوطن الجريح، بل لتحقيق مآربهم الشريرة في الهجوم الغادر والاعتداء الآثم على شعب آمن يطمح لنيل حقوقه القومية الاولية المشروعة في عالم يشهد موجات بشرية صاخبة للمطالبة بالديمقراطية وحقوق الانسان. فالانباء الاخيرة تفيد بأن عسكر صدام حسين لجأ، وعلى نطاق اوسع من ذي قبل، الى المشاغلة والمجابهة واستعراض القوة والتهديد والوعيد بالاقتصاص. فشن هجومه على مناطق في كردستان منطلقاً من (اسكي كلك) واشاع الرعب بين السكان في

بعض القرى. وذكر بعض المراقبين، وباندهاش ملفت للنظر، بانه بدأت تصل في الآونة الاخيرة الى مواقع الحشود العسكرية الحكومية في كردستان مدافع ثقيلة وبمعدل (١٥٠) مدفع يومياً. ويُتوقع بان توسع قوات حكومة صدام حسين من نطاق عملياتها العسكرية في مواجهة الانتخابات التي تزمع جميع احزاب الجبهة الكردستانية العراقية اجراءها. ولا يخفي حكام بغداد خشيتهم من ان تتحول الممارسة الديمقراطية في كردستان الى عملية ديمقراطية شاملة تهدف الى الخلاص من الدكتاتورية واقامة حكومة الانقاذ الوطني في البلاد ويدرك صدام حسين ورهطه بانه اذا ما قُدر للعملية الديمقراطية في كردستان العراق ان تنجح فسوف يعتبر ذلك عملياً التمرين الاول الذي يقوض سلطة «المركز».

وليست الحشود العسكرية التركية على الحدود العراقية سوى حلقة اخرى في مسلسل المخطط. فالحكومتان، العراقية والتركية، لهما مصلحة مشتركة في قمع الحقوق القومية المشروعة للكرد في البلدين، ولهما ايضاً مصلحة متبادلة في ضمان سريان التعامل بالنفط. فمن جهة، تركز حكومة بغداد اهتمامها على بسط سيطرتها وهيمنتها الكاملة على مصادر النفط في كردستان وخاصة بعد السماح للعراق بتصدير نفطه ضمن شروط مجلس الامن وهيئة الامم المتحدة. وحكومة انقرا، من جهة اخرى، مهتمة اقصى الاهتمام بمعاودة مرور النفط العراقي عبر اراضيها لتأمين الاموال اللازمة لترميم اقتصادها الذي يعاني من الازمات والهزات العنيفة المسببة للتوترات الاجتماعية والسياسية.

أما دول المنطقة، وخاصة الاقطار الخليجية، فلا يروق لها البديل الديمقراطي الذي ثبتته في برنامجها ومشروعها السياسي احزاب وجماعات عدة من المعارضة العراقية. كما ان معظم دول المنطقة لا يخرج رأيها وموقفها من أزمة النظام العراقي عن اطار التسوية الامريكية والحل الامريكي الذي يميل الى تدبير انقلاب عسكري من داخل المؤسسة العسكرية، لان حلاً كهذا يوفر الضمانات في المنطقة لمصالح الولايات المتحدة خاصة ومصالح الدول الغربية عامة فضلاً عن تطمين مصالح دول المنطقة التي تعتبر حليفة وشريكة للولايات المتحدة ويثير مخاوفها البديل الديمقراطي المحتمل في العراق.

ولا بد من التنويه الى الزيارة المفاجئة والغامضة للملك حسين، ملك الاردن، في وقت سابق من الشهر المنصرم الى الولايات المتحدة ومباحثاته التي احيطت بسرية وكتمان شديد مع الرئيس الامريكي بوش. وأتت هذه الزيارة بعد يوم واحد فقط من اجتماع الملك حسين مع طارق عزيز نائب رئيس الوزراء العراقي في عمان.

ألا يدل ذلك، وارتباطاً بالتنازلات العراقية التي تلت مباشرة المباحثات الآنفة الذكر، على صفقة جديدة جرى الاعداد لها من وراء الكواليس؟ وأليس محتملاً، ومجرد احتمال، ان يكون من اهداف المخطط الجديد الترتيب الى مجابهة واسعة بين عسكر صدام حسين

من جهة والمعارضة العراقية في الشمال والجنوب من جهة اخرى بقصد اضعاف الاخيرة، أي المعارضة، اولاً واتخاذ المجابهة ذريعة لاسقاط صدام حسين بانقلاب عسكري ثانياً؟

ان هذه اللوحة السياسية السريعة بكل احتمالاتها وترابطها وتناقضاتها وابعادها، تستدعي من المعارضة العراقية وقفة جادة لتدقيق وتمحيص الموقف برمته لئلا تقع فريسة وضحية لسوء التقدير وارتكاب اخطاء قد تقودها الى التراجع والانحسار وتحرمها من فرص المساهمة النشيطة والفعالة لاخراج البلاد من الازمة الخانقة الراهنة وتحقيق البديل الذي يرمي الى اقامة حكومة الخلاص الوطني.

ان نظرة فاحصة للاحداث الجارية في العالم لا تدع مجالاً للشك حول امكانية الاستفادة، واقصى الاستفادة، من الظواهر والعناصر الايجابية في حركة المجتمع الدولي. بيد انه لمن الاخطاء الشائعة في وقتنا الحاضر، برغم كل ما هو ايجابي، التعويل والاعتماد، اكثر مما ينبغي، على مساندة حركة المجتمع الدولي التي تحمل التناقضات في طياتها وفي مسارها المتعرج. وهو ما تؤكده بعض الاحداث الراهنة في دول ومناطق عدة ومواقف الولايات المتحدة حيالها، تلك المواقف التي تفرض فرضاً بصورة انفرادية في الواقع وتوحي باستخدام العصا الغليظة في ظل تناسب جديد وترتيب جديد على مسرح القوى العالمية.

وأما عن الاوضاع في المنطقة ونخص بالذكر منها الاوضاع في الدول المجاورة والمتاخمة للعراق فهي اجمالاً في غير صالح الحركة الوطنية والديمقراطية العراقية، أو حركة المعارضة العراقية.

هذا عن العوامل الخارجية عموماً. وماذا عن الحالة في داخل البلاد؟ ان نظام بغداد في وضع لا يحسد عليه وهو يعاني من ازمة اقتصادية وسياسية واجتماعية واخلاقية عميقة وطاحنة ولم يسبق لها مثيلاً. وتتراكم اكثر فأكثر العوامل التي تنخر في جسم هذا النظام وتشل من حركته ويجد، أي النظام، صعوبات لا حصر لها تحول دون تجاوز ازمته وكسر الطوق الذي يلتف حوله.

وما يتعلق بالمعارضة العراقية فهي، برغم كل التقدم الذي احرزته في مسيرتها وهو تقدم ذو شأن كبير لا يجوز التقليل من تأثيراته وفاعليته، ماتزال تعاني من التشتت والخلافات حتى في المسائل التاكتيكية والتباين الشديد في الآراء حول التصورات المستقبلية. وماتزال النظرة الفئوية الضيقة تهيمن على عقلية قيادات فصائل غير قليلة في لجنة العمل المشترك (لعم)، وماتزال قائمة الخلافات بين اطراف في لعم واطراف في الجبهة الكردستانية العراقية (جك). وتؤكد انباء اخرى قيام محاور ومراكز عدة للمعارضة العراقية تسعى الى عقد مؤتمراتها بصورة منفردة وانطلاقاً من نزعة ذاتية وبعيداً عن التشاور

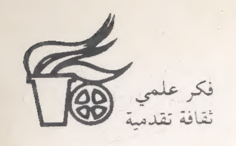
وتبادل مشترك للآراء والاتفاق على الاعمال الموحدة ذات القاعدة العريضة. ولا مرد من القـول بصـراحة بان عدداً لا يستهان به من اطراف المعارضة لا يعي الاخطار المحدقة والتعقيدات والصعوبات القائمة امام حركة المعارضة، الامر الذي يدفع بها الى الانجرار وراء الاعمال المتطرفة والمغامرة نتيجة للاعباء ونفاذ الصبر. كما ان فقدان التوازن في تقدير الاحتمـالات وتقييم دور وتأثيرات العوامل والعناصر الخارجية والداخلية يطبع هو الآخر مواقف فصائل اخرى في المعارضة. وليست هناك من حاجة الى جهد كبير لكي يمكن معـاينـة التكابر في الكثير من المواقف مما يدفع ببعض اطراف المعارضة الى المبالغة المفرطة بقدراتها وامكانياتها ومواقعها في حركة المجتمع العراقي ويقودها نحو الاستئثار وتجاهل الشركاء في الحركة، أي ادعاء تمثيل المعارضة لوحدها دون غيرها.

ان المعارضة العراقية مدعوة للتماسك، الى وحدة الصف لكي تكون اقوى واقدر على الاضطلاع بالمهام التي تواجهها. ويتعين على المعارضة ان تتحلى باليقظة والحذر حيال الدسائس والمناورات والمخططات الخبيثة والاخطار التي تتصدى لها دون ان تفقد الصبـر ودون ان تستعجـل في دفـع الامور نحو المتاهات والمزالق والمجازفات وتخسر المعارك تلو المعارك امام عدو غير غبي وماكر ومايزال يمتلك الادوات القادرة على انزال الضربات واعاقة حركة المجتمع من التقدم نحو الامام.

وانطلاقاً من ذلك كله وغيره، واذا ما توافرت شروط وعناصر القوة للمعارضة العراقية من خلال التغلب على العوائق والاختلافات القائمة وتجاوزها بروح المسؤولية العالية حيال مصائر الشعب والوطن، فان تناسب القوى الداخلي سوف يتغير، لا محالة، ويميل لصالح القوى الحية في المجتمع العراقي، لصالح معارضة عراقية تتبنى برنامجاً متماسكاً وواقعياً يعبر عن رؤية واضحة للآفاق المستقبلية، برنامجاً يتماشى مع الحاجات الراهنة للتطور الداخلي بعد الخراب الشامل الذي لحق بالبلاد، برنامجاً يراعي اتجاهات التطور العالمية والترتيب الجديد للاوضاع الدولية ويستفيد من كل ما هو ايجابي ونافع في هذه الاتجاهات.

عن (الاتحاد) نيسان ٩٢

جريدة الاتحاد الديمقراطي العراقي في اميركا وكندا



السعر ديناران